مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الرابعة عشر/ العـــدد السادس والخمسون/ لسنـــــة ١٤٤٥هـ

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العراق . النجف الأشرف

مركز الهدى للدراسات

مؤسسة فكريّةٌ تنشطُ في ميدانِ البحثِ والمساهمةِ في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر؛ إيماناً منها بقدرة الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام على تقديم البديل الحضاري للإنسان، وتُعنى بالدّراسات الفكريّة والسياسية والتاريخية لحوزتي النجف الأشرف وقم المقدّسة؛ رغبةً منها في ترسيخ الثوابت، والوقوف بوجه الفكر الدّخيل.

مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الرابعة عشر/ العدد السادس والخمسون/ لسنة ١٤٤٥هـ

الهيئة الإستشارية

◄ السيد يوسف الحلو
• أستاذ حوزة النجف الأشرف

◄ الدكتور علاء محسن الكناني
• جامعة بغداد

◄ الدكتور سلام خسرو
• جامعة المستنصرية

◄ الشيخ حسين السعيدي
• أستاذ في الحوزة العلمية

◄ الدكتور علي عبد الأمير
• جامعة بغداد

◄ الدكتور سمير الأسدي
• جامعة بابل

◄ الدكتور علي فياض
• جامعة طهران

◄ الدكتور صفاء السويعدي

◄ الدكتور باسم الكناني

الإخراج الفني

أحمد هاشم

الإشراف العام

قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

التنسق والمتابعة

محمد حميد الهاشمي

عصام الساعدي

معد الترجمة الفارسية

حسن علي مطر

هيئة التحرير

◄ أ. سمير العطواني
◄ أ. هادي بدر الكعبي
◄ أ. ضياء كاظم الهاشمي
◄ أ. عمار الولائي
◄ أ. حيدر آل وشاح
◄ أ. إبراهيم الأسدي

مجلة الهدى

العدد السادس والخمسون/ السنة الرابعة عشر / ١٤٤٥

الناشر: مركز الهدى للدراسات الحوزوية

المطبعة: الصنوبر

قطع الورق: ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات: ٢٧٠ صفحة

التصميم والاخراج الفني: أحمد الهاشمي

سنة الطبع: ٢٠٢٣ - ١٤٤٥هـ

❖ البحوث الواردة في مجلة المنهج تعبّر عن رأي كاتبها.

❖ ترتيب البحوث خاضع لاعتبارات فنيَّة

هَوِيَّةُ المَجَلَّة:

مجلَّة [الهدى] فصلية علمية تعنى بالشـــؤون الحوزوية والمعرفة الدينيـــة، تصدرُ عن مركز الهدى للدراســـات الحوزوية، تعنى بالفكر الإســـلاميِّ المســـتنير وما يتَّصل به من المجالاتِ والتخصُّصات، في الشـــريعةِ والتأريخِ والقانونِ والفلســـفةِ وعلم الـــكلام الجديدِ والعلوم الإنسانيَّة المختلفة، مضافاً للفكري الحوزوي وتاريخ المرجعية والفكر المقاوم.

شُرُوطُ الكِتَابَة:

١. يتراوح حجمُ البحث بين (١٠ ـ ٢٥) صفحةً بحجم (A4).
٢. ينضَّـــد البحثُ على قرصٍ مدمـــجٍ (CD)، أما التصحيحُ اللغويُّ فتتكفَّل به المجلَّة.
٣. يجب أن لا تكون البحوثُ منشورةً سابقاً، في الصحف أو الدوريات أو مواقع الإنترنت على الإطلاق، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشـــره في مكانٍ آخر إلا بعد أخذ الموافقة من المركز.
٤. تخضع البحوث لتسلســـلٍ فنيٍّ في النشر، ولا يحقُّ للكتّاب الإعتراضُ على تأخير نشر المادَّة، لأنه أمرٌ تابعٌ لهيأة التحرير حصراً.
٥. تُقبل البحوثُ والدراساتُ المكتوبة بلغةٍ ثقافية مميزة، أما البحوث الضعيفةُ فتهمل ولا تعادُ إلى أصحابها.
٦. المجلَّة ليســـت ملزمةً بإرجاع الموادِّ إلى أصحابها، سواءٌ نشرت أم لم تنشر.
٧. يرفق الباحث ملخصاً مع البحث لا يزيد على نصف صفحة.
٨. تكون الهوامش متسلسلة في الصفحة نفسها لا في نهاية البحث.

المحتويات

٧ **كلمة الإمام الخامنئي**
في لقاء مع المبلغين وطلاب الحوزات العلمية

٢٥ رؤية الامام الخامنئي للحرب الناعمة ح١
تحقيق الدكتور علاء محسن

٦٧ البعد العلمي في نشأة الحضارة الاسلامية في منهج الامام الخميني قدس سره
الشيخ الدكتور علي ابراهيم

٩٣ لماذا يكره الغرب الإسلام
اية الله الشيخ حسن الجواهري

١٠٣ دروس في الثقافة المهدوية
السيد رياض الحكيم

١١٧ التجليات الأدبية والبلاغية لتفسير درة المعاني
علي عباس بور

١٣٣ موقع ولاية الفقيه في نظرية الحكم والإدارة في الإسلام
السيد جعفر مرتضى العاملي

١٥٥ بحوث في ولاية الفقيه
حجة الإسلام الشيخ أسامة الخزرجي

١٧٧ الثورة الحسينية في الرواية التاريخية والقراءة الاستشراقية
أ. د جواد كاظم منشد النصر الله ❖ م. م شهيد كريم محمد الكعبي

٢٤١ الاحتلال البريطاني للعراق وجهاد المراجع والحوزات العلمية
محمد صادق الهاشمي

٢٥١ الموكب ح١
الشيخ غلام رضا ابا ذري

كلمة الإمام الخامنئي
في لقاء مع المبلغين وطلاب الحوزات العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا، أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى آله الأطيبين الأطهرين المنتجبين، [ولا] سيما بقية الله في الأرضين.

إنه أمر حلو وممتع للغاية بالنسبة إليّ أن أكون بين هذا الجمع المحترم والمعزز من الطلاب والفاضلين الأعزّاء. لطالما كانت إحدى أمنياتنا أن نتنفّس ونعيش في جمع الحوزة وطلاب الحوزات ومجموعة المسؤولين عن الدين المخلصين في الحوزات العلميّة. كنت ذات مرة في حضرة الإمام [الخميني] عندما كان يكلفني رئاسة الجمهورية للدورة الثانية، وقلت: سيدنا، بعد الدورة الأولى هذه أريد أن أذهب إلى قم وأبقى هناك. قال سماحته: وأنا أيضاً أتمنى أن أذهب إلى قم، لكن لا يمكن ذلك. هذه أمنيتنا: أن نكون بينكم وأن نكون ونعمل معكم. أيها الإخوة والأخوات الطلاب الأعزاء، أنتم ضمن أفضل الفئات الموثوقة التي يمكن للمرء أن يعمل ويسعى معها مرتاح البال.

طبعاً، المواضيع التي تحدث عنها الشيخ أعرافي كانت جيدة للغاية. قبل المجيء

إلى هنا، وداخل هذا الممر، كانوا قد نظّموا ما يشبه المعرض وذكروا فيه بعض الأنشطة والأعمال، كانت أموراً سارة جداً لي. ما قيل هنا تحت عنوان «مهمات الحوزات العلمية» وجرى تصويره في ذاك المعرض هو موضع تأييد مئة بالمئة من هذا [العبد] الذليل.

يمكن الحديث كثيراً عن الحوزة والحوزويين، ويمكن التحدّث عن أبعاد مختلفة. تلك النقطة التي اخترتها لأتحدث عنها اليوم هي قضية التبليغ. إثر المعلومات التي تصلني من جهات مختلفة، أشعر بالقلق حيال التبليغ حقاً! نعم، هذه الأنشطة كلها التي جرى ذكرها وشرحها وقُدّمت تقارير عنها واقعية وصحيحة، ونعلمها، ورغم ذلك، فإن حاجتنا أكثر من هذا الحدّ! إنّ فرص التبليغ في هذا البلد هائلة ومتراكمة وشاسعة لدرجة أنه حتى لو عملنا أضعاف المقدار الذي نعمله، فلا أعتقد أن هذه الفُرص ستُلبّى. إننا بحاجة إلى كل من التبليغ والوعظ والبحث أيضاً. إذا لم يكن تبليغنا مبنياً على البحث، فسيكون بلا مفعول وأبتر، وسوف أذكر موضوعاً في ختام حديثي. لذا، أعددت اليوم بعض المواضيع حول التبليغ وسوف أحدّثكم عنها، أيها الأعزاء.

وفقاً للنظرة السائدة اليوم في الحوزات العلمية فإنّ التبليغ يقع في المرتبة الثانية، بينما المرتبة الأولى هي لأمور أخرى، من قبيل المقامات العلمية ونحوها. التبليغ في المرتبة الثانية، لذا علينا أن نتخطى هذه النظرة، فالتبليغ في المرتبة الأولى. هذا ما أروم قوله. لماذا نقول هذا؟ فما الذي نراه هدفاً للدين؟ ماذا جاء دين الله ليفعل لنا نحن البشرَ؟ حسناً، لدينا هدف نهائي هو أن يجعلنا نرتقي ونسمو في مسار خليفة الله ومسار الإنسان الكامل – وفقاً للقابليّات التي نملكها طبعاً – وهذا هو الهدف النهائي للدين. ثمة أهداف متوسطة وأوليّة أيضاً؛ مثلاً إقامة القسط: ﴿لِيَقُومَ

النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد، ٢٥)، أو إرساء النظام الإسلامي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (النساء، ٦٤). مركز الطاعة هو الدين. وهذا يعني إرساء النظام الإسلامي. إنه ضمن أهداف الدين، وهو هدف متوسط. أو افترضوا إقامة المعروف، وإشاعة المعروف، وإزالة المنكر، وترويج الكَلِم الطيب والعمل الصالح: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر، ١٠). إذن، هذه هي أهداف الدين. عندما تنظرون إلى أيّ واحدة منها، تجدون أن وسيلة تحقيقها هي التبليغ، ولا يمكن ذلك دون التبليغ. نعم، تارة وعلى نحو استثنائي يدخل نورٌ في قلب شخص ما بإشارة إلهية، فهذا نقاش آخر وأمر استثنائي، لكن دين الله بهذه الأهداف وأمثال هذه الأهداف للناس، لن يتحقق إلّا بالتبليغ. إذن، التبليغ صار في المرتبة والدرجة الأولى. لذلك تلاحظون في **القرآن** تأكيد مسألة التبليغ.

لقد رجعت إلى فهارس [المصطلحات] القرآنية من أجل حديثي هذا. وردت كلمة «بلاغ» أو «بلاغ مبين» في **القرآن** نحو اثنتي عشرة مرة أو ثلاث عشرة. «بلاغ مبين» هو ذلك الإفهام الذي لا يترك مجالاً للشبهة: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (يس، ١٧)؛ ينبغي ألّا يترك مجالاً للشبهة. البلاغ [يعني] الإفهام، إفهام الأسماع والقلوب الرسالة، وقد تكرّر في **القرآن** مراراً. تكرر في اثني عشر موضعاً أو ثلاثة عشر. لقد تكرر نقلاً عن لسان الأنبياء: ﴿مَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. لقد تكرر في خطاب الله المتعالي إلى النبي ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ (آل عمران، ٢٠). [يوجد] من عنصر البلاغ نفسه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ (الأحزاب، ٣٩) – الآية التي تلاها [القارئ المحترم] – وآيات كثيرة أخرى أيضاً في هذا الصدد: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ (الأعراف، ٦٢)، ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة، ٦٧).

في **القرآن** أيضاً تعابير موازية ومرادفة لـ «بلاغ» إلى ما شاء الله. كم تكرر تبليغ «الدعوة» في **القرآن!** ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل، ١٢٥)، ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال، ٢٤)، وكذلك كثير من الآيات الأخرى مع تعبير يحمل عنوان «الدعوة». آيات متعددة وكثيرة تحمل عنوان «الإنذار والتبشير». طبعاً، هي كلها دعوة وتبليغ. إذا نظرتم إلى النطاق العريض لـ**القرآن الكريم**، فسترون أن التركيز على التبليغ. أساساً، يرى **القرآن الكريم** أن الأنبياء هم المسؤولون عن التبليغ. وماذا عن ورثة الأنبياء؟ «إن العلماء ورثة الأنبياء»[٢]. وأنتم الذين تعدّون ورثة الأنبياء أسّ مهمتكم وأساسها هو التبليغ. يجب أن تبلّغوا. يجب أن توصلوا رسالة الدين والله إلى القلوب والأسماع. قلوب وأسماع من؟ البشر جميعاً. طبعاً هناك أولويات أيضاً. بطبيعة الحال، يكون لمجتمعكم أولوية كبرى، وبعض الأماكن لها الأولوية، وبعض الأماكن لها أولوية أقل، ولكن يجب أن تصل إلى الجميع. إننا ننظر إلى أهمية التبليغ على هذا النحو.

لهذا، ترون أن سنة التبليغ موجودة في الحوزات العلمية منذ البداية، أي منذ ألف عام. بالطبع، لم تتح لي الفرصة للتحقق والمراجعة بمقدار أكثر – لم أجد وقتاً للمراجعة – وهذا هو المقدار الذي كان في ذهني الآن. لنفترض مثلاً زمن الشيخ الصدوق، فهذه الكتب المتعددة للشيخ الصدوق (رض) كلها تبليغ: **الأمالي** تبليغ، و**الخصال** تبليغ، و**عيون أخبار الرضا** تبليغ؛ كلها تبليغ. وهي ليست تبليغاً للمذهب فقط؛ إنها تبليغ الأخلاق، وتبليغ الدين، وتبليغ التوحيد... هذه الأمور نفسها التي يتعين علينا فعلها. إن عدداً من رسائل الشيخ المفيد (رض) في الجواب عن أسئلة مختلف البلدان – نُشرت قبل بضع سنوات في مؤتمر الشيخ المفيد[٣] – هو تبليغ. الشيخ الطوسي – إضافة إلى ذاك الفقه العميق

العريق الرائع - لديه **الأمالي** أيضاً، فأمالي الشيخ [الطوسي] تبليغ، وأمالي الشريف المرتضى تبليغ. لقد قلت: لم يسنح لي المجال الآن لأراجع وأرى - أنتم لديكم وقت وجَلَد أكثر - كيف كان التبليغ في الحوزات العلمية في القرون اللاحقة [لهم]. لكن على سبيل المثال، وفي القرون الأخيرة، المجلسي (رض) - المجلسي إنسان عظيم، وينبغي ألّا يُستهان بالمجلسي، فهو إنسان عظيم جداً - بالإضافة إلى كتاب **البحار** وعدد من الكتب لديه حول مسألة الحديث، وتبيين الحديث، وشرح الحديث، ونحو ذلك، ما الغرض مثلاً من كتابي **حق اليقين** و**حياة القلوب**، وهما من الكتب الفارسية؟ التبليغ طبعاً. المرحوم النراقي [أيضاً] له كتاب فارسي، وبعد ذلك كانت هناك كتب أيضاً وبعضها حاضر في بالي الآن. مثلاً تفسير **منهج الصادقين**[٤] وأمثاله بالفارسية. بالفارسية لِمَن؟ الفارسية ليست للعلماء والفضلاء وما إلى ذلك؛ إنها تبليغ لآحاد الناس. هذا يعني أن العلماء كانوا يولون أهمية لسنّة التبليغ. طبعاً، لم يسنح لي المجال [لأرى] ممن جاء المنبر والشكل التبليغي للمنبر؛ كنت أود أن أراجع لو كان في إمكاني، ولكن على سبيل المثال هذا الملا حسين كاشفي السبزواري في القرنين التاسع والعاشر، أو مثلاً واعظ القزويني في القرن العاشر - هو شاعر عظيم أيضاً - وما يحضر في بالي أن هؤلاء كانوا من أهل المنبر ويذهبون ويتحدثون، وكانت سنّة المنبر هذه منذ تلك الأزمنة. الملا حسين كاشفي هو صاحب **روضة الشهداء** والعزاء الذين نقرؤه في الحقيقة مأخوذ من كتاب ذلك الجليل. وكذلك لاحقاً علماء عظماء مثل الشيخ جعفر الشوشتري [كانوا من أهل المنبر]. الشيخ جعفر الشوشتري معروفٌ بالوعظ. إنه مُلّا وفقيه عظيم وبالطّبع كان من أهل المنبر. طبعاً، لا ينبغي الخلط بينه وبين الشيخ جعفر كاشف الغطاء. أو المرحوم الشيخ (محمد) رضا الهمداني الواعظ والمُلّا العظيم - مرة أخرى لا ينبغي الخلط

بينه وبين الشيخ آقا رضا الهمداني صاحب **مصباح الفقيه** فهو شخص آخر – وصاحب **هدية النملة إلى رئيس الملة** كان واعظاً. في زماننا، كان المرحوم آميرزا أبو الحسن القزويني، الفيلسوف الذي درسَ الإمامُ [الخميني] في شبابه مقداراً من الفلسفة عنده، مُلّاً عظيماً. لقد رأيت سماحته بنفسي. كان يصلي في صحن بمسجد طهران هذا، وكان يرتقي المنبر والناس يجلسون ويستمعون لمنبره. قبل سماحته، كان المرحوم الشاه آبادي[٥]، أستاذ الإمام – ونحن لم ندركه على أيّ حال – يرتقي المنبر في ذاك المسجد نفسه. هؤلاء لم يكونوا يرون ارتقاء المنبر منقصة للشأن. في مدينة مشهد نفسها، كان المرحوم الحاج الميرزا حسين السبزواري، والمرحوم السيد حسن القمي[٦]، يرتقيان المنبر، أيْ كانت سنّة التبليغ، سواء أكانت على شكل كتابة، أم ارتقاء للمنبر، أم نظم للشعر، موجودة في الحوزات العلمية، وهذا يدلّ على أهميتها.

حسناً، ذكرنا أن التبليغ أولوية الحوزات العلمية. لقد كان الأمر كذلك في العصور كافّة ولكن هذه الأهميّة مضاعفة خاصّة في عصرنا، لأن حدثاً وقع في عصرنا لم يحدث منذ أكثر من ألف عام منذ صدر الإسلام، وهو حاكميّة الإسلام. إن تأسيس النظام السياسي لإدارة البلاد بمحتوى إسلامي ليس له سابقة. عندما يحدث مثل هذا الأمر يزداد العداء للإسلام بطبيعة الحال وأنتم تعلمون ذلك وتشاهدونه وترونه. لقد ازدادت هذه العداوات كثيراً لدرجة أننا اعتدناها جميعاً، ولم نعد نلاحظ أنواع العداء من العدوّ وأشكالها إلى حدّ كبير. إذاً، للتبليغ أهميّة مضاعفة في عصرنا [أولاً] لأنّ الناس هم الركيزة الأساسية في النظام الإسلامي وقوامه، أي إيمان الناس، وإذا لم يمتلك الناس الإيمان، فلن يكون هناك نظام. قال: «حفظ النظام من أوجب الواجبات»[٧]. أحياناً يرى الإنسان أنّه أوجب الواجبات، ولذلك يغدو حفظ إيمان الناس واجباً، فتتضاعف أهميّة التبليغ من

هذه الناحية. ثانياً لأنّ المرحلة مرحلة التطور العلمي. توجد اليوم شتّى الطرق لنشر الرسائل [الإعلامية] التي لم يجرِ حتى التفكير فيها في الماضي، بدءاً من التلفزيون والأقمار الاصطناعية وليس انتهاءً بالإنترنت و «ما بعد الإنترنت». هذه الأشياء الجديدة التي ظهرت، الذكاء الاصطناعي وأمثال ذلك، كما أنّ هناك أشياء أخرى في الطريق أيضاً.

إذن، في مثل هذه الظروف، ومع وجود مثل هذه الحال، حيث سيوف العدوّ المستلّة والحادّة والسافكة للدماء حاضرة، ما الذي علينا فعله؟ يكتسب التبليغ هنا أهميّة مضاعفة. واليوم شهدت المعدّات المخالفة والمعارضة والمعاندة تطوّراً وأشرتُ إليه، وكذلك في ما يرتبط بالبرمجيّات، إذْ روّجوا أساليب جعل الرسالة [الإعلامية] مُقنعة – الأمور التي لم يكن يتقنها أحدٌ في السابق – بمساندة علميّة من علم النفس وأمثال هذه الأمور. هذه هي الأدوات البرمجيّة وهي مهمّة جدّاً. إنهم يتحدثون ويُنتجون الأفلام ويُصنّعون المشهد ويجعلون العنوان في الصحيفة على نحو لا يشكّ في صحّته كلّ من يراه لكنه خطأ مئة بالمئة. نحن على مواجهة مع هؤلاء اليوم. وإذا غفلنا عن هذه الأمور، وإذا غفلت الحوزة العلميّة عن أهميّة التبليغ وحساسيّته وكون مسؤوليّة التبليغ اليوم مُضاعفة، فإنّنا سنُصاب بعارضٍ لا يُمكن تعويضه بسهولة، ولا أقول إنّه محال. [إنها] الاستحالة الثقافيّة. ستُصيبنا الاستحالة الثقافيّة، وهذه الاستحالة لو وقعت – لا سمح الله – فلن يكون إصلاحها وتعويضها أمراً بسيطاً. كان الإمام [الخميني] يقول مراراً في مواضع عدة إنه لو حدث مثل هذا الأمر، فسوف يتلقّى الإسلام صفعة سيبقى أثرها سنين طويلة[٨]. الأمر كذلك. سيحدث هذا لو غفلنا. وإذا غفلنا، فسيُسلب القُبحُ من الذنوب والذنوب الكبيرة والكبائر وستغدو عاديّة. تلاحظون أن هذا قد حدث في الغرب. في الغرب، يتقدّمون خطوة بخطوة في هذا الإطار. لا يرغب

المرء في تكرار تعابير هؤلاء الرائجة، أي حقّاً إنّ شأنَ تحدّثِ الإنسان ولسانه أرقى من أن يكرّر هذه [التعابير] لكنّها موجودة على أيّ حال. إذا استخففنا بالتبليغ، فإنّ هذه الأمور ستطاول مجتمعنا.

حسناً، كانت هذه مواضيع عرضتها، وهذه الأفكار التي جرى عرضها هي من المسلّمات ولا مجال للشكّ فيها. لكن ولكي نجعل النقاش الآن عمليّاً على نحو أكبر بعض الشيء، فإنّني دوّنت بعض النقاط لكي أتحدّث عنها.

النقطة الأولى في التبليغ هي معرفة المخاطب. لا بدّ أن نعرف من نخاطب إذا أردنا أن نبلّغ على نحو صحيح. وأقول من باب المثال إنّه لا يمكن اليوم مقارنة مستوى الوعي العام لدى الشباب وغيرهم بالماضي، ولا يمكن فعل ذلك حقّاً. لقد انقضى تقريباً كلّ عمري التبليغي – ستين سنة أو أكثر – مع الشباب، وقد كانت لي منذ الشباب جلسات في مشهد كان يحضرها الشباب، وكان الجامعيّون والطلاب الجامعيّون وتلامذة الثانويّة [يأتون]. آنذاك أيضاً كانت أفكار الشباب جيّدة، وكان الشباب أصحاب فكر حسن، لكن لا يمكن مقارنته باليوم، فقد ارتقى مستوى الفكر. إذا لم يراعِ التبليغ هذه الأمور، فسوف يبطل أثره، فلنعلم في أيّ مستوى فكري يقع الطرف المقابل لنا حتى نجهّز المحتوى والمادّة والشكل والهيئة بما يتناسب مع احتياجه، فلا فائدة دون فعل هذا الأمر. إضافة إلى ارتقاء المستوى الفكري لدى الشاب واليافع والمخاطب لدينا هناك آفة أيضاً هي أنه وسط هذا السوق المضطرب للأصوات كافة في الفضاء المجازي والترويج الإعلامي ثمة صوتٌ واحدٌ في العزلة هو نقل المعارف الأسريّة والتي بين الأجيال. كان الآباء والأمّهات يعلّمون أبناءهم كثيراً من الأشياء، وقد يتسنّى القول إنّ كثيرين من أناسنا هؤلاء – لعلّه يمكن القول غالبيّتهم – انتقلت

المعلومات والمعارف الدينيّة إليهم على لسان آبائهم وأمّهاتهم وبسلوكاتهم، وهذا الصّوت قد ضَعُفَ اليوم. لقد ضعُفَ هذا الصّوت وسط بلبلة الترويج الإعلامي هذه. وهذه نقطة، فمخاطبنا أيضاً هو مخاطبٌ لكثير من هذا الكلام، كما أنّ أشكال المواضيع وأنواعها ترتد إلى ذهنه، فيواجه مشكلة من هذه الناحية.

كنّا في السابق ننصح الشباب ونحذّرهم من رفيق السوء وصاحب السوء، وقد بات صاحب السوء الآن داخل جيبه، والصفحة السيئة المصاحبة باتت أمام عينه وفيها كلّ شيء. اعرفوا هذا المخاطب. وإذا لم تكن موادنا التبليغيّة وأسلوب تبليغنا متناسبين مع [معرفة] حالة المخاطب، فإنّنا سنفشل. هذا في ما يرتبط بالنقطة الأولى. فمن المحتمل أن تكون هذه الآية الشريفة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم، ٤) من المصاديق أو المعاني لهذا. وإنّ ضرورة أن يكون الرسول متحدّثاً باللغة التركيّة لو بُعث لأناسٍ يتحدّثون التركيّة مثلاً أمرٌ بديهي، ولا معنى ألّا يكون الأمر كذلك، إذ أحتمل أن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ تعني أن يتحدّث ويُبيّن انطلاقاً من التركيبة الفكريّة والذهنيّة نفسها لقومه. حسناً، هذا في ما يرتبط بالنقطة الأولى. إذاً، النقطة الأولى هي معرفة المخاطب.

النقطة الثانية أنّ التبليغ ليس مجرّد الردّ على شبهة واتخاذ وضعيّة دفاعيّة. ليس الأمر كما لو أننا نفكر أن نجلس ونبحث عن الشبهة فنمنع رواجها أو نردّ عليها. طبعاً، هذا العمل واجب لكنّ الأمر لا يتوقّف عند هذا الحد. لدى الطرف المقابل أسس فكريّة لا بدّ من مهاجمتها. لدى الطرف المقابل كلامٌ، وأسس هذا المنطق أسس مخطئة، فعلينا أن نعرف هذه الأمور. من الضروري اتخاذ وضعيّة الهجوم في التبليغ. وإذا تقرّر أن تتحقّق هذه الوضعيّة الهجوميّة بالمعنى الحقيقيّ للكلمة فإنّ لازمة ذلك معرفةُ المشهد، أي يجب أن تعلموا مَن الطرف المقابل عندما تواجهون

كـماً هـائلاً مـن الشـبهات في أذهـان الشـباب. مَـن نواجـه؟ افترضـوا أن كاتـب الافتتاحية أو كاتب عمود في صحيفة ما أو المغرّد الفلاني في الشبكة الفلانيّة مـثلاً أثارَ شيئاً ما، فنحن على مواجهة مع مَن؟ مَن هو؟ هل هو نفسه من يفعـل ذلـك؟ هناك احتمال قوي أن الأمر ليس كذلك، هناك احتمالٌ قويّ ألا يكـون الأمـر عـلى هذا النحو، وهناك احتمال قوي أن يكون هناك شيء ما في الكواليس. من الجالس في الكواليس؟ لا بدّ من معرفته.

لاحظوا! يوماً ما في هذه البلاد – أنتم في تلك الأيام ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (الإنسان، ١) – والكلام يدور حول ما قبـل خمسـين عامـاً أو سـتين، حـين كـان عناصر حزب «توده» ينشطون ويمارسون النشاط التبليغي وغيره من الأمور، كان ظاهر الأمر أنّ هذا شابٌ من «توده»، وقد وصل إليّ – أنا عـالِمَ الـدين الشـاب أو غير الشاب – ويرغب على سبيل المثال في فرض منطقه على ذهني. كان هذا ظاهر الأمر لكنّ باطنه لم يكن كذلك. باطن الأمر أنّ «توده» كان مرتكزاً في الأساس إلى جهاز فكري وسياسي واسع يُسـمّى «الاتحـاد السـوفياتي». كـان عنـاصر «تـوده» يستفيدون من ذاك المكان ويتغذّون ويرتزقون منه على المستويين المادي والفكري، فأنتم تواجهون المصدر الماركسي. لذلك، لم يلجأ علماؤنا الفطنون في ذلك اليـوم، كالمرحوم العلّامة الطباطبائي، إلى أن يردّوا على هؤلاء، بـل ردّوا عـلى الماركسـيّة، فهذا «المنهج الواقعي»[٩] ردٌّ على الأسس الفكريّة الماركسـيّة، أيْ أنْ يعثـروا عـلى الأساس الفكري للنقطة المقابلة ويجعلوها هدفاً. كثيرٌ من أعمال المرحـوم الشـهيد مطهّري هي من هذا القبيل. [علينا] أنْ نعرف المشهد ومَن يواجهنا.

طبعاً حين ننظر اليوم لا نجـد أثـراً للماركسـيّة، لكـن تواجهنـا سـاحة أخـرى وخصم آخر. فهذا الصراع قـائمٌ اليـوم، ويـدور بـين جبهتـين، وإذا عرفنـا كلتـا الجبهتين على نحو صحيح، فسنحدد بعدها هل تلك الظاهرة التـي تواجهنـا هـي

مستقلّة أو تابعة للجبهة المقابلة. من هما هاتان الجبهتان؟ إحداهما جبهة «النظام الإسلامي» - سأتحدّث عنها بعد قول كلمة مختصرة – والأخرى هي الجبهة الكاذبة التي تطلق على نفسها اسم الديمقراطية الليبرالية، في حين أنها ليست ليبرالية ولا ديمقراطية. هي تدّعي كذباً أنها ديمقراطيّة ليبراليّة. لماذا استعمرتم لو كنتم ليبراليّين؟ الاستعمار التقليديّ القديم والاستعمار الحديث والاستعمار ما بعد الحديث! أيّ ليبراليّين ومطالبين بالحريّة وذوي أفكار حرّة أنتم إذ تستعمرون شعباً بالملايين في الهند على مدى سنوات طويلة ولأكثر من مئة عام وتُبقونه خاضعاً لسيطرتكم وتنهبون مقدّراته كافّة وتحوّلونه إلى شعب فقير؟ هذا كلام نهرو. يكتب نهرو – هو من المناضلين في الهند وصار في ما بعد رئيس وزرائها – ويشرح ما كانت عليه الهند قبل مجيء البريطانيّين ودخولهم، وما صارت عليه بعد قدومهم. هل أنتم ليبراليّون؟ هل هذه الليبراليّة؟

أو الفرنسيّون الذين ارتكبوا الجرائم في الجزائر أكثر من مئة عام وقتلوا الناس! طبعاً، ذكروا عدد الأشخاص ودوّنوه [لكن] لست أذكره الآن. هؤلاء قتلوا في غضون بضع سنوات الآلاف – ربّما عشرات الآلاف – في الجزائر، وخاصّة في تونس وكذلك في مناطق أخرى من شمالي أفريقيا. هم ليسوا ديمقراطيّين أيضاً؛ إنّهم يكذبون. هم ليسوا ديمقراطيّين لأنّهم يفرضون حكومات على بعض الأماكن. وهم ليسوا مناصرين للديمقراطيّة كذلك الأمر. إنهم يعارضون مئة بالمئة تلك الديمقراطيّة التي لا تُسخّر لخدمتهم. هذه جبهة. لاحظوا! لا يقولنّ أحدٌ إنّ هذه الأمور مضت. نعم، مرّت مئة عام على قضيّة الهند، ومرّت ستّون سنة أو سبعون على قضيّة الجزائر، لكن ماهيّة ذاك الذي ارتكب تلك الممارسات في الهند والجزائر اليوم هي ماهيّته نفسها في ذلك اليوم. هؤلاء مستعدّون اليوم أيضاً لوضع شعب مثل شعب أوكرانيا البائس المسكين في المقدمة من أجل ملء

الجيوب لشركات تصنيع الأسلحة الأمريكية؛ هذه الحال وهذا هو جوهر الأمر في أوكرانيا: شعبها يُقاتِل ويُقتل من أجل أن تُباع الأسلحة وتمتلئ جيوب شركات السلاح! لكي يُجبر الأوروبيّين على شراء الأسلحة وتصنيعها وتقديمها وتمتلئ جيوب شركات السلاح. هؤلاء هم أنفسهم. إنهم مستعدّون لسرقة نفط سوريا وهم يسرقونه. تصوّر الإنسان بشأن السارق أنّه إنسانٌ صغيرٌ وحقير ودنيء على سبيل المثال. إنّ حكومةً كأمريكا تنهب نفط سوريا بكلّ سهولة وعلى مرأى من الجميع. هؤلاء هم أولئك الأشخاص أنفسهم ولم يختلفوا. حسناً، هذه جبهة.

مقابلها أيضاً يوجد نظامٌ يعارض الاستكبار والاستعمار والتدخّل في مصالح مختلف الشعوب مع الارتكاز إلى الإسلام والاستلهام منه. هذه المعارضة قائمة. حسناً، هاتان الجبهتان تقفان في وجه بعضهما بعضاً. تلاحظون أحياناً أنّ دعايات تنتشر ضدّ النظام الإسلامي وتشكّك في أُسس هذا النظام. من يقف خلف هذه [الدعايات]؟ طبعاً حين نبحث ونتابع – نحن نملك الأداة اللازمة لمتابعتها، بحمد الله – ندرك أين يقع المنشأ، لكن ذاك الذي لا يملك هذه الأداة أيضاً لا بدّ أن يدرك الأمر حين ينظر. الطرف [المقابل] ليس كاتب المقالات الفلاني المعادي للثورة الإسلاميّة اللاجئ إلى الخارج أو الموجود في الداخل أحياناً على سبيل المثال – هم قلّة طبعاً – إنما هو جهازٌ حكومي. الصراع صراعٌ حضاريٌّ وعالمي. هذه هي ماهيّة الصراع. طبعاً، ليست هذه القضيّة بأكملها، فهم يُقْدمون على جُملة من الخطوات الأخرى في خضمّ هذا الصراع الدولي كي يقلّصوا أضراره إذ يوجد أشخاصٌ مكلّفون أعمالاً دبلوماسيّة وأمثال هذه الأمور. لا ضير في هذا أيضاً شرط الحفاظ على المبادئ. لا بدّ أن يتمّ ذلك، لكن فلنعرف من نواجه ومن الطرف المقابل، إذا لا يؤدّى التبليغ بالأسلوب السليم دون هذا الأمر.

طبعاً إنّ الغرب – لحُسن الحظّ – أكثر هشاشة من أيّ زمن مضى. لقد «شرّف»

الإمام [الخميني] – رضوان الله تعالى عليه – أمريكا بلقب «الشيطان الأكبر»[١٠]؛ هذه حقيقة الأمر أيضاً. هناك مجموعة من الصفات الشيطانيّة والشرور لدى الأمريكيّين يُمكن أن تُشنّ عليها هجمات إعلاميّة. هذا أحد النماذج على مطالبتي بتجنب البقاء في وضعيّة الدفاع. تبرز الشرور والصفات الشيطانيّة للأمريكيّين اليوم في السياسة والتعاطي مع الشعوب وعند التعاطي مع شعبهم، وفي العنصريّة، وفي الشرخ الطبقي، وفي الأخلاق الجنسيّة، وفي انعدام الرحمة. هذه كلّها نقاط ضعف. أينما خاضوا، يتصرّفون بلا رحمة. قبل ٢١ سنة أو ٢٢ حين دخل الأمريكيّون العراق وكان المرء يرى أحياناً عبر التلفاز بعض المشاهد، عاملوا الناس على نحو يرتعد قلب الإنسان حين يتصوّره. هكذا عاملوا الشعب العراقي. لم يكن صدّام هو القضية، فقد عاملوهم بلا رحمة. إذاً، كانت النقطة الأولى معرفة المخاطب، والثانية ألّا نبقى عالقين في وضعيّة الدفاع ومحصورين فيها. طبعاً الدفاع ضروريّ وواجب، لكن فليكن الموقف هجوميّاً. هذه الأمور كلّها يُمكن أن تكون عُرضة لهجماتكم الإعلاميّة. طبعاً شرط ذلك أن تعرفوا التيارات العالميّة وأوضاع السياسات العالميّة والاصطفافات، ثمّ تبادروا إلى الفضح. فلتنظروا بأسلوب صحيح ولترووا كذلك. هذا في ما يرتبط بالنقطة الثانية.

الإخوة الأعزاء، الأخوات العزيزات، النقطة الثالثة أن الروحية الجهادية ضرورية في التبليغ. إذا كانت الروحية الجهادية حاضرة في الأعمال كافة، فإن العمل يتقدم على نحوٍ مضاعف، لكن هنا لا يمتلك التبليغ دون الروحية الجهادية الروحَ اللازمة. إذا لم تكن الروحية الجهادية، فأوّلاً يخطئ الإنسان المشهد ويراه خطأً، وثانياً يتصرف أحياناً خطأً في السلوك. حينما يكون الوضع جهاديّاً، فلا. إنه غالباً ما يرى صحيحاً، ودائماً يعمل ويتقدّم جيداً. بالطبع الروحية الجهادية التي

نقولها ليس معناها أن لا ضرورة للقدرات المعرفية والأخلاقية وما شابه. بلى، هذه واجبة في محلها، غير أن الروحية الجهادية ضرورية هي الأخرى. إن هذه الروحية نظراً إلى هذه الآية الشريفة: ﴿وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلَا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (التوبة، ١٢٠) - ذاك العمل الذي يثير غيظ الكفار – هي عمل صالح. «يَنالونَ مِنه» بمعنى توجيه ضربة. «نالَ» يُستعمل بمعنيين لكن حينما يكون مع «مِن»، «لَا يَنالونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيلًا»، معناه لا يُوجهون إليه ضربة، «إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ». إذن، من الطبيعي أن هذا أفضل جهاد. ينبغي أن يحضر الحوزويون وسط الميدان، ويجب ألا ييأسوا؛ هذه ميزة العمل الجهادي. الجلوس على الهامش، ومثلاً التنبيه إلى أمر ما أحياناً، وتقديم نصيحة ما، أو توجيه رسالة ما، على غرار رجال الكهنوت المسيحي، ليس كافياً. إن رجال الكهنوت المسيحي هم بالطبع على أصناف عدة، فبعضهم كانوا محبوسين في الكنائس، أي حبسوا أنفسهم، وبعضهم بالعكس، صاروا طلائع الاستعمار. في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وما شابه، وقبل أن يطأ المستعمرون بأقدامهم وتتقدم القوات العسكرية، ذهب القساوسة وأعدوا الناس كي يأتي هؤلاء ويجعلوا حياتهم جحيماً، فبعضهم دخلوا أيضاً [الميدان] بهذه الطريقة. لكن، على كل حال، يجب أن يكون علماء الإسلام وسط ميدان الجهاد لله وبالله وفي الله، وكذلك ألّا ييأسوا. حينما يترافق عنصر الجهاد هذا مع النظرة العلمية والعمل العلمي، يكون أثر التبليغ مضموناً حتماً. هذه أيضاً نقطة.

النقطة التالية هي الاهتمام الخاص بجيل الشباب واليافعين، فهؤلاء هم من يصنعون غد البلاد. بالطبع، يجب ألَّا يُغفل عن الفئات الأخرى: فئة أهل الفكر، أصحاب الفكر، الخبراء، الفضلاء، العلماء، الفنانين، الكتّاب، الشعراء. يجب أن يمتلك الإنسان غذاءً فكريّاً لكلٍّ هؤلاء وأن يكون على استعداد. قبل بضعة أعوام

من الآن، جاء إلى هنا عدد كبير، ربما خمسون شخصاً أو ستون أو أكثر من سينمائيي البلاد. كان لهم لقاء معي في الطابق العلوي من هذه الحسينية[11]، وكانوا يقولون كلاماً ولديهم شكاوى. فوصلت إلى هذه النتيجة، وهي أن لدينا أحياناً توقعاً كبيراً من هؤلاء، فمتى وضعنا بين أيديهم المعارف الضرورية حتى نعتب الآن أنْ لماذا لم تصنعوا فيلماً بناءً على هذه المعارف؟ ينبغي لنا أن نقدم المحتوى، فهذا أحد الأعمال. هذه الأمور صحيحة، أي بناء على الأقسام المختلفة، فيجب أن يكون ثمة تعاطٍ تبليغي متناسب مع أهل الفكر والفن والقلم والكلمة، لكن الأهم من الجميع فئة الشباب واليافعين، فغد البلاد متعلق بهم، وهو بين أيديهم؛ يجب أن يكون إيمانهم قويّاً، وأن تكون أذهانهم خالية من الشبهة.

إنّ أدوات ترغيب الشباب في الالتزام العملي بالدين مهمة للغاية. نحن أحياناً لدينا شاب تقوده الملحمة والحب والحماسة الحسينية إلى طريق صحيح مثلاً، وإلى سبيل الجهاد، غير أن أعماله العبادية ضعيفة. لا شكّ أن للأعمال العبادية أهمية بالغة، فالمعلوم أن الصلاة خير العمل، وهي أسمى من الأعمال كلها، فهي الفلاح وهي خير العمل. افترضوا مثلاً أنه يغفل أحياناً عن الصلاة. لدينا مثل هذه الحالات. كي يتمكن شيء ما من تشجيع هذا الشاب على الأعمال العبادية واجتناب المعاصي، ثمة عوامل وجاذبيات، والمسجد من هذه الجاذبيات، والهيئة منها. هذه الأمور مهمة. إعمار المساجد، والإبقاء على المساجد حيّة، من الأعمال الواجبة. بالطبع، لدينا مساجد قليلة على مستوى البلاد نسبة إلى عدد السكان، لكن حتى هذه التي لدينا بعضها أو ربما كثير منها غير معمورة وغير عامرة. الحد الأقصى أنهم يفتحون عند وقت الصلاة، فتُقام الصلاة هناك، ثم يُغلق باب المسجد! لا يصح كذلك. يجب أن يكون المسجد محل تردُّد الناس الدائم. طبعاً الهيئة جيدة، فهي أيضاً من الأشياء التي تشجّع الشباب.

لا يُغفلنّ كذلك عن الموعظة وقد قلت هذا بدايةً. كلنا بحاجة إلى الموعظة: الكل، والكل من دون استثناء! إنّنا جميعاً بحاجة إلى الموعظة. صحيح أنّنا نعلم أموراً أحياناً لكن في استماعنا لها أثرٌ غير موجود في معرفتها، فعلينا أن نستمع إلى الموعظة، الموعظةَ الحسنةَ. حسناً، كانت هذه الآن نقاطاً ذكرناها بصفتها نقاطاً عملية.

النقطة الأخيرة – في رأيي إنّ هذه النقطة الأخيرة تُعدّ أهم النقاط من جوانب ما – أنه كيف يمكن أن نجعل هذه المطالب عملية. حسناً، لقد تحدثنا عنها الآن، وأنتم أنفسكم ربما كنتم تعلمون هذه الأمور التي ذكرتها وتعلمون ضعفها أيضاً. إذن، كيف تصير عمليةً؟ هذا هو المهم في الأمر. أرى أنه يوجد تبليغ جيد، سواء المكتوب، أو البيان والمنبر وأمثال هذه. ثمة تبليغ جيد، وهو بالطبع قليل جداً بالنسبة إلى ما يجب أن يكون. نحن متأخرون للغاية من ناحية الكميّة. إذا أردنا أن يكون لدينا عناصر تبليغية بهذه الخصائص وفق السعة والإمكانيّات اللازمة أو قريباً منها، فنحن بحاجة إلى المراكز الحوزوية الكبيرة. ينبغي أن تتشكل مراكز في الحوزة من أجل هذا فحسب: من أجل إعداد المبلّغ الذي يتمتع بركيزة فكرية وبحثية وعلمية. نحن نركز على التبليغ، فلا يغدو ذريعة ليقول بعضهم: إذن، لن نقرأ بعدها «الكفاية»[١٢]، ولن نذهب إلى درس الخارج. لا، هذه الركائز العلمية ضرورية، وغاية الأمر أن الاهتمام بهذا الجانب من المسألة ضروري للغاية، فنحن بحاجة إلى مركز أساسي. والمركز كذلك هو في الدرجة الأولى حوزة قم العلمية، وحينما يتحقق هذا الأمر في قم، ويصير تجربة، يمكن عندئذ أن تتكرر هذه العملية أيضاً في الحوزات الكبرى لأنحاء البلاد كافة، أي تأسيس مركز بمهمة «إعداد مادة تبليغية مواكبة للعصر». ثمة أشياء من المناسب أن تُقال اليوم من على المنبر، وقد تفقد أثرها غداً، وتكون دون جدوى. فلو كنا قلناها العام الماضي، لكانت

مناسبة، وهذا العام لا. فالعالم يمضي على هذا النحو، وتقع الأحداث كذلك بالتعاقب. فلتُنتج المواد التبليغية الضرورية المُحَدَثة. في هذا المجال، إنّ مصادر الكتاب والسنّة هي من العمق وغنى المضمون بمكان إلى حد أنها لن تنفد مطلقاً. يمكنكم الاستقاء من **القرآن** وأن تحصلوا على موضوعات جديدة وحديثة وكلام جديد ومرتكز على **القرآن** والحديث إلى درجة أنه سيُشبع هذه الساحة كلها. إذن، إحدى المهمات لهذا المركز الكبير هي إعداد المواد.

المهمة الثانية تنظيم أساليب التبليغ المؤثرة. فعلى أيّ حال، أساليبنا التبليغية محدودة. ربما توجد أساليب مؤثرة أفضل وأكثر. يجب أن تنظّم هذه الأساليب وتُعدّ في ذاك المركز. الغربيون متقدمون علينا في هذه المسألة، فلديهم أساليب جديدة باستمرار، وأساليب مؤثرة من أجل إيصال الرسائل [الإعلامية]. نحن متأخرون في هذه المجالات. علينا ولا بد أن نُعدّ ونُنتج أساليب، وأن نعلِّم فن الكلام بالمعنى الحقيقي للكلمة. هذه المهمة الثانية.

ثم أيضاً إعداد المبلِّغ. فليُعدّ المبلِّغ بالمعنى الحقيقي للكلمة في هذا المركز. فكما نعد مجتهداً، فلنعد مبلّغاً. إنّ السادة المسؤولين المحترمين – الحمد لله – بدؤوا في قم حركة فقهية جديدة، فهم يجرون أبحاثاً في الفقه المعاصر، وهم يعملون على المسائل الموجودة اليوم من الناحية الفقهية، وهذا قيّم للغاية، ويجب كذلك أن يتواصل، وعلى غرار هذا، يجب أن نعدّ المبلّغ والمبلغين الذين يمكنهم أن يكونوا مؤثرين، ويمكنهم أن ينتشروا في كل مكان، وأن يحققوا الكفاية من الناحية الكمية. إن المرء على علم بأماكن ومراكز – إنني على علم – هي محرومة من وجود حوزوي ينشط بين الناس، وما هي بمكان أو مكانين أيضاً. هي كثيرة للغاية. مثلاً في مركز البلاد، وعلى سبيل المثال لدينا في طهران نفسها حالات من هذا القبيل. يجب تعويض شح المعلم والمبلغ وحامل الرسالة الحوزوي عبر هذا

المركز. بناء عليه، فما يجب ولا بد متابعته، وهو من الأمور الأساسية، وإن بدأتم اليوم، فيمكن أن يعطي نتيجة بعد خمسة أعوام أو أكثر، هو أن يُبصر النور مثل هذا المركز ببضع المهمات هذه التي ذُكِرت. سعيدون للغاية لأنّنا التقيناكم. السلام على الشهداء وروح الإمام المطهَّرة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الهوامش:

[١] في بداية هذا اللقاء، تحدث بكلمة مدير الحوزات العلمية في أنحاء البلاد كافة، آية الله الشيخ علي رضا أعرافي.

[٢] الأمالي، الشيخ الصدوق، ص. ٦٠.

[٣] المؤتمر العالمي «ألفية الشيخ المفيد» بمناسبة الذكرى ١٠٠٠ لوفاة الشيخ المفيد، ١٧/ ٤/ ١٩٩٣.

[٤] من تأليف الملا فتح الله الكاشاني (المتوفّى سنة ٩٩٨ هـ. ق.).

[٥] آية الله الميرزا محمد علي بيد آبادي المعروف بـ «الشاه آبادي» (١٢٩٢-١٣٦٩ هـ. ق.).

[٦] آية الله العظمى السيد حسن الطباطبائي القمي (١٣٢٩-١٤٢٨ هـ. ق.).

[٧] من جملتها رسالة الإمام الخميني في ذكرى انتصار الثورة الإسلامية، ١١/ ٠٢/ ١٩٨٥.

[٨] كلمة الإمام الخميني مع جمع من مسؤولي نظام الجمهوريّة الإسلاميّة، ٢١/ ٣/ ١٩٨٣.

[٩] في إشارة إلى كتاب أصول الفلسفة والمنهج الواقعي من تأليف العلامة الطباطبائي.

[١٠] نداء الإمام الخميني إلى الشعب الإيراني في الذكرى السنويّة لتأسيس نظام الجمهوريّة الإسلاميّة، ١/ ٤/ ١٩٨٢.

[١١] كلمته في لقاء جمع من مخرجي السينما والتلفزيون، ١٣/ ٦/ ٢٠٠٦.

[١٢] كتاب كفاية الأصول للآخوند الخراساني.

تحقيق: الدكتور علاء محسن
باحث واكاديمي من العراق

الامام الخامنئي دام ظله
ورؤيته للحرب الناعمة
(الحلقة الأولى)

تقديم

هي مصطلح جديد في الاستعمال العالمي، يستخدم للتعبير عنها بأشكال مختلفة: كحرب المعنويات، وغسل العقول، والغزو الثقافي، والحرب السياسية.

وتعرف من قبل المختصين بأنها القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلًا عن الإرغام، وهي القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج والأهداف المتوخاة، بدون الاضطرار إلى الاستعمال المفرط للعوامل والوسائل العسكرية والصلبة.

هذه الحرب كائنة فعلًا، والعالم ليس مسير سوى بهذه الحروب الفكرية، والتي يعتقد البعض أن هذا مبالغات، ولكن الحقيقة أن هذا ليس

مبالغة؛ بل واقع نعيشه في كل شيء في حياتنا، وكونك لا تعلمه هو بالحقيقة ذكاء من الآخرين أن تظل لا تعلم شيء عن الحرب الفكرية والتأثير النفسي، وتظل مغيب وغير واعي لأي شيء سوى حياتك التي لا تتجاوز بضعة سنوات وحفنة أماكن والقليل من الأشخاص.

وعندما نتحدث عن قوة ناعمة إنما نتحدث عن مشروعٍ احتلالي معاصر، اختار القوة الناعمة المقابلة للقوة الصلبة (العسكرية)، لعجزه عن الوصول إلى أهدافه عن طريق القوة الصلبة، أو لتخفيف التكلفة الباهظة المترتبة عليها.

وقد لجأ إلى القوة الناعمة ليخرِّب من داخلنا، وليسقطنا من داخلنا بأيدينا وأدواتنا، من دون أن نلتفت في كثير من الأحيان إلى ما يحصل؛ بل نعيش أحيانًا حالة الغبطة بما يحصل، يترافق ذلك مع تعديل القيم التي يريدون تأسيسنا عليها لتسود قيمهم، ثم نندفع بشكل طبيعي وعادي لتصديقها وتنفيذها، فيتعدّل سلوكنا تبعًا لها، فنتحول أتباعًا بدل أن نكون مستقلين وأصحاب قرار.

وقد تحدث مبكرًا عن هذا الموضوع أحد أبرز مفكري وعالم من علماء المسلمين فقال: مراكز الفساد الكثيرة التي أوجدوها، لنشر الفساد والدعارة ولإفساد الشباب، لم تظهر بلا غاية.

لقد قاموا بإعلامٍ مكثَّف لهذا الأمر، فسخَّروا مجلَّاتهم ووسائلهم الإعلامية السمعية منها والبصرية خدمةً لهذا الأمر، الإذاعة والتلفزة، والوسائل السمعية والبصرية، كانت تدأب على جذب الشباب من الأسواق ومن الصحاري التي يعملون فيها، ومن الدوائر التي يخدمون فيها، إلى مراكز الفساد تلك؛ لكي يصنعوا من الجامعي إنسانًا

فاسدًا، ويجعلوا من الموظف موجودًا فاسدًا.

وهذه الحرب تستخدم الأساليب الشيطانية والابليسية التي ذكرها القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠]، أي الوسوسة والإفساد والإغواء، فالإنسان خُلق حسيًا أكثر منه عقليًا، ولذلك هو يتأثر بالأمور المادية والإغراءات والغواية، وفي أحيانٍ كثيرة يبدو العقل وكأنَّه قد تعطَّل، مع أنه يعمل، ولكنَّ مؤثرات الجسد تسيطر في كثير من الحالات على منطق العقل.

فالشيطان لا يقوم بعمل عسكري، ولا يقوم بعمل مادي مباشر، فكل أعماله تدور حول التدليس والزينة والوسوسة، ويتحمل الناس مسؤولية الاختيار بأعمالهم، حيث يكون تأثيره على الذين يستجيبون له، والذين يتولونه والذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم كما قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]، فلا بدَّ من وجود قابلية عند المتلقي، كي يتأثر بهذه التوجيهات والإغراءات التي يقوم بها إبليس (لعنه الله).

إنها حرب عقائدية وفكرية، تستقطب كافة القدرات والعقليات؛ لزعزعة الثوابت العقائدية، وخلخلة الأمن الفكري عند الشباب، وللأسف فإن تلك الحرب نجحت نجاحًا كبيرًا في التسلل إلى شريحة من شبابنا، في ظل غفلتنا وتساهلنا.

لقد شُغل أهل الفكر ونُخب المثقفين والدعاة عن هموم الشباب؛ وخصوصًا أسئلتهم الحرجة والذكية، بصراعات ومعارك داخلية، فتَّت في

اللحمة الفكرية، وشككت الشباب في قيمهم ورموزهم، كما حصل في المواجهات التي دارت بين بعض طلاب العلم في الفترة الماضية حول مسائل منهجية تتعلق بمسيرة الدعوة إلى الله، أكثرها مما يقبل الاجتهاد والتأويل.

لقد أنتجت تلك المعارك ضحايا، وبأشكال مختلفة، وخرَجت من تحت عباءتها تياراتٌ جديدة، نفضت عنها غبار وأنقاض تلك المعارك؛ كالعقلانية الإسلامية، والإصلاحية التنويرية، والليبرالية الإسلامية، كما يسميها البعض، لقد كان أغلب هؤلاء هم من أبناء الصحوة السابقين، والذين أرادوا أن يُبينوا عن سخطهم على ما حدث -بالإضافة إلى أسباب أملتْها طبيعة المرحلة- بانتحال تلك الأشكال الجديدة للتصحيح، مع بقاء بعضهم في الأغلب -محسنين الظن- داخل إطار المبادئ الكلية للإسلام.

وأنتج الوضع الجديد معركةً جديدة بين التقليديين -كما يحلو للبعض أن يسميهم- وبين فريق التنويريين والعقلانيين والليبراليين الإسلاميين -كما يصفون أنفسهم- وتمحور الصراع حول شرعية مبادئ الحرية، والديمقراطية، والعدالة، والأنسنة، والمجتمع المدني، والموقف من الآخر، مع رفع الفريق الثاني شعارَ التمسك بالأصول والثوابت، كما يفهمها هو.

وقد استنزف هذا الصراع قدراتِ الطرفين، وهممَه وجهودَه، وضم فريق شعارات التنوير أطيافًا عديدة ومختلفة ومتناقضة من اليمين إلى اليسار، وربما استقوى في ذلك بأطراف خارجية، حتى وصل الحال بقلة منهم إلى الخروج من الدائرة بشكل كلي، وإعلانه الانسلاخ من كل ما يمت إلى الأمة من مقدساتٍ وثوابتَ.

وفي موازاة تلك التيارات التنويرية

وما رافقها من نقد وانتقاد، كان هناك تيار آخر يتشكل في ضوء الوضع الجديد، وهو تيار شبابي حديث، منقطع عن الجذور، ومتمرد على التصورات التقليدية والتنويرية، منكر للرب، هاجر للعبادات، ويقتات على النقد والصراع الجديد بين ما يُسمى بالمحافظين والليبراليين الجدد، وتجاوزت ذلك -بفضل التقنيات الحديثة، وإجادة اللغات الأجنبية، والابتعاث- إلى الارتكاز والتمحور حول الروايات الأجنبية بمختلف أشكالها، والكتب الفلسفية، وأطروحات المذاهب الفكرية الحديثة، فأنتج ذلك المخاض جيلًا شبابيًّا منقطع الانتماء والجذور عن مجتمعه، يحمل ثقافة مستوردة، قائمة على الشك، وناقمة على الثقافة المحلية، وحاقدة ومبغضة للنمطية، تتخذ النسبية دينًا، ولا تعترف بوجود حقائق ثابتة، كل ذلك مع ضعفٍ شديدٍ في التصورات الشرعية.

ومما زاد الأمرَ سوءًا، عند هؤلاء الشباب، أمران:

الأول: الحملة المحمومة في وسائل الإعلام على المتدينين وعلى أنماط التدين

تلك الحملة الشاملة في الصحف والقنوات والمسلسلات، والتي تناولت الدين والمتدينين دون معرفة دقيقة أو تمييز، ودون حسبان للجوانب السيئة والنتائج الخطيرة التي سوف تنتجها حملة التشكيك والتشويه، مع أمنٍ مِن محاسبٍ ورقيب.

لقد ربطوا مظاهر الدين والتدين في تعاطيهم معها -يُظن أنها مقصودة ومدروسة- بالإرهاب، والعنف والتطرف، وسوء الأخلاق، والغباء، والجهل، والتدمير.

لقد كانت حملة مركزة، وجرعة قاتلة، حطمت إلى حد كبير أسس القوة الناعمة (أي قوة القيم والمبادئ

وأسسها الفكرية) التي كان المجتمع يتحلى بها.

الثاني: ممارسات منحرفة حملت بصمة التدين

كما فعلت الفئة الضالة في ترهيب المجتمع، بالإضافة إلى تصرفات كثيرٍ من المتدينين -على الأقل في الظاهر- والتي تحلت بالقسوة والخشونة في التعامل مع الآخرين، والتحزبات والتكتلات داخل مجتمع المتدينين، ووُجِدَ منهم مَن انبرى لتصنيف الناس، وكأنهم قضاة في محاكم للتصنيف، كل ذلك أدى -إلى حد كبير- إلى تحطيم لحمة البناء الداخلي وتصدُّعه، وخروج تلك الصراعات القاسية والخشنة للعلن، وتجاوزت دائرتَها الضيقة وانتقلت إلى عامة الناس، وتعصب بعض طلاب العلم لبعض العلماء ضد البعض الآخر، وازدادت الشُّقة، واتسعت الهوة بين العلماء أنفسهم وأتباعهم من طلبة العلم.

نشأ وترعرع هذا الجيل الجديد في هذه البيئة التنازعيَّة القلقة، وأضحى الواقع يفرز -بطريقة مقصودة وغير مقصودة- شبابًا لا يؤمن بثوابته؛ بل يزدريها ويحاربها، وقد ظهر شيء من آثاره من خلال الروايات التي تُطرح بين حين وآخر، ومن خلال اللقاءات التلفزيونية والكتابات الحادة -والتي تصل إلى الإلحادية- والتي تنقلها لنا الشبكة العنكبوتية ومنتديات الإنترنت، التي تزعم أنها إسلامية.

ثانيًا: الفرق بين الحرب الناعمة والحرب النفسية والدعاية:

تركِّز الحرب الناعمة بأساليبها على الاستمالة والإغواء والجذب، من دون أن تظهر للعيان، ومن دون أن تترك أي بصمات، في حين تركِّز الحرب النفسية والدعاية على إرغام العدو وتدمير إرادته ومعنوياته بصورة شبه مباشرة وعلنية.

فالحرب الناعمة تستهدف الجميع، وفي كل الأوقات، وبوسائل متنوعة جدًا، وبجاذبية.

أما الحرب النفسية فتتجه لإضعاف الرأس والقدرة والحكام والموجهين وتماسك الجماعة، على قاعدة أنها إذا أضعفتهم أسقطتهم فيسهل التأثير على الناس، فلا يبقى للجماعة قائد مؤثر، ويسقط القائد عند جماعته، ولا يصمد الحاكم أمام الضغوطات فيفشل في توجيه الرعية التي تتخلى عنه، وهكذا.

هذا الفرق هو الذي يُظهر لنا كم هي قدرة القوة الناعمة على أن تدخل إلى كل تفاصيل حياتنا بدءًا من الأطفال وانتهاء بالشيوخ من دون تمييزٍ بين الرجال والنساء.

أساليب الحرب الناعمة:

أما أساليب وتكتيكات الحرب النفسية المعروفة تاريخيًا فنورد أمثلة عليها:

الدعاية ضد معتقدات الخصم، الإشاعة، بث الرعب، الخداع، افتعال الأزمات، إثارة القلق، إبراز التفوق المادي والتقني والعسكري، التقليل من قوة الخصم والعدو، التهديد والوعيد، الإغراء والإغواء والمناورات، الاستفادة من التناقضات والخلافات، الضغوطات الاقتصادية، إثارة مشاعر الأقليات القومية والدينية، الاغتيالات، تسريب معلومات عسكرية وأمنية وسياسية حساسة عن العدو في الصحافة، الإفصاح عن امتلاك نوعية خاصة من الأسلحة الفتاكة، وغيرها من الوسائل طابعها العام عسكري أو شبه عسكري.

في حين تعتمد الحرب الناعمة على نفس الأهداف مع اختلاف التكتيكات التي أصبحت تكتيكات ناعمة، فبدلًا من تكتيكات التهديد تعتمد الحرب الناعمة على الجذب والإغواء عبر لعب دور المصلح

والمنقذ، وتقديم النموذج الثقافي والسياسي وزرع الأمل بأن الخلاص في يد أميركا، المانحة لحقوق الإنسان والديمقراطية وحريات التعبير، وما شاكل من عناوين مضللة للعقول ومدغدغة للأحلام وملامسة للمشاعر.

وفي التقييم والتشخيص نستنتج بعد المقارنة والمطابقة بين الحرب النفسية والحرب الناعمة أنهما يسيران على نفس الخط في الأهداف، ويتعاكسان في الوسائل والأساليب، فيتفقان ويشتركان في الهدف لجهة قصد تطويع إرادة العدو (الدول والنظم والشعوب والجيوش والرأي العام والمنظمات والجماعات) ولكنهما يختلفان ويتعاكسان في الوسائل والأساليب.

فكل ما هو من الإرغام والضغط والفرض بوسائل أكثر صلابة دون أن تصل لمستوى الوسائل العسكرية هو من الحرب النفسية (خطابات عالية النبرة وتهديدات وعروض عسكرية وشائعات واغتيالات وحرب جواسيس) وكل ما هو من جنس الاستمالة والجذب والإغواء الفكري والنفسي بوسائل أكثر نعومة (أفلام وأقراص ممغنطة وصفحات فيس بوك ومسلسلات ورسائل نصية) يدخل في تعريف الحرب الناعمة.

ثالثًا: موارد ومصادر الحرب الناعمة:

ومن أجل تحقيق أهدافها، تستفيد القوة الناعمة من كل المؤثرات والرموز البصرية والإعلامية والثقافية والأكاديمية والبحثية والتجارية والعلاقات العامة والدبلوماسية.

وقد حدد جوزيف ناي المنظر الأول لمصطلح القوة الناعمة الموارد بثلاثة محاور:

- القيم والمؤسسات الأميركية.
- جاذبية الرموز الثقافية والتجارية

والإعلامية والعلمية الأميركية.

• وصورة أميركا وشرعية سياساتها الخارجية وتعاملاتها وسلوكياتها الدولية.

كما حدد ناي مصادر القوى الناعمة بأنها: مصانع هوليود وكل الإنتاج الإعلامي والسينمائي الأميركي، الطلاب والباحثين الأجانب الوافدين للدراسة في الجامعات والمؤسسات التعليمية، ورجال الإعمال الأجانب العاملين في السوق الأميركي وقطاع الأعمال، شبكات الانترنت والمواقع الأميركية المنتشرة في الفضاء الالكتروني، برامج التبادل الثقافي الدولي والمؤتمرات الدولية التي ترعاها وتشارك في تنظيمها أميركا، الشركات الاقتصادية العابرة للقارات، الرموز والعلامات التجارية مثل كوكا كولا وماكدونالدز وغيرها.

وبالإجمال ترتكز القوة الناعمة على كل المؤثرات الإعلامية والثقافية والتجارية والعلاقات العامة، وكل مورد لا يدخل ضمن القدرات العسكرية المصنفة ضمن القوة الصلبة.

دور العلماء في صيانة عقول الشباب:

مما يحزنني حزنًا شديدًا، أنه حينما يسعى بعض العلماء لتنبيه العلماء وطلاب العلم إلى وجود تلك الحالات، وما يترتب على انتشارها من خطر، في ظل غياب دورهم المهم في دفعه، يُواجَهون -للأسف- ببرود وتجاهل، وتكرار عبارة: نحن بلد مسلم.

هذا صحيح، لكننا نتعاطى مع بشر، ومع شبابٍ ومراهقين، قد طمعت فيهم الجهات المشبوهة، والمنظمات الدولية، وربما بعض (الطوائف والفرق)، وغفل عنهم الرقيب، وغاب المثال الصالح،

وتصارعت الأفكار أمامهم، وتساقطت الرموز، وقَصَفَتْ عقولَهم الأفكارُ الخارجية، مع لين العود، وحداثة السن، وقلة المحصول الشرعي، فماذا تنتظرون من هؤلاء؟

إن الأفكار عند هؤلاء الشباب الطريين تبدأ بشكل وساوس عابرة، ومع تجاهلنا لهم، بل وخوفهم منا، تزداد تلك الوساوس والإيرادات، لتصبح إرادات، ثم اعتقادات راسخة.

والحديث هنا ليس عن بعض الكتبة المفتونين؛ من أرباب الشهوات وطالبي الشهرة، الذين يُلبِسون شهواتِهم ونزواتهم لباسَ الفكر والفلسفة، وإنما حديثي عن شبابٍ نابهين صادقين مع أنفسهم، غير أن الحيرة تحيط بهم، وتزعزع تصوراتهم، وغالبًا ما يتصفون بالذكاء والنباهة، والرغبة في اقتحام كل مجالٍ فكريٍّ يشرعُ أمامهم، فورود الإشكالات الفكرية والشبهات العقدية على أمثال هؤلاء أصبح أمرًا مألوفًا في هذا العصر، يتعرض له المؤمن المثقف، فضلًا عن الشاب الغر السطحي، وإن من أقل واجبات العالم حمايةَ هذا الجيل من مخاطر تلك الأفكار المسمومة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: وأما المؤمن المحض فيعرض له الوسواس، فتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه، فإن هذا لا بد منه.

لقد بيَّن ابن القيم أن الناس حينما تتخبطهم الشبهات والشكوك، وتحيط بهم الطوائف المتعددة والمختلفة، البعيدة عن الهدى، ويغيب العالم الرباني الذي يَهدي الناسَ إلى مسالك الأنوار، ولا يجدون من يُنقذهم منها؛ فإن عقولهم تضطرب بالشبهات، وتتأصل فيها، وخصوصًا الأذكياء.

يقول ابن القيم واصفًا واقعًا شبيهًا بما أتخوفه على شبابنا: فعظُمت البلية، واشتدت المصيبة، وصار أذكياء العالم

زنادقةَ الناس، وأقربهم إلى التدين والخلاص أهل البلادة والبله.

هذه الكلمات من ابن القيم تُعد أمرًا عظيمًا يستحق التوقف عنده كثيرًا؛ من أجل رسم منهجية في التعامل مع العقليات الذكية والمتميزة، التي قد تنحرف بسبب الآراء الضالة -إرهابيةً كانت أم إلحادية- في ظل غياب الرموز والأعلام الهادية.

إن تقصير العلماء والدعاة اليوم كبيرٌ في دفع تلك الشبهات عن الشباب، وقد فقد كثير من الشباب ثقتَهم في بعض العلماء؛ لأن بعضهم يمثل بحد ذاته مشكلة في طريقة تعامله مع هؤلاء الشباب، وبعض آخر يمثل مشكلة أخرى أكبر بسبب الآثار المدمرة للصراع الداخلي الذي حصل ويحصل بينهم.

إن حاجة الناس في عصرنا الحاضر للعلماء وطلبة العلم، والمعالجة الناجعة لتلك المواضيع المتصلة بتلك الإشكالات الجديدة؛ حاجةٌ ملحة وضرورية، وهي معالجة يجب أن تتسم بالحكمة، واتباع النص، وموافقة العقل السليم، وإشباع رغبة النفس باليقين والاطمئنان.

قال ابن تيمية: ما عُلم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبتة؛ بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملتُ ذلك في عامة ما تَنازع الناسُ فيه، فوجدت ما خالف النصوصَ الصحيحة الصريحة شبهاتٍ فاسدةً يُعلَم بالعقل بطلانها؛ بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع.

وقال: والقول كلما كان أفسد في الشرع، كان أفسد في العقل، فإن الحق لا يتناقض.

يا أيها العلماء الكرام، إن القنوات الفضائية المخالفة، والمواقع المعادية عقديًّا تشن حربًا لا هوادة فيها على الدين، وتواصل بثها للشبهات حول

آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وحول التفاسير، وتنشر ما علق بالتراث من الغث والضعيف، والموضوع والخرافي، زاعمةً أن هذا هو ديننا، وموردةً الشبهاتِ بوسائل حديثة، وتقنيات خطيرة.

والشباب كما هو معلوم، وهم الأكثرية الغالبة في مجتمعنا اليوم، وهم في الوقت نفسه الشريحة التي تدمن مطالعة الإنترنت (تشير الدراسات أن ٩٠ ٪ من متصفحي الإنترنت من الشباب) ومشاهدة القنوات؛ صاروا بهذا ضحية للشبهات السياسية والدينية.

ولا شك أن اهتزاز هذين الأمرين في الشريحة الشبابية، يعني تغيرات جذرية في الخارطة الفكرية بشقيها السياسي والديني لا قدر الله.

هذا هو الواقع، وهذه هي ضريبة التقنية، التي لا يمكن مواجهتها بالمنع، أو سياسة التكتم، أو وضع الرأس في التراب؛ بل لا بد من مواجهة الفكر بمثله؛ لمقاومته وصده، ولا بد من الاستفادة من التقنية؛ لكبح شر الجانب السلبي فيها أو تخفيفه.

إن سياسة التكتم أو المنع أو الحجب قلَّت فاعليتُها، وضعفت جدواها، وعُزلة العلماء وصدودهم لم يعد أمرًا مقبولًا، وتنازعهم فيما بينهم أصبح اليوم أكثر قبحًا ودمامة.

لقد أخذ الله على العلماء العهد والميثاق بالبيان والتوضيح للناس، توضيح أمر الدين الصحيح، والذب عنه وحراسته، ولا بد لهم من مواكبة الأحداث ومتابعة المستحدثات من الشبهات والرد عليها.

لقد سجل التاريخ الإسلامي أسماء رجال عظماء، واجهوا بالعلم والإيمان الطوفان الأول والطوفان الثاني، وسخَّرهم الله للوقوف في وجه تلك الفتن والتصدي لها، وحماية وحراسة

العقول من الشبهات والشكوك.

ونحن في أمسِّ الحاجة في هذا العصر إلى رجال عظماء يواجهون بالعلم والإيمان والفكر السليم الطوفانَ الثالث، الذي بدأت تتشكل سحابته السوداء في الأفق، وإلا فإن العواقب ستكون وخيمة جدًّا لا قدر الله؛ لأن الطوفان الثالث يختلف كثيرًا عن السابقَيْنِ، كمًّا ونوعًا وتأثيرًا، ويختلف في أنه يُركز تركيزًا خطيرًا على قلب ومنبع ومصدر الإسلام، بلاد الحرمين الشريفين وأهلها، نسأل الله أن يحميها وجميع بلاد المسلمين.

وسائل المواجهة المضادة:

جدير بمن يعدون أنفسهم في عالمنا الإسلامي بأنَّهم الرؤوس العلمية والنخب الفكرية والمثقفة، أن يكون لهم دور كبير في حماية الشباب، واحتوائهم فيكونوا على ثغر كبير من ثغور الحماية لأرواح الشباب ومهجهم من الوقوع فيما لا يحمد عقباه، ومن هنا فإنِّي أزعم بأنَّ هناك ثلاثي خطير، أؤكد على ضرورة توجيه عقول الشباب نحوه، حتى لا يقتنصهم أهل الشر والفساد لإضلالهم، وهي:

- معرفة مصادر التلقي في العقول الإسلاميَّة وتحصين العقول بها.
- الولاء لدين الإسلام وتطويع الولاء لخدمة هذا الدين.
- تشجيع الشباب على حبِّ العلم والعمل معًا والنيل من معين المعرفة.

هذه ثلاثيَّة عامَّة أجد -بإذن الله تعالى- أنَّ التركيز عليها، سيثمر أرضيَّة خصبَّة، نجني منها ثمارًا يانعة، وعملًا بُنِيَ على قواعد إسلاميَّة خالصة.

ففي القسم الأوَّل (معرفة مصادر التلقي في العقول الإسلاميَّة وتحصين العقول بها) وسيكون بهذا حماية للشباب من خطط مرسومة تجاههم، يستطيعون من خلالها بإذن الله أن تكون لهم معايير واضحة فيما لو

أشكلت عليهم قضيَّة منهجيَّة، وبالطبع فإنَّه يدخل في ذلك عدة من القضايا التي من الضروري أن نستثمرها في صالح الشباب ومن ذلك:

(١) حثُّ الشباب على العناية بكتاب الله حفظًا وتأمُّلًا وعملًا.

(٢) توثيق صلة الشباب بعلماء الأمَّة الربَّانيين والدعاة المصلحين.

(٣) تنبيه الشباب على كثير من الخطط آثمة الصنع والمصنع، والتي منشؤها بالطبع فكري وأيديولوجي، التي تستهدفهم بدينهم وعقديتهم، وهي كثيرة للغاية وتحتاج لرصد وتتبع.

وأمَّا القسم الثاني: الولاء لدين الإسلام وتطويع الولاء لخدمة هذا الدين؛ فهذا الأمر يندرج تحته قضايا كثيرة، ومنها:

١- الاعتزاز بدين الإسلام، والارتفاع عن النظر لغيره من الأديان، إلا بنظرة الإشفاق عليهم، ومحاولة استخراجهم من ضلالات العمى، وانحراف الطريق.

٢- الحذر من التشبه بالكفَّار، أو الإعجاب بهم بقيمهم، فإنَّ التشبه بهم هو المنزلق الأوَّل لبداية الانحراف، وتنكُّب منهج الولاء لهذا الدين، فحري أن يكون لدينا حرصًا وحماية لمظاهر تديُّننا، وعدم الانسياق والتبعيَّة الذليلة للتشبُّه بأعداء الدين، حتَّى لا نكون بهائم إنسانيَّة ونحن لا نشعر.

٣- هناك روح جهاديَّة في الأمَّة المسلمة، حيث قامت هذه الأمَّة بتحطيم الأصنام، وتكسير الأوثان، وتعبيد الناس لدين الإسلام طوعًا - وإن لم يكن فالجزية أو القتال- هذه معالم من ديننا ينبغي ألا ننساها، أو أن يؤثِّر علينا بعض المنهزمين تجاه الغرب ونحن لا نشعر.

ومن هنا فإنَّ تربية الشباب على معاني الجهاد في سبيل الله، وأهميَّة

الإعداد الكامل له، وذكر قصص المجاهدين، والاعتزاز بها، وتحديث النفس بالغزو، كلُّ هذه الأمور ملحٌّ طرقها في زمن الصراع الديني والحضاري، وإنَّ من صفات هذه الأمَّة أنَّ راية الجهاد قائمة فوق سنامها وأنَّه ماض إلى قيام الساعة، وأنَّ من صفات الطائفة المنصورة مواصلة المقاومة للكفرة المحتلِّين، وجهاد أعداء الدين، ولو كره الكافرون.

٤- بذل الهمم في إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي أوصلها بعض العلماء إلى الركن السادس من أركان الإسلام، وخصوصًا أنَّ هذه الشعيرة العظيمة يقف لها الليبراليون بالمرصاد، ويرون أنَّه تدخل وتطفل، وأنَّه لكل حريَّته فليفعل ما يشاء، فلا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر.

٥- تشجيع مقاطعة جميع المشروعات الإمبراطوريَّة الغربيَّة وخصوصًا الأمريكيَّة، وتجاهلها.

وفي القسم الثالث والأخير: تشجيع الشباب على حبِّ العلم والعمل معًا، والنيل من معين المعرفة، فإنَّ الشباب بحاجة إلى عناية ورعاية، واستثمار طاقاتهم وتوجيهها للإنتاج، وحثهم على السعي والدأب لمواصلة السير في طريق العلم، والنهل من معين المعرفة، وضخّ ما تعلَّموه في قنوات الإصلاح، وطرق الخير، لينتشر العلم والعمل معًا على أيدي الشباب.

أولاً- تعريف الحرب الناعمة

لا بدَّ في البداية أن نعرِّف المقصود بالحرب الناعمة، لأنَّها مصطلحٌ غير سائد في بلدنا بل في منطقتنا، بل هي مصطلحٌ جديدٌ في الاستعمال العالمي، وعلى الرغم من مشابهتها في المضمون لمصطلحات أخرى كانت تستخدم للتعبير عنها بأشكال مختلفة: كحرب المعنويات، وغسل العقول، والغزو

الثقافي، والحرب السياسية.... فإنَّ الحرب الناعمة هي التي تستخدم القوة الناعمة، التي عرفها جوزيف ناي١ بقوله: «القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً عن الإرغام». وإنما انطلقنا من تعريفه لأنَّه أبرز الشخصيات الأمريكية الذين كتبوا عن هذا الموضوع حديثاً، وأصدر كتاباً بعنوان «القوة الناعمة»، وبالتالي فإنَّ كل ما نراه من تحركات أمريكية في مواجهة شعوب منطقتنا وفي كل لحظة من اللحظات التي تمر، إنما هي جزءٌ من الحرب الناعمة التي تستخدم أمريكا فيها القوة الناعمة. وقال ناي أيضاً: «إنَّ القوة الناعمة تعني التلاعب وكسب النقاط على حساب جدول أعمال الآخرين، من دون أن تظهر بصمات هذا التلاعب، وفي نفس الوقت منع الآخرين من التعبير عن جدول أعمالهم وتفضيلاتهم وتصوراتهم الخاصة، وهي علاقات جذب وطرد وكراهية وحسد وإعجاب».

وهو عندما يؤسس للقيم والأسباب والمواهب التي تستخدم لخدمة القوة الناعمة في الحرب الناعمة، يخلص إلى أنَّ موارد القوة الناعمة تدور حول محاور ثلاثة:

الأول: «تعزيز القيم والمؤسسات الأميركية، وإضعاف موارد منافسيها وأعدائها».

والثاني: «توسيع مساحة وجاذبية الرموز الثقافية والتجارية والإعلامية والعلميّة الأميركية وتقليص نفوذ منافسيها وأعدائها».

والثالث: «بسط وتحسين وتلميع جاذبية أميركا وصورتها وتثبيت شرعية سياساتها الخارجية، وصدقية تعاملاتها وسلوكياتها الدولية، وضرب سياسات أعدائها».

إذاً عندما نتحدث عن قوة ناعمة تريد أن تقتحم بلداننا وأفرادنا، إنما نتحدث عن مشروعٍ أمريكي معاصر،

اختار القوة الناعمة المقابلة للقوة الصلبة (المادية العسكرية)، لعجزه عن الوصول إلى أهدافه عن طريق القوة الصلبة، أو لتخفيف التكلفة الباهظة المترتبة عليها. وقد لجأ إلى القوة الناعمة ليخرِّب من داخلنا، وليسقطنا من داخلنا، بأيدينا وأدواتنا، من دون أن نلتفت في كثير من الأحيان إلى ما يحصل، بل نعيش أحياناً حالة الغبطة بما يحصل، يترافق ذلك مع تعديل القيم التي يريدون تأسيسنا عليها لتسود قيمهم، ثم نندفع بشكل طبيعي وعادي لتصديقها وتنفيذها، فيتعدّل سلوكنا تبعاً لها، فنتحول أتباعاً بدل أن نكون مستقلين وأصحاب قرار.

ومن أجل تحقيق تثبيت هذه القيم وتحقيق أهدافها، تستفيد القوة الناعمة من كل المؤثرات والرموز البصرية والإعلامية والثقافية والأكاديمية والبحثية والتجارية والعلاقات العامة والدبلوماسية، فلا تترك جانباً من جوانب التأثير إلاَّ وتدخل من خلاله، لتحقيق الموارد الثلاثة التي ذكرناها أعلاه، وإخضاع الخصم للمنظومة الغربية، كما تستفيد هذه القوة الناعمة من منظومة العولمة بأدواتها ووسائلها التي تتحكم بإدارتها أمريكا كقطب مركزي آحادي في العالم اليوم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي.

ثانياً: الفرق بين الحرب الناعمة والحرب النفسية

تركِّز الحرب الناعمة بأساليبها على الاستمالة والإغواء والجذب، من دون أن تظهر للعيان، ومن دون أن تترك أي بصمات. في حين تركِّز الحرب النفسية والدعاية على إرغام العدو وتدمير إرادته ومعنوياته بصورة شبه مباشرة وعلنية.

إنَّ الوسائط والأدوات المستخدمة اليوم في الحرب الناعمة متوفرة وفي متناول الجميع من دون استثناء، ودخلت إلى كل البيوت ٢٤/ ٢٤

ساعة وعلى مدارها، في حين أنَّ الحرب النفسية توجه بشكل أساس نحو كتلٍ منظمة ومتراصة ومتماسكة وصلبة، مثل: الجيوش والحكومات والمنظمات التي تسيطر وتهيمن بصورة كلية على وعي وميول الرأي العام. فالحرب الناعمة تستهدف الجميع، وفي كل الأوقات، وبوسائل متنوعة جداً، وبجاذبية. أما الحرب النفسية فتتجه لإضعاف الرأس والقدرة والحكام والموجهين وتماسك الجماعة، على قاعدة أنها إذا أضعفتهم أسقطتهم فيسهل التأثير على الناس، فلا يبقى للجماعة قائد مؤثر، ويسقط القائد عند جماعته، ولا يصمد الحاكم أمام الضغوطات فيفشل في توجيه الرعية التي تتخلى عنه، وهكذا...

هذا الفرق هو الذي يُظهر لنا كم هي قدرة القوة الناعمة على أن تدخل إلى كل تفاصيل حياتنا بدءًا من الأطفال وانتهاءاً بالشيوخ من دون تمييزٍ بين الرجال والنساء.

ثالثاً: القوة الناعمة مع إبليس

القوة الناعمة بصورتها المعاصرة من الأبحاث الجديدة في وسطنا وفي العالم، ولكنَّ الله تعالى قد عرَّفنا على القوة الناعمة منذ بدء الخليقة مع إبليس، عندما ذكر الحوار الذي جرى بينه وبين إبليس، الذي رفض السجود لآدم عليه السلام، فطرده من الجنة، عندها طلب طلباً واحداً من رب العالمين، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾٥ فاستجاب الله تعالى له بإبقائه حياً إلى نهاية الحياة الدنيا، ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾٦، ثم أعلن إبليس اتجاهه للوسوسة والإفساد والإغواء: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾٧، إنَّها إرادة الله تعالى، أن يكون إبليس رمزاً للفساد والانحراف، من دون أن يملك السيطرة المادية المباشرة على أحد، فهو يعمل بالإغواء والزينة

والتدليس والوسوسة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، فلا يقوم بعمل عسكري، ولا يقوم بعمل مادي مباشر، فكل أعماله تدور حول التدليس والزينة والوسوسة. ويتحمل الناس مسؤولية الاختيار بأعمالهم، حيث يكون تأثيره على الذين يستجيبون له، أما المؤمنون فلن يستجيبوا له لتمسكهم بطريق الصلاح وإخلاصهم لله تعالى.

من الذي يتأثر بهذه القوة الناعمة الإبليسية عبر التاريخ وفي الحاضر وفي المستقبل؟ قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾٩، فلا بدَّ من وجود قابلية عند المتلقي، كي يتأثر بهذه التوجيهات والإغراءات التي يقوم بها إبليس (لعنه الله). قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ولو أن الحقَّ خلُص من لُبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغثٌ ومن هذا ضغثٌ فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

فالالتباسات التي تحصل إنما تكون بتشويه الحقائق وتزييفها، وما لفتني تلك الفكرة المركزية التي وجهنا الله تعالى إليها، وهي لب الموقف الرئيس الذي يجب أن نتخذه في مواجهة الحرب الناعمة، فقد أمرنا الله تعالى أن نعرف أولاً بأن إبليس عدو، ثم علينا ثانياً أن نتَّخذه عدواً، فالمعرفةُ والموقفُ متلازمان، وكما لا يمكن اتخاذ الموقف مع الجهل بالواقع، لا تكفي المعرفة إن لم يصاحبها موقفٌ وأداء. قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، فإذا اتخذناه عدواً أعددنا العدة اللازمة في عملية المواجهة، واستطعنا أن ننتصر عليه في مواقع عدة، والتفتنا إلى تقويم أخطائنا أو انحرافاتنا. فالتصويب على العدو

أساس المعركة.

رابعاً: استهداف العقل والنفس الإنسانية

تستهدف الحرب الناعمة العقل والنفس الإنسانية، وتتجاوز تأثيراتها الأفراد لتطال الجماعة، وهي بذلك تستغل طبيعة خلق الإنسان، وكما يقول الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر: «الإنسان خُلق حسياً أكثر منه عقلياً»، ولذلك هو يتأثر بالأمور المادية والإغراءات والغواية، وفي أحيانٍ كثيرة يبدو العقل وكأنَّه قد تعطَّل، مع أنه يعمل، ولكنَّ مؤثرات الجسد تسيطر في كثير من الحالات على منطق العقل.

وقد حذر رسول الله ﷺ أصحابه وهم مجتمعون فقال: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم، ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر.

فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟

فقال: نعم وشرٌ من ذلك، فكيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف.

فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟

فقال: نعم، وشرٌ من ذلك، فكيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»، أي تنقلب الموازين رأساً على عقب، ليصبح الحقُّ باطلاً والباطلُ حقاً، ما يؤدي إلى أن تختلَّ المقاييس، فلا تكون النظرة واحدة عند الناس في السلوك أو المناقشة أو المحاورة، أو في التأسيس للمستقبل، ما يُسبب الخلل والإرباك والضياع في المجتمع.

يقول الإمام القائد الخامنئي (حفظه الله ورعاه): «الحرب الناعمة ترفع شعارات ودعايات محقة بالظاهر ولكنها باطلة في الباطن وتخلط الحق بالباطل، وللأسف فإن البعض يكرر دعايات وشائعات العدو عن قصد أو عن جهل».

وهنا نذكر إمام الأمة مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني ﷺ الذي تحدث عن هذا الموضوع مبكراً، فقال: «مراكز الفساد الكثيرة التي أوجدوها، لنشر الفساد والدعارة ولإفساد الشباب، لم تظهر بلا غاية. لقد قاموا بإعلامٍ مكثَّف لهذا الأمر، فسخَّروا مجلَّاتهم ووسائلهم الإعلامية السمعية منها والبصرية خدمةً لهذا الأمر، الإذاعة والتلفزة، والوسائل السمعية والبصرية، كانت تدأب على جذب الشباب من الأسواق ومن الصحاري التي يعملون فيها، ومن الدوائر التي يخدمون فيها، إلى مراكز الفساد تلك، لكي يصنعوا من الجامعي إنساناً فاسداً، ويجعلوا من الموظف موجوداً فاسداً»، فإذا ما انتشر الفساد بين الناس، تكون الحرب الناعمة قد أثَّرت أثرها، فتنساق النفوس إلى الانحراف علماً أو جهلاً، حتى أنَّ بعض السائرين على هذه الخطى كالسائرين على غير هدى، لا يعلمون البداية ولا يعلمون النهاية.

إذاً نحن أمام قوة ناعمة تُستخدم للحربٍ علينا، والقاعدة الأولى والأساس التي يجب أن ننطلق منها: أن نعرف وجود الحرب الناعمة من أجل أن نهيئ العدة الكافية لمواجهتها، وأن نضعها نصب أعيننا لنواجهها بعمليات الكر والفر، لنتمكن من ربح المعركة الطويلة التي بدأت مع فجر التاريخ، وتكرست الآن مع الهيمنة الأمريكية، وهي لن تتوقف عند حد، ولكنَّ السجال يحصل بالنقاط، فتارةً نربح فيها وأخرى نخسر فيها، بحسب طريقة أدائنا والجهود التي نبذلها.

خامساً: أساليب ووسائل الحرب الناعمة وكيفية مواجهتها

ما هي أساليب ووسائل الحرب الناعمة التي تستخدم عادةً؟ اخترت طريقة عرض الأساليب والوسائل،

يتبعها تقديم بعض إجابات المواجهة بعد الحديث عنها، كي لا أؤخر المعالجات دفعةً واحدة، وإنْ كانت طريقة العرض في بعض الفقرات الأخرى تتناول الأساليب والوسائل بشكل منفصل عن المواجهة.

١-الإعلام والاتصالات:

يقول غوستاف لوبون: «ومن هنا خطورة الإدمان والتعرض السلبي لوسائل الإعلام، فالتكرار والتوكيد يصنعان التصورات والمعتقدات خاصةً إذا ما شحنّا بجرعات عاطفية ومؤثرات بصرية إيحائية».

وسائل الإعلام والاتصالات هي الأمر المباشر الذي تستخدمه اليوم الحرب الناعمة في أوسع نطاقها بعناوين مختلفة (فايس بوك، تويتر، ووسائل الاتصال المختلفة، والتلفزة، والقنوات الفضائية العالمية، وهكذا)، يقول أحد المحلّلين الأمريكيين مايكل آيزنشتات: «يجب إثارة التساؤل الدائم عن عدم استقرار النظام في إيران، وأنه غير صالح للبقاء على المدى الطويل، وزرع الشكوك بين النظام الحاكم في إيران وبين المنظمات المرتبطة به في المنطقة، وينبغي بث معلومات تقلِّل من أهمية الانجازات النووية الإيرانية»، أي أنَّ وسائل الإعلام والاتصال لها وظيفة التكرار للقصة التي تريد نشرها، وضخ المعلومات الكثيفة من أجل أن تؤثر على بعض الشخصيات وعلى الناس، وأن يصبح ما تنشره هذه الوسائل هو الحقيقة التي يجب تبنيها والتعويل عليها. جوزيف ناي يقول: «إن مصانع هوليود وبغض النظر عن فسادها، وعدم نظافتها فهي أكثر ترويجاً للرموز البصرية للقوة الأمريكية الناعمة من جامعة عريقة كجامعة هارفرد، ذلك أن الإمتاع الشعبي للأفلام الأمريكية -الجنس والعنف والابتذال- كثيراً ما يحتوي على صور ورسائل لا شعورية عن

الفردية وحرية الخيّار للمستهلك وقيم أخرى لها رسائل سياسية مهمة ومؤثرة». عندما يتحدثون عن هذه الحقائق بشكل واضح وصريح، فهم لا يُخفون بأنَّ ما تنتجه وسائل الإعلام وهوليود والمواقع المختلفة، يستهدف استكمال خطة الحرب الناعمة لتحقيق الإستمالة والجاذبية التي يؤثرِّون من خلالها.

بعض الإحصاءات الميدانية تكشف بأنَّ الجمهور يتعرض لوسائل الإعلام بمعدل ٣-٤ ساعات يومياً، أي ما يوازي ١٠٠٠ ساعة سنوياً، مقابل ٨٠٠ ساعة يقضيها التلامذة والطلاب في المدارس أو الجامعات في مدارسهم أو جامعاتهم كل سنة، ولنا أن نتصور مدى التأثير. علماً بأنَّ ما يتلقونه من وسائل الإعلام يحصل برغبةٍ وشوقٍ ومحاولة تقليد وتفاعل، وأنتم تعلمون أن أكثر المسلسلات أو الأفلام التي تعرض هي في الواقع أفلام هادفة بمجملها، حتى بعض الأفلام التي تبتغي الربح التجاري المبتذل فإنَّها جميعها تؤدي دورها في الحرب الناعمة.

عندما يصوِّرون لنا امرأة متزوجة تخون زوجها، ويبرزون التعاطف معها بسبب ظلمه لها، إلى درجة يشعر معها المشاهد بأنَّ خيانتها مبرَّرة، لأن زوجها أخطأ معها وظَلَمها، فهذا تثقيفٌ على تلقي الخيانة والاعتياد عليها كحالة طبيعية في الحياة وفي العلاقات بين الناس!

وعندما يروّجون للحرية من خلال الفساد والإنحلال والطريقة المبتذلة في اللباس، والأداء المفضوح في العلاقات بين الجنسين، وبشكل إباحي ومثير للغرائز، فإنما يريدون إثارة الغرائز والأهواء ليخرج الإنسان من ضوابطه وقواعده الثقافية والأخلاقية والدينية، وعندها يتحكمون بمشاعر وتوجّهات الإنسان كيفما شاؤوا، فيعطلون

استقامته واتجاهاته الإيجابية ليسلك طريق الانحراف والأفكار الضالّة التي يقودونه من خلالها!

وتلاحظون أيضاً في كثير من الحالات، عندما يحصل ضخٌ إعلاميٌ مكثف لحادثة بسيطة وعادية فتصبح حادثة العالم، بينما تجري جرائم وحوادث خطيرة تمر في نشرات الأخبار كخبرٍ عادي لا قيمة له، كأن يُجرح أمريكيٌ في بلدٍ في العالم في مقابل أن يقتل الآلاف بقصفٍ جويٍ ومدفعي بأدوات الاستكبار، فيكون الخبر الأول في العالم هو جرح الأمريكي، ولأيام عدة، مع كل التفاصيل التي تحيط به، بينما يمر الخبر الآخر بشكل عادي وطبيعي ولمرة واحدة فقط، فإذا ما أُثيرَ من بعض الجهات أو وسائل الإعلام، تمت محاصرته سياسياً وإعلامياً فيختفي مجدداً من التداول! إذاً تُستخدم وسائل الإعلام والاتصالات من أجل ضخ المفاهيم والمعطيات التي تؤدي إلى تغييب التفكير الصحيح، وإثارة الغرائز والمشاعر، وتوجيه الناس، وهي من أساليب ووسائل القوة الناعمة المؤثرة اليوم.

في عملية المواجهة علينا أن لا نتحدث بصيغة مترفة، ولا نقول بأنَّ علينا أن تكون وسائلنا الإعلامية أقوى وأهم وأوسع وأشمل من وسائلهم الإعلامية لأننا لا نستطيع ذلك، ولكن على الأقل لا بدَّ أن يكون لنا وسائلنا الإعلامية بقدر استطاعتنا، وأن تكون لنا وسائل اتصالاتنا التي نخاطب الناس من خلالها، وأن نقدِّم فيها البرامج والنقاشات والأفكار بقدر ما نستطيع، كي نكون حاضرين في هذه الساحة، فنقدم بديلاً جزئياً على الأقل، فلا تخلو الساحة تماماً ولا يحصل الفراغ، وعلى الرغم من أنَّ هذا الأمر يتطلب إمكانات ضخمة، ويحتاج إلى قدرات كبيرة، فضلاً عن أن جاذبية الفساد تتفوق ابتداءاً على جاذبية الصلاح، ولكن علينا أن

نعمل، ثم تصبح جاذبية الصلاح مؤثرة بعد فترة من المجاهدة والمعاندة والإصرار والعمل، فتقل الصعوبات والتعقيدات، خاصة أنَّ مشروع الصلاح ينسجم مع فطرة الإنسان، ولا زالت التعقيدات في منطقتنا أقل بكثير مما هو في الغرب، ولا زالت مناخات الشرف والعزة والكرامة والإيمان تشكل عوامل مساعدة لتأثير وسائلنا على ضعفها في مواجهة التحديات.

٢- تلفيق الحقائق:

بث الشعارات والمفاهيم الخاطئة، وتزيينها وتشويه المفاهيم السائدة. هم يتحدثون عن الحداثة، ويقصدون بالحداثة ترك الماضي بكل ما فيه على قاعدة أنه أصبح مرادفاً للتخلف! ويتحدثون عن الأسرة ويطالبون بعدم تقييدها بالضوابط المعروفة في إدارتها، لتكون أسرةً حرَّة في إطار المساكنة والإنفاق المشترك، وعدم وجود مسؤول عن الأسرة، لتتحول الأسرة إلى بيتٍ يأوي الرجل والمرأة من دون أي تنظيم للعلاقة بينهما! ويتحدثون عن نموذج الغرب في كل شيء، في الطعام والشراب، وطريقة الحياة، وطريقة اللباس، ومواكبة الموضة، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى تغيير بعض الحقائق ويؤسس لشخصية مختلفة! يطالبون بالحرية الجسدية والملذات بلا حدود، وعلى قاعدة حق الإنسان في أن يفعل بجسده ما يشاء: أن يشرب الخمر حتى الثمالة، وأن يتناول المخدرات حتى ضياع العقل، وأن يتصرف في العلاقات المحرمة من دون حدود وضوابط بل بتشريعٍ لها وقوننة، كي تكون متاحة للجمهور بشكلٍ عادي وطبيعي... هذه الشعارات تؤدي إلى تغيير بنيوي في طريقة التفكير وفي الحقائق التي يحملها الإنسان، وهنا خطورتها. عندما تكون الأسرة تنظيماً وتكامل أدوار، فهي تختلف تماماً عن الأسرة

التي لا تنظيم فيها، وعندما نتعامل مع الجسد كمسؤولية نتحملها لحمايته من المحرمات والمفاسد فهذا يختلف تماماً عن جسدٍ يُطلق له العنان ليفعل ما يشاء كالحيوان. وعندما ننظر إلى الحداثة كمحاولة للاستفادة من التطور، لإعطاء الإنسان مكتسبات إضافية في حياته المادية والعقلية، فهي تختلف تماماً عن حداثةٍ تعني إلغاء الماضي بكامله وإلغاء الأسس التي بُنيت أفكارنا عليها... هذه العناوين متفاوتة تماماً.

لفت إمامنا الخميني ﷺ إلى تعديل المفاهيم، حتى من أولئك الذين حملوا الإسلام وادعوا أنهم من الزهاد الذين يؤمنون به إيماناً مميزاً، فقال: «يجب أن نعمل على التمييز بين زهد وقداسة الإسلام المحمدي الأصيل، وإبعاده عن صدأ المتظاهرين بالقداسة والمتحجرين من أتباع الإسلام الأميركي، وفضحهم إلى الجماهير المستضعفة»، لأن هناك سلوكيات إسلامية يقوم بها علماء أو أفراد، ويستخدمون تعابير ومضامين الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، لكنَّ الإسلام منهم براء، فالصورة التي يعطونها تشوِّه الإسلام وتؤدي إلى رمي الناس في أحضان التغريب، وبذلك يكونون جزءاً من الحرب الناعمة ولكن من خلال إسلامنا وديننا. إسلامنا ليس متحجراً، إسلامنا ليس إرهابياً، إسلامنا لا يتصرف بعقلية متخلفة، إسلامنا هو الحياة وهو الانفتاح عليها، وهذا هو الإسلام المحمدي الأصيل الذي دعا إليه الإمام الخميني ﷺ.

ومن تلفيق الحقائق نعتُ المقاومة بصفة الإرهاب، فهم يركزون إعلامياً وسياسياً على عنوان الإرهاب في مقابل المقاومة، وهم يتحدثون عن الإرهاب منذ بدأت المقاومة، والإرهاب في نظر الاستكبار هو المخالفة السياسية لسياساتهم، فهدفهم في الواقع إسقاط الخيار الحر والممانع

الذي تحمله المقاومة.

ومن تلفيق الحقائق ازدواجية المعايير التي تنطلق من مصلحة الاستكبار لا من الحق، واليوم إذا ما قرأتم كل بيانات الأمم المتحدة وأمريكا وأوروبا في أي قضية من القضايا، فإنَّكم لا تجدون: أن الحق الإنساني يقتضي كذا، وإنما التركيز على: أنَّ المصلحة (مصلحة المجتمع الدولي، ومصلحة الشعب الأمريكي، مصلحة الدول الكبرى) أن تكون كذا، من دون الاهتمام بمخالفة الموقف للحق؟!

هذا تلفيق للحقائق، ومن واجبنا أن نواجه هذا التلفيق، الذي يكون بإبراز الحقائق على صورتها، وتعريف الناس على الإسلام المحمدي الأصيل، وإبراز دور المقاومة وأدائها وقضايا منطقتنا المحقَّة، وبالتركيز على منطق الحق لا على المصلحة، ولو أدَّى ذلك إلى مخالفة الإنسان لمصلحته آنياً، هذه عناوين يجب أن نركز عليها ونثبتها، وأن لا نقبل الانتقال إلى المعايير الأخرى التي تخالف الحقوق الثابتة والمشروعة.

٣- التبعية الفكرية:

تحاول المنظومة الثقافية الغربية السيطرة علينا، ليأخذ منَّا الاستكبار من خلال هذه التبعية كلَّ شيء. فإذا ما أصبحت أفكارُنا أفكارَهم وقناعاتُنا قناعاتهم، عندها يصبحون الأساتذة ونحن التلامذة، ويصبحون القادة ونحن الرعيَّة، فإذا ما احتجنا إلى تفسيرٍ فهم المفسَّرون، وإذا ما احتجنا إلى توضيحٍ فهم الموضِّحون، ولذا فالتبعيّة الفكرية من أخطر ما يصيبنا في الحياة. يقول الإمام الخميني ﷺ: «كما أوضحتُ مراراً، أن أخطر أنواع تبعيَّة الشعوب المستضعفة للقوى العظمى والمستكبرين، هي التبعيَّة الفكرية والداخلية، لأنَّ بقيَّة التبعيات تنبع منها، وما لم يتحقَّق

الاستقلال الفكري لشعب ما، لن يحقِّق استقلاله في الأبعاد الأخرى. وكي يتسنى لنا تحقيق الاستقلال الفكري والخروج من سجن التبعيَّة للآخر، يجب أن نستيقظ من الغفلة، التي فُرضت على بعض فئات الشعب، لاسيَّما العلماء والمفكرين والمثقفين، وأن نعي هويتنا ومفاخرنا ومآثرنا الوطنية والقومية والثقافية»، نحن لنا خصوصيتنا، ولنا أفكارنا وقناعاتنا، هذه يجب أن تبرز، وأن تكون حاضرة، لأنها إذا ما برزت استطعنا أن نتمايز على المستوى الفكري، وعندها نستطيع أن نتمايز في المستويات الأخرى، أمَّا إذا انسحقنا على المستوى الفكري واتَّبعنا الإستكبار فلا يمكننا أن نستقل لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا عسكرياً، ولا بكل المعايير الأخرى، فالمسألة تبدأ من الاستقلال الفكري، وهذه مسؤوليتنا في أن نحمي أفكارنا وقناعاتنا وأصالتنا.

في وثيقة قدمتها مؤسسة راند للأبحاث الدفاعية التابعة للبنتاغون تحت عنوان: «بناء شبكات إسلامية معتدلة» تعطي فيها النصائح بكسب ود طبقة الشباب، ورجال الأعمال المسلمين، عن طريق توفير فرص العمل لهم، وهذا ما يضمن إبعادهم عن الأنظمة والحركات الإسلامية وتحويلهم عنها.

كما تدعو الدراسة إلى ضرورة دعم الإسلام المعتدل -بحسب وجهة نظرهم-، ويقصدون بالإسلام المعتدل الإسلام الذي يتلقى الثقافة الغربية برحابة صدر، ويقبل المشروع السياسي الغربي الذي يتضمن التعامل مع «إسرائيل» في المنطقة، فالإعتدال بالنسبة إليهم أن لا يحرّك التابعون «المعتدلون» ساكناً لمواجهة مشاريع الإستكبار.

وفي مجال التأكيد على أولويَّة التأثير الفكري، يقول روبرت رايلي مدير

إذاعة صوت أمريكا: «إن الطبيعة الحقيقية للصراع اليوم هو صراع المشروعية في عقول وقلوب الناس والرأي العام، وليس صراع القوى العسكرية، إن الحروب تخاض ويتم تحقيق النصر أو الهزيمة فيها في ساحات العقول والقلوب قبل أن تصل إلى ميادين القتال».

فالعمل على العقل والقلب والفكرة، وهذه هي البداية، من هنا ندعو في عملية المواجهة إلى تأصيل ثقافتنا وأفكارنا، وأن لا نكون منسحقين أمام الثقافات والأفكار التي يطرحها الإستكبار علينا، ولا نتلقَّى الشعارات التي يطلقها تحت عنوان أممي أو عالمي أو معاصر أو أمريكي أو غربي، بل أن تكون لنا قناعتنا وثقافتنا، وأن نناقش ما يُعرض علينا بكل موضوعية، وأن نتحدى الآخرين في الندوات والمواقف، وفي كل موقع فكري وثقافي، لتبقى لنا خصوصيتنا، التي نربّي أولادنا وأجيالنا عليها.

الربط السياسي بمصالح الاستكبار

الأنظمة المستَبِدّة الموجودة في المنطقة العربية والإسلامية مدعومة بالكامل من الإدارة الأمريكية، ولا نسمع عن البلدان المحكومة بهذه الأنظمة عن حقوق الإنسان، ولا عن حرية الانتخاب، ولا عن مجالس شعبية، ولا عن حكومات تمثل الناس، ولا عن رئاسة منتخبة من الشعب، وإنما نسمع فقط إشادات بالاعتدال الموصوف لهذه الحكومات المستبدة! لأنها تغذي الاستكبار بكل متطلباته: المالية والعسكرية والثقافية والأخلاقية، وتتنازل لمصلحة قراراته ومشاريعه، فهي بلا قرار وبلا رأي وبلا موقف، فمصالح هذه الدول السياسية التي هي مصالح الأفراد والعائلات الحاكمة أصبحت مرتبطة بمصالح الاستكبار، كل هذا من طرق الحرب الناعمة.

كيف يمكن تمييز الدعوة لانتخابات حرة في بلد عن بلدٍ آخر ممنوع فيه الحديث عن الانتخابات بالأصل؟! وكيف تُشنَّ حملة عن حقوق الإنسان في بلد بينما تُخنق حقوق الإنسان في بلدٍ آخر، فالحصص والحقوق مرسومة من قبل الحكام، وممنوع أي اعتراض، وممنوعٌ الحديث عن حقوق للإنسان! انَّه ربطٌ سياسيٌ بمصالح الاستكبار.

هذه الدول تقبل بإسرائيل المحتلة، وتطبِّع معها، وتنساق إلى السياسات الأمريكية ضد جيرانها من البلدان العربية والإسلامية، وتقف بوجه المقاومة وتضع العراقيل في طريقها، وتعمل وفق الجدول السياسي الاستكباري، وهي بذلك تساهم في الحرب الناعمة ضد شعوب المنطقة وحقوقها ومصالحها.

وإذا ما راقبنا الشعارات التي تطلقها والمواقف السياسية الداخلية والخارجية التي تعبِّر عنها، فإنَّها نسخة طبق الأصل عن الشعارات والمواقف التي تطلقها الإدارة الأمريكية! إذاً أين الخصوصية والحقوق ومصالح شعوب هذه المنطقة؟! علينا أن نضيء على هذه الظاهرة الخطرة، وعلينا أن نكشف للرأي العام حقيقة هذه الأنظمة المستبدة، وحقيقة هذا الارتباط الاستكباري. وأن نتحدث بالتفصيل سياسياً وإعلامياً للتوضيح للرأي العام، يجب أن يعرف الرأي العام بأنَّ سياسات الحكام المستبدين ملحقة بسياسات أمريكا والاستكبار، وهم العقبة الكأداء أمام التغيير والاستقلال والتنمية.

لماذا لا يُعطى الشعب حقه في الانتخاب الحر، وشغل الوظائف والمواقع المختلفة، والحصول على العدالة الاجتماعية وتلبية الحاجات، بينما يأخذ البعض موارد الدولة لأنه من العائلة الحاكمة ويعيش الرفاهية؟!.

لماذا تسهِّل بعض الدول العربية للاستكبار مشروعه بمواجهة دول عربية أخرى بالوكالة، فتتحمل عبء التمزق العربي لخدمة خطوات السيطرة الأمريكية على منطقتنا؟!

لماذا لا تُشن حملة مركَّزة ودائمة على «إسرائيل» رفضاً لاحتلالها واعتداءاتها وإجرامها، ويتم استنكار عملية جهادية يقوم بها الفلسطينيون في غزة؟!

ما الذي يدفع بعض الدول لزيادة إنتاج النفط تلبية للاحتياجات الغربية التي نشأت عن العقوبات التي فُرضت على إيران خدمة للمشروع الأمريكي الإسرائيلي؟!

إنَّ قواعد الاستقلال السياسي غير خافية على أحد ومنها:

١- أن تكون لبلداننا مشاريعها المستقلة التي تخدم شعوبها ولا تكون مطية للاعتداء على شعوب أخرى.

٢- أن تكون القضية الفلسطينية رأس الاهتمامات السياسية ودعمها بالحد الأدنى بالموقف السياسي المناصر لها، بدل تمزيق وحدة الفلسطينيين والوقوف إلى جانب «إسرائيل».

٣- أن تُعطى الفرصة للناس ليختاروا أنظمتهم وقياداتهم، وأن لا يكونوا مقهورين بأنظمة سياسية ومستَبِدّة.

٤- أن يتم احترام نتائج الخيارات الشعبية، وأن لا يحصل أي تدخل أجنبي لتعديل موازين القوى أو الضغط باتجاه سياسات تخدم الاستكبار.

٥- أن لا تُسَخَّر الإمكانات المالية والموارد الاقتصادية لخدمة الانهيارات المالية الاستكبارية.

٦- أن لا تكون بلداننا قواعد عسكرية وأمنية للأجانب، فتخسر بذلك حريتها واستقلالها وتصبح ملحقاً بأدوات الاستكبار.

٤- الدعم المالي والاقتصادي والعسكري:

لا يكون الدعم الاستكباري في المجالات المختلفة منحةً، وإنما لكل دعم مبرراته وأهدافه. واليوم قسم من الدعم الأمريكي الذي يُعطى تحت مسمى مؤسسات المجتمع المدني- ونحن لا نريد الإساءة إلى هذه المؤسسات- ولكن علينا التدقيق بالمساعدات الأمريكية الموجَّهة، فهم يدفعون أموالاً بعنوان التثقيف عن الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحرية الجنسية، والتفلت من القيم والأفكار السائدة، ومواكبة الحياة المعاصرة، وتنظيم الأسرة، وغير ذلك... دققوا في البرامج التي تُعطى، سترون أنها برامج تؤسس لتبعية فكرية وثقافية وسياسية، وتريد أن تُخرج المضمون الأصيل الموجود لدينا لنستبدله بمضمون آخر نكون معه أتباعاً لهم، وإلاَّ فما هذا الكرم؟ وهل تساعد أمريكا وأوروبا من دون مقابل؟! هم يدفعون ويريدون المقابل.

أمَّا الدعم الاقتصادي، فلربط البلد بالمنظومة الاقتصادية الغربية، وإغراقه بالديون وفوائدها، وتعويد الناس على حاجياتٍ كمالية تتحول إلى نمط حياةٍ يومي ضروري، ثم فرض خطوات اقتصادية لتحصيل الديون ما يجعل البلد بحاجة دائماً إلى متابعة استكبارية وخبرات أجنبية وتدخُّل في الإدارة المالية، فيصبح البلد مرهوناً بكامله غير قادر على اتخاذ قرارات مستقلة ونافعة.

كما تُلْزَم الدول الغَنِيّة في منطقتنا بشراء سندات الخزينة الأجنبية، ووضع أموال النفط في مصارفهم، وشراء المعدّات الغالية الثمن، وكذا الأسلحة، ومنظومة الاتصالات والطيران وغيرها... ما يجعل هذه الدول مرتبطة بالشبكة الاقتصادية العالمية، تتأثر بتداعياتها ومتطلباتها!

وأمَّا الدعم العسكري فمبني على

التخويف من الدول المجاورة، لينشأ سباقٌ في التسلح، مشروطٌ بضرب الإرهاب بحسب مساحة التعريف الغربي الذي يشمل جميع المخالِفين لسياساتهم أو المعادين لإسرائيل، ومشروطاً أيضاً بحماية النظام التابع للقرار السياسي الأجنبي بقمع المخالفين وحماية المتواطئين!

علينا مواجهة كل أشكال الدعم المشروط والموجَّه، وأن لا يتحول الدعم إلى مسارٍ للتبعية. علينا أن ندقّق بالدعم المالي وأهدافه، وأن نلتفت إلى الشروط المطروحة، ونعمل للاكتفاء الذاتي الذي يوفّر علينا الكثير من المطبَّات. وأن لا نربط منظومتنا الاقتصادية بحاجات الآخرين، ما يتطلب دراسة مفصَّلة وإستراتيجية لما يلبيّ حاجاتنا في بلداننا على الأمد البعيد. وأن نعمل لنوجّه سلاحنا من أجل استقلالنا وحماية بلداننا ومواجهة أعدائنا، فمع سلامة الاتجاه تَقِل التكاليف، ويمكن استثمار ما نصرفه في هذا المجال في خدمة استقلالنا، وهذه تجربة المقاومة ماثلة أمامنا، فإنَّ الاستثمار العسكري فيها أقل بكثير من استثمار أي دولة من دول المنطقة، ومع ذلك فقد شكلت مِظَلّة حماية لاستقلال لبنان وحمايته من التوسع الإسرائيلي، ومصدر قوة تهيئ الفرص المناسبة لعدم الانسحاق أمام مشاريع أمريكا وإسرائيل، بل والصمود لما فيه قيام لبنان السيِّد والمستَقِر.

الإشغال في أن نكون في حالة دفاعية عن أنفسنا:

كي يتعطل البناء والتقدم في مختلف مناحي حياتنا، بحيث نكون في حالة دفاعية، دفاع ثقافي واجتماعي واقتصادي ولا نتحدث عن الدفاع العسكري فقط، بحيث أننا دائماً يجب أن نجيب عن اسْئلة، ودائماً يجب أن نَرُد على اتهامات، كي نبقى منصرفين للإجابة عن أسئلة الغرب ومطالبه!

لطالما قلنا في مواقفنا للمسؤولين اللبنانيين ولغيرهم: «إن جاءكم بعض الأجانب ليلتقوا معكم، اطلبوا منهم ما تريدون وما فيه مصلحة بلدكم، وتوقفوا عن أن تسمعوا دائماً ما يريدون»، نحن لا ننتظر إجاباتهم، ولكن اطرحوا أسئلتكم ومطالبكم، بدل أن تنتظروا مطالبتهم بحقوق الإنسان في لبنان. نسألهم: لماذا لا تطلق فرنسا سراح جورج عبد الله؟ لماذا تعتدي أمريكا في أفغانستان وتقتل الأطفال؟ لماذا تخرِّب وسائل إعلامهم بالأفلام الجنسية عقول الأطفال؟ لماذا تحمي بعض الدول في العالم تُجَّار المخدرات ليفسدوا، ثم تدَّعي أنها تمنع المخدرات؟ لماذا تدعم الدول الغربية «إسرائيل» في اعتداءاتها المتكرِّرة؟ ليس على المسؤولين عندنا أن يكونوا متلقِّين للمطالب الأجنبية، بل عليهم أن يُسمعونهم مطالبنا وأسئلتنا. نحن في لقاءاتنا كحزب الله مع هؤلاء المسؤولين نتصرَّف بهذه الطريقة نطالبهم بدل أن يطالبوننا، ومطالبنا أكثر من مطالبهم. هل الغرب يؤمن بالكلمة ويمنع قناة المنار من أن تبث في أمريكا وفرنسا وبعض الدول الأوروبية، وهي قناة واحدة مقابل آلاف القنوات الموجودة لديهم؟! لو لم يكن لها تأثير، ولو لم يكن لديهم خوف من أن تفضحهم لما منعوها، وهذه قوة لها.

سادس: دور القائد الإمام الخامنئي (حفظه الله ورعاه)

في مواجهة الحرب الناعمة تبيَّن أن القائد الخامنئي منذ سنة ٢٠٠٩م، بعد المشكلة التي أُثيرت بوجه الانتخابات الرئاسيَّة في إيران، وخلال سنتين، قد ألقى خمسة عشر خطاباً عن الحرب الناعمة، ولم أسمع مسؤولاً واحداً في كل العالم العربي والإسلامي يتحدَّث عن الحرب الناعمة، ولذلك، واعترافاً بالجميل والسَبْق وتسليط الضوء على هذا الأمر الخطير، رأيت

من المناسب أن ألخِّص بشكل مكثَّف بعض ما قاله الإمام الخامنئي (حفظه الله ورعاه) ضمن محورين:

المحور الأول: ضرورة التنبُّه للقوة الناعمة. والمحور الثاني كيفية مواجهة القوة الناعمة.

يقول القائد عن ضرورة التنبه للقوة الناعمة:

١- «الحرب الناعمة حربٌ حقيقيةٌ في عالمنا المعاصر، رغم أن بعض الأشخاص ربما لا يرَوْنَها».

٢- «إن أحد أهم المخطَّطات الرئيسة للأعداء تقوم على قلب حقائق البلاد».

٣- «الحرب الناعمة عبارة عن تضليل الشعب -الرأي العام- بشعارات ظاهرها حق ولكن محتواها باطل وفاسد وإثارة الغبار في الجو السياسي للبلد».

٤- «إنَّ الهدف المركزي للحرب الناعمة هو تحويل نقاط القوَّة والفُرَص إلى نقاط ضَعْف وتهديدات، وقلب حقائق البلاد».

إخترت هذه الإشارات الأربعة لتسليط الضوء على الحرب الناعمة من خلال أقوال الإمام الخامنئي (حفظه الله تعالى ورعاه).

أمَّا كيف تكون المواجهة؟ فسأختار بعض الأقوال من دون شرح لتبيان رؤية القائد (حفظه المولى) في المواجهة:

١- «ينبغي توعية وتثقيف الناس وكشف هذه الأهداف أمامهم».

٢- «يجب العمل بصورة عكسيَّة لأهداف العدو»

٣- «يجب مراعاة المصالح العليا في أخذ المواقف والتحركات والتدابير»، إذ يعْلَق الإنسان أحياناً في إطار المصالح الضيِّقة، فيهمل الكلِّيات، ويدخل في نفق الحرب الناعمة.

٤- «على الجميع وخاصَّة

الخواص، الانتباه كي لا تكون تصريحاتهم وإجراءاتهم تكملة لخطط وأهداف أعداء النظام».

٥- «ينبغي لوسائل الإعلام والنشطاء والسياسيين والمسؤولين الابتعاد عن الخلافات الهامشية غير المبدئية، لأن الأولوية في البلاد اليوم هي لمواجهة الحرب الناعمة التي يشنها العدو، والتي تستهدف بث الفرقة والتشاؤم بين أبناء الشعب، ومن أهم سُبل مواجهة هذا الهجوم هو حفظ وتقوية البصيرة والروح المعنوية والتعبويَّة والأمل في المستقبل، وهذا لا يعني إنكار وجود المشاكل والأزمات، ولا يلغي ضرورة القيام بواجب الإصلاح والمعالجة».

٦- «على النخب والخواص أن ينتبهوا كثيراً لأن صمتهم وانسحابهم في بعض الأحيان يساعد الفتنة». فـ: «الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس».

٧- «لا ينبغي الركون إلى وسائل الإعلام الأجنبية لفهم مجريات الأحداث، بل الصحيح هو مخالفة ما تأتي به هذه الإذاعات وفقاً لمقولة الإمام الخميني ﷺ «إنَّ قمة الرشد والنضوج الفكري هي في مخالفة الإذاعات الأجنبية المعادية». فـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

٨- «الشباب الجامعيون هم ضُبَّاط الحرب الناعمة أمام مؤامرات الغرب المعقَّدة». وهذه مسؤولية كبيرة على الشباب الجامعي.

وهنا لفتتني ملاحظة أوردها الإمام القائد في حديثه عمَّا حصل في سنة ٢٠٠٩ في إيران بعد الانتخابات الرئاسيَّة، قال: «لم تفاجئنا الفتنة ولكن فاجأنا تحرك بعض الأشخاص». كي لا يَظُن البعض أن الأمور لم تكن معروفة بالإجمال في إيران أو أنَّ الحرب الناعمة لم تُعرف إلاَّ في سنة ٢٠٠٩! لا، الحرب الناعمة موجودة

سابقاً، ولكنها تبلورت في صيغة معينة سنة ٢٠٠٩ في الانتخابات الرئاسية، وتصدى لها أشخاص لم يكن بالحسبان أنهم سيكونون من الأدوات التي تستخدمها الحرب الناعمة.

سابعاً: حزب الله والمواجهة

لأنَّ البحث جديد، ويحتاج إلى إضاءات، إخترت نموذجاً عن الحرب الناعمة: في مواجهة حزب الله.

هناك عنوانان رئيسان في الحرب الناعمة ضد حزب الله، وكل العناوين الأخرى تدخل تقريباً تحت هذين العنوانين، ويستطيع كل واحد أن يذكر مئات العناوين الأخرى، فَسيَجد أنها تندرج تحت هذين العنوانين. هذه الحرب الناعمة تخوضها أمريكا ومن معها ضدنا، وهي المتصدِّي الحقيقي لها، فإذا ما سمعتم بعض العبارات والمواقف التي يكرِّرها البعض هنا في لبنان، فإنَّهم يمثِّلون الصدى وليسوا هم أصحاب هذه الحرب، بل هم أعجز من أن يقودوا حرباً ناعمة.

العنوان الأول: حجة المواجهة ضد حزب الله، أنَّ فكره ومقاومته لا ينسجمان مع تطورات المجتمع الحديث والمعاصر، ويُصَنِّفون هذا الحزب بأنه إرهابي، متجاوزين تمثيله الشعبي، وقدرته على الامتداد والتحالف، والحضور السياسي والتأثير في البلد، وهدفهم الأساس: مواجهة الأساس الفكري والاتجاه المقاوم لحزب الله.

العنوان الثاني: حجة ضرورة حصريَّة السلاح بيد الدولة، فالدول هي التي تقتني وتحمل السلاح، لتحمي شعبها في الداخل والخارج، وهدفهم الأساس: ضرب معادلة لبنان القوي الذي يعيق الوصاية الأمريكية ويعيق الاستثمار الإسرائيلي، وذلك لإبقاء تفوق الكيان الغاصب في المنطقة ليحقِّق أهدافه.

هذان عنوانان كبيران للحرب

الناعمة على حزب الله. وهناك أدوات لها، لأن أي حرب ناعمة تحتاج إلى أساليب ووسائل، و من أدوات هذه الحرب الناعمة:

١- إثارة الفتنة المذهبيَّة بين الحِين والآخر.

٢- الإعلان بأنَّ قوة حزب الله تتعارض مع وجود الدولة، أو كما يقولون: هو دولة داخل دولة.

٣- الاعتراض على تحالفه مع إيران وسوريا.

٤- إبراز الأضرار المادية التي تَنْتج عن مقاومة العدو، وخسائر الناس في بيوتهم وأرزاقهم بسبب الحرب مع إسرائيل.

٥- الحِرصْ على موقع لبنان في المجتمع الدُّوَلي، وأنه لا يستطيع أن يعيش إلاَّ من ضمن هذه المنظومة، وعلى حزب الله أن ينسجم مع قرارات مجلس الأمن وطروحات الغرب وأمريكا.

٦- أخيراً وليس آخراً، المحكمة الخاصة بلبنان والتي يمكن أن تخدم لعشرات السنين، في محاولة لإثارة البلبلة والاتهامات والتحريض، ما يؤثر على علاقات اللبنانيين مع بعضهم.

هذه بعض أبواب الحرب الناعمة التي تُستخدم ضد حزب الله، الذي يواجه بوضوح وصلابة واطمئنان هذه الإدعاءات، من خلال أمور أبرزها:

١- رفض الفتنة المذهبية، نظرياً وعملياً، والعمل مع القوى السياسية المتنوعة مذهبياً على قاعدة الموقف وليس المذهب، وعدم الإنجرار إلى الخطابات والتحريض المذهبي ثقافياً وإعلامياً.

٢- ممارسة الدولة لصلاحياتها بشكل كامل في مناطق نفوذ الحزب، وليس الأمر تعففاً، بل هي قناعة جازمة بأنَّ المصلحة في الدولة المستقرة

التي تقوم بواجباتها تجاه المجتمع، كما تأخذ حقوقها منهم.

٣- تحالف الحزب مع إيران وسوريا مورد قوة وفخر واعتزاز، وهو مستمر بسبب تماهي التوجُّهات السياسية في مصلحة هذه القوى متحالفة مع بعضها، معتبراً أن التحالف فرصة وليس تهمة.

٤- أما المقاومة فهي التي حرَّرت الأرض ودافعت عنها، وأدَّت إلى لبنان القوي، فليقولوا لنا ما الذي قدَّموه من خلال لبنان الضعيف ومن دون مقاومة إلاَّ التبعيَّة والخسائر؟!

٥- وأما موقع لبنان في المجتمع الدُّولي، فهو حاضرٌ اليوم أكثر من أي وقت مضى ببركة المقاومة.

٦- وأما المحكمة الخاصة بلبنان فهي مسيَّسة نشأة واستمرارية، وتفتقر إلى أدنى معايير المهنيَّة القضائية، وتديرها أمريكا، وأملنا أن تفشل ولا تحقق أهدافها بإذن الله تعالى.

ثامناً: أُسُسْ المواجهة العامة

سنذكر أربعة أُسُسْ وقواعد لمواجهة الحرب الناعمة بشكل عام:

١- علينا أن نعرف أننا في حالة حرب دائمة، وهذه هي الحرب الناعمة، ما يتطلب العمل الدؤوب لمواجهتها لحظة بلحظة، لا أن نتوقَّف في مرحلة ونواجه في مرحلة أخرى.

٢- تحصل الحرب العسكرية عند اليأس من الحرب الناعمة أو الرغبة باستعجال النتائج، ولذلك كلما كانت لديهم آمال بالحرب الناعمة يُؤَخِّرون حربهم العسكرية في لبنان أو في غير لبنان. وفي بعض الأحيان قد تكون الحرب الناعمة بديلاً عن الحسم العسكري للعجز عن الاستمرار به. ففي الإحتمالين نحن أمام حرب ناعمة بسبب العجز عن تحقيق الأهداف بواسطة الحرب العسكرية، ولكن الحرب العسكرية تبقى احتمالاً موجوداً لدى الأعداء.

٣- يتركز التأثير في المواجهة على البعد التربوي الثقافي (القيم) من ناحية، وعلى التأثير السياسي من ناحية أخرى، وإنما يعوِّل الأجانب على التأثير السياسي للتغيير، لأنه يُحدث انقلابات ومتغيرات في الواقع المستهدف، وعلينا أن نهتم في المواجهة على الأمرين: البعد التربوي الثقافي، والبعد السياسي.

٤- يجب أن نجمع قوانا في مختلف المجالات ونستفيد من كل الطاقات، إذ لا يمكن أن تكون المواجهة مقتصرة على فريق من دون آخر، ولا على جماعة من دون أخرى، فكلنا بحاجة إلى بعضنا بعضاً في مواجهة الحرب الناعمة، وهذا ما يتطلب أن تتكاتف جهودنا، في كل المراحل، وفي مواجهة كل التحدِّيات، وباتجاه كل الأبعاد.

من المؤكد بأنَّ إرادةً حرة موجودة لدينا في مواجهة الحرب الناعمة تجعلنا منتصرين بإذن الله تعالى، لأنَّ التصميم هو البداية. هذه الحرب الناعمة مفتوحة على الأفكار والسلوك والمواقف السياسية، وهي في مواجهة النموذج القوي والجذاب الذي قدَّمه حزب الله في كل الجوانب.

مقدّمة

لم يكن مصطلح الحرب الناعمة مألوفا في الأذهان، على الأقل على المستوى الجماهيري في منطقتنا إلى أن جرى تداوله على نطاق واسع بعد الانتخابات الرئاسية الإيرانية (عام ٢٠٠٩) وخاصة من قبل الإمام الخامنئي دام ظله، وقد راجت سابقا مصطلحات كثيرة للدلالة على الاسلوب الذي تؤثر فيه دولة على فكر ورأي دولة أو شعب آخر معادٍ لها، نذكر منها: (حرب الأعصاب، الحرب الباردة، حرب الإرادات، حرب المعنويات، الحرب السياسية، الدعاية، حرب الكلمات والمعتقدات، حرب الإيديولوجيات، غسيل المخ

والدماغ، الحرب بلا قتال، الغزو الثقافي والفكري) ولكن يبقى ان مصطلح الحرب الناعمة هو الذي اصبح يحمل دلالة واقعية وحقيقية على الاستراتيجيات التي تحملها بعض الدول والمجموعات لتشويه الفكر الاسلامي وللقضاء عليه.

ولا بد في مقدمة هذا الكتاب من التنويه بفضل سماحة الإمام الخامنئي دام ظله في تسليط الضوء على هذه المقولة، حيث يعد من أكثر الشخصيات الإسلامية والعالمية استخداماً لمصطلح «الحرب الناعمة» خلال الأعوام الخمسة الأخيرة (٢٠٠٩ - ٢٠١٤) مؤكداً أصل وقوعها واستمراريتها، ومبيناً سماتها وخصائصها وأدواتها، ومحذراً من الوقوع في شراكها، ومنبهاً من أفخاخها، ودالاً وهادياً على سبل مواجهتها ومقاومتها، بما لا يقل عن عشرين خطاباً على الأقل في عشرين مناسبة، منذ الانتخابات الرئاسية التي جرت في ١٢ حزيران عام ٢٠٠٩ مروراً بخطابه في مقر وزارة الاستخبارات الإيرانية عام ٢٠١١، وصولاً الى لقائه شباب التعبئة والعاملين في مشروع الصالحين نهاية عام ٢٠١٢ ومؤخراً خلال القائه خطاباً في ملتقى الجهاد الأكبر الذي انعقد في مدينة مشهد في الثاني عشر من شهر شباط لعام ٢٠١٤، ما دل على محورية الموضوع في خطابات الإمام القائد دام ظله. وسبق لسماحة السيد القائد أن كان من أكثر من استخدموا مصطلح الغزو الثقافي خلال المرحلة الماضية تبعاً لمعطيات تلك الآونة (١٩٩١ - ٢٠٠٩).

وفي سياق خطاباته حدد وشخّص سماحته «الحرب الناعمة» كمصدر تهديد رئيسي للنظام الإسلامي في إيران، وللصحوة الإسلامية ومحور المقاومة في المنطقة، معتبراً أن هذه الحرب أصبحت الأمل الأخير للأعداء لمواجهة نمو وتقدم النظام

الإسلامي في إيران والصحوة الإسلامية والمقاومة في المنطقة، ومؤكداً بعبارة ذهبية «أن هذه الحرب ستستمر حتى يصل العدو الى اليأس ويصل مستوى أمله بالفوز إلى درجة قريبة من الصفر».

واليوم أصبحت الحرب الناعمة الخيار المفضل للولايات المتحدة والحلف الأطلسي وبعض النخبة الصهيونية، لأنه لم يعد بالمقدور شن الحروب العسكرية بعد سلسلة من الهزائم والتراجعات الجيوسياسية والعسكرية على امتداد الشرق الأوسط من أفغانستان وصولاً إلى لبنان، ومما نجم عنها من إفلاس مالي وتأزم إقتصادي، مقابل صعود الصين وروسيا ومحور المقاومة وعلى رأسه إيران، سيما أن خيار الحرب الناعمة في ميزان الحسابات أقل كلفة وأكثر فعالية من الحروب العسكرية.

الشيخ الدكتور على ابراهيم
باحث واكاديمي من جامعة المستنصرية. العراق

البعد العلمي في نشأة الحضارة الاسلامية في منهج الامام الخميني

تمهيد

القضية الأساس التي تواجه الإنسان منذ فجر التاريخ هي محاولته الدائبة لسبر أغوار نفسه، وعلاقته بالوجود لناحية دوره وغايته فضلاً عن علاقته بمحيطه الاجتماعي.

هذه المحاولات لم تكن سوى وليدة الدافع المعرفي الذي استودعه الباري في طبيعة الإنسان خلافاً لغيره من المخلوقات التي كرمه ورفعه فوقها من خلال العقل، والذي من خلاله استحق الإنسان أن يكون خليفة لله في الأرض. ولم يترك الله الإنسان وحده في معركة الاستخلاف وإثبات جدارته في هذا الوجود، فرفده بالأنبياء والرسالات السماوية لإقامة الحضارة البشرية على أساس التوحيد والعدل وإرساء القيم

الإنسانية السامية.

غير أن تاريخ البشرية، رغم ذاك، لم يكن ليسير سيراً مطرداً باتجاه تحقيق العدالة الإنسانية والارتقاء نحو المطلق المتعالي. ففي عالم الاعتقاد كان الكفر، وكان الشرك كما كان التوحيد. بنى الإنسان لنفسه عالماً من الأفكار والفلسفات المتناقضة التي تعكس نظرته لوجوده ولغايته في الوجود، وقامت حضارات واندثرت أخرى لنشهد أكبر حضارة في تاريخنا البشري هي الحضارة المادية بوسائلها وقيمها التي تطرح نفسها بوصفها حضارة عالمية شاملة.

لقد كانت تلك الحضارات بمثابة معركة العقل إزاء التحدي الذي تطرحه العلاقة مع الطبيعة ومحاولة الإنسان لتلبية حاجاته المادية. لقد حاول تلبيتها من خلال الوسائل التي راح يكتشفها بإعمال العقل ومن خلال معرفته بقوانين الطبيعة التي انتهى في صراعه معها إلى تطويعها والسيطرة عليها. فمن عصر الصيد بوسائله البدائية إلى عصر اكتشاف الزراعة وتدجين المواشي مروراً بخوضه أعماق البحار وسبر أغوار المحيطات وصولاً إلى عنان السماء.[1]

وفي مجال ترتيب العلاقات الاجتماعية كانت النظم الاجتماعية والسياسية التي استندت إلى منظومات من القيم حيث اختلفت وتنوعت عبر مراحل طويلة من التطور البشري والتي تشهد من خلالها محاولة إرساء العدالة ومنع الظلم والتجاوز فكانت رؤى الفلاسفة والمفكرين الذين كانت لهم إسهامات كبيرة في رفد الحضارات البشرية بأفكار تعينها على إرساء نظمها، كتلك التي كانت في بلاد ما بين النهرين مع الحضارة السومرية والبابلية في الألفية الثانية قبل الميلاد، ومن ثم الحضارات الأخرى الفارسية والهندية والفرعونية، فاليونانية

والرومانية والإسلامية، وصولاً إلى العصر الحديث. رغم ذاك حفل تاريخ البشرية بالكثير من الحروب والمجازر والتنكيل، ولم تستقرّ المسيرة الطويلة لحياة البشر على منوال واحد، بل تراوحت بين العزلة، والاحتكاك، بين العنف والتلاقح الثقافي، والاندماج الجغرافي والديمغرافي. وارتبطت هذه العلاقات برؤى ومواقف متباينة من الاحتلال والاستعمار، بين الرفض والتأييد والذي يجد تعبيراته ومتعيناته بشكل خاص عبر الاحتكاك بين الحضارة الإسلامية وحضارة الغرب، التي ما زالت تطرح السؤال على المسلمين حول أفق هذه العلاقة وحدودها، كما تطرح السؤال أيضاً على شعوب العالم الثالث في ميدان سيرها في ركاب التطور، وفي موضوع صلتها بالحضارة على المستوى الوطني والقومي والإنساني، وصلتها بتاريخها وتراثها وطبيعة قيمها وأساليبها ومناهجها ورؤاها في مجالات العقيدة والتشريع والثقافة وكل أساليب العيش.

وبطبيعة الحال لم تطرح هذه المواقف والتساؤلات خصوصاً في عصرنا الراهن لولا وجود حضارات بإزاء بعضها بعضاً مع وجود تبيانات في درجة الارتقاء الحضاري الذي يستند إلى معايير تختلف باختلاف المنطلقات والرؤى حول هذه المعايير. ومع ذلك فإن انفتاح العالم الناتج عن مسيرة التطور البشري، تبقي هذه التساؤلات ماثلة خصوصاً في مجال حدود العلاقة ومجالات الانفتاح، والإسهامات الحضارية الخاصة وغاياتها المنشودة.

ففي العالم الإسلامي ومنذ لحظة الاصطدام بالاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر تراوحت المواقف بين اتجاهات ثلاثة، اتجاه منفتح بشكل مطلق على الغرب يدعو إلى تعميم ثقافة الغرب واستلهام تجربته كما هي،

واتجاه آخر يتراوح بين التراث والحداثة أي بين ما هو موجود وأصيل وتوليفه مع الوافد، واتجاه ثالث يدعو للانفتاح على التراث ومحاولة التطوير من الداخل دون الحاجة إلى الغرب.

وأما الخيط الذي يوصل بين هذه المواقف فهو الإحساس بالعجز الحضاري مقابل الغرب بغض النظر عن كيفية اللحاق بركب التطور.

ومع الإحساس بهذا العجز، يطرح التساؤل في مكان آخر. لماذا كان هذا الإخفاق الحضاري؟ وقد كانت الإجابات كثيرة ومتنوعة، غير أننا وفي مجال التركيز حول أهمية العلم في مسيرة التطور البشري، لا بد لنا من محاولة تبيين نظرة الإسلام للعلم والعقل وكيفية التعامل مع المعرفة انطلاقاً من النصوص وصولاً إلى التجربة التاريخية مقارنة مع الحاضر للوقوف فيما بعد على رؤية الإمام الخميني في مجال التحديات التي تواجه الثورة الإسلامية باعتبارها ثورة تطرح نفسها في إطار التحديات الرؤيوية للحضارة الإنسانية، من خلال المزج العضوي بين الدين والعلم لعلاج مشكلة الإنسان في عصرنا الراهن، ولمعالجة تحديات التطور.

١- أهمية العلم في الإسلام

تبييناً لأهمية التعليم في الإسلام يكفي الإشارة إلى أن أول آية نزلت على النبي محمد ﷺ هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٢] ومن ثم ما ورد من آيات كثيرة تحث على إعمال العقل وطلب المعرفة والعلم لأنه بالعلم وحده يُعرف الله ويوحَّد ليصل الإنسان إلى تحقيق دوره في الاستخلاف. وقد اقترن هذا الإلحاح بكون العلم يشكل المدخل الأول للتعرف إلى الباري سبحانه وتعالى إلى حد إرجاع الخشية من الله إلى العلماء.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾.[٣] وفرق بين من يعلمون وبين من لا يعلمون ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[٤] ولأهمية ما ورد في القرآن الكريم حول أهمية العلم حث الرسول الأكرم ﷺ المسلمين على الاهتمام بهذا الأمر وجعله واجباً وفريضة «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» اطلب العلم من المهد إلى الله

بهذه الدعوة في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية المأثورة والتي باتت معروفة لدى عموم المسلمين، نتبين الدعوة إلى الثورة الثقافية التي أولاها الإسلام حيزاً كبيراً من الاهتمام وجعل الانشداد إليها محل تقدير إلى الحد الذي جعلها قرينة للعبادة بحد ذاتها.

وبطبيعة الحال، ولأن الإسلام خاتم الديانات، وأنه نزل للناس كافة ولم يقرن بعصر نزوله فحسب وإنما جعل ليكون هداية وشرعة للبشرية على امتداد الأزمنة، نجد أن تلك الدعوة تشكل ضرورة لإحداث التغيير النوعي في المجتمع الجاهلي الذي كان يحفل بالأساطير وبالجهل والانشداد إلى تقليد الآباء والأجداد وقصور النظام الاجتماعي عن التطور ورزوحه تحت وطأة العادات القبلية والعصبية والجاهلية. كان ذلك مدخلاً ضرورياً لإحداث هذا التغيير، غير أن عالمية الإنسان وإفصاح القرآن الكريم عن فلسفة الخلق وغاية الإنسان في الوجود ما يؤكدان على أن دعوة القرآن الكريم إلى المعرفة غير مقرونة بالزمان أو المكان وهي دعوة يراد لها بناء النموذج الحضاري الإسلامي ليكون عاماً بين الناس، وليكون أساساً في مسيرة البشرية في ارتقائها نحو الله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه﴾[٥] ليُسأل الإنسان حينذاك

عما قدمه لنفسه وما قدمته الأمة في معتركها الإنساني.

وبوصف الإنسان بالمعنى العام خليفة لله في أرضه، تزود بقدرة العقل وأُمر بإعمار الأرض على أساس التقوى وإقامة العدل وأُنزلت له الرسالات السماوية مع الأنبياء لإعانته على أداء هذا الدور المنشود، في الإعمار والإبداع والوصول إلى أقصى ملكاته كممكنات مفتوحة على الارتقاء والصعود في مسيرة التكامل البشري.

إذن المرتكز الأساس للدعوة الإسلامية العامة، أنها تقوم على الإيمان بالعقل والاستناد إليه في تثبيت عقيدة الإيمان بالله والانطلاق نحو بناء الحضارة الإنسانية. فأول ما نزل به القرآن الكريم كان الدعوة إلى القراءة والعلم، والدعوة إلى معرفة الله من خلال النظر بحقائق الوجود وتبيان ما فيه من إبداع ومن سنن وقوانين. وبطبيعة الحال، هي دعوة عامة مفتوحة على التعرف الدائم إلى حقيقة الكون، وهي أكبر وأعمق من أن يحدها جيل من البشر في مرحلة تاريخية واحدة لما فيها من أسرار تعيَّن على الإنسان إدراكها من خلال منهج الملاحظة وإعمال العقل بالنظر أولاً إلى حقيقة خلق الإنسان بحد ذاته ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ﴾[٦] وما يحيط به من وجود ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾[٧] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ... ﴾[٨] والدعوة إلى النظر بأحوال الأمم والاستفادة من التجارب والوقوف على فلسفة تاريخ قيام هذه الأمم واندثارها ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٩] ومن ثم تحكيم العقل والركون إليه فضلاً عن كونه معياراً للمفاضلة بين الناس ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾[١٠].

وعلى هذا الأساس انطلق العالم الإسلامي باحثاً عن أحوال النجوم والفلك والرياضيات والهندسة والطبيعيات، والنظر بفلسفة الوجود وسلك مناهج التأمل والتفكير والملاحظة عاملاً على التطوير المطّرد لهذه العلوم[١١]

لقد إقتبس المسلمون بعضاً من هذه العلوم ثم أضافوا اكتشافاتهم ومناهجهم بحيث يغدو مستحيلاً درس تاريخ العلم بمعزل عن مساهمات المسلمين النوعية والمتعددة، فقد ترجم محمد بن إبراهيم الفرازي كتاب «برهمبكت» المشهور: «السد هانتا أو سند هند» الذي أهداه الفلكي الهندي «كانكا» إلى الخليفة المنصور وهو الكتاب الذي يتضمن أهم ما احتواه تراث الهنود في الفلك والرياضيات. [١٢]

وترجم إسحق بن حنين كتاب «الأصول والأركان» لاقليدس وهو خلاصة الهندسة اليونانية. كما ترجم إسحق نفسه كتاب «المجسطي» الذي يحوي أهم ما توصل إليه «بطليموس» في الفلك والرياضيات.

وبذلك يكون المسلمون قد أخذوا عن الهنود الأعداد والنظام العشري وعن الإغريق حساب «فيتوغوراس» وهندسة أقليدس وفلك بطليموس. ومن ثم أعادوا كتابة الحضارة اليونانية كلها باللغة العربية، فترجموا كتب أفلاطون وأرسطو وتلامذتها في الفلسفة، كما ترجموا كتب أبقراط الطبية وجميع ما كتبه جالينوس في الطب وكتب أخرى ذكرها ابن النديم وخاصة في صناعة العقاقير وطرق الاستشفاء، ونقلوا عن حضارة الفرس الأدب والشعر والتاريخ والسياسة والإدارة وعلم النجوم[١٣].

في حين دخلت الحضارة الهندية بعلومها وأخلاقها وكانت حضارة الفرس دخلت الإسلام عن طريقين الترجمة والإيمان بعدما أعطوا لحضارتهم

انتماءً جديداً. أما علماء الهنود أنفسهم فمنهم من بقي هندوسياً ومنهم من اختار الإسلام دينا

إن اقتباس المسلمين عن غيرهم قد يطرح إشكالية حول أصالة الحضارة الإسلامية كما دأب بعض المستشرقين على القول معتبرين الحضارة الإسلامية قد تأسست على معطى خارجي.

غير أن الإسلام عندما أخذ عن هذه الحضارات عمل على استيعابها بروحية الإسلام التوحيدية فضلاً عن تكييفها مع الشريعة. صحيح أن المسلمين استفادوا من تجارب الآخرين ولكنهم أعطوا للآخرين ما أبدعوه في مجالات كثيرة وقد برز ذلك في شواهد كثيرة فعلى سبيل المثال:

أبو بكر الرازي كان كتاباه رسالة في الجدري والحاوي... مرجعاً لدراسة الطب في الغرب لعدة قرون. وقد برع في خياطة الجروح، إذ كان أول من استعمل أمعاء الحيوان في التقطيب، وكان أول من عالج أمراض الجدري والحصبة.

من جهته ظل كتاب «القانون» لابن سينا متربعاً على عرش المعرفة الطبية في العالم حتى القرن السابع عشر، إذ احتوى على ٧٦٠ عقاراً للمعالجة. وكان ابن الهيثم قد أثبت بطلان نظرية «بطليموس» حول الانعكاس الضوئي عندما اعتبر الرؤية نتيجة لانعكاس الضوء الخارجي في العين بدل العكس، بالرغم من أن الغرب ينسب نظريات ابن الهيثم في القرن العاشر الميلادي حول انعكاس وانكسار الضوء إلى نيوتن في القرن السابع عشر كما نسب إلى «وليم هارفي» اكتشاف الدورة الدموية الصغرى التي توصل إليها «ابن النفيس» الذي كان أول من تحدث عن تنقية الدم في الرئتين وانتقد نظرية «جالينوس» المتعلقة بمجرى الدم الوريدي من البطين الأيمن

والبطين الأيسر.

لم يقتصر الأمر على المعارف الطبية وإنما تعداه إلى حقول معرفية متنوعة فقانون الجاذبية عرف تطوراً ملحوظاً على يد «الخازن» الذي كان أول من تحدث عن جذب الأجسام إلى الأرض وحدد قوانين الجاذبية انطلاقاً من سرعة تساقط الأجسام وأوزانها قبل نيوتن بعدّة قرون.

وهو الذي اكتشف الضغط الجوي قبل «تورشيلي». وكان البيروني وابن سينا قد اكتشفا أن الضوء أكبر من سرعة الصوت ومثله في الرياضيات والهندسة حيث ظل جبر الخوازمي طاغياً على كل ما سبقه، إضافة إلى اكتشاف العدد «الصفر» والكسور العشرية، والمتواليات الحسابية والهندسية، وحسابات التكامل والتفاضل، واللوغاريتم، والمضلعات وتصنيف المساحات والأحجام. كذلك كان المسلمون قد صنعوا الروافع والطواحين، ومضخات المياه، والموازين وأنابيب السوائل والساعات المائية والشمسية ورقاص الساعة، والدمى والفوانيس الزيتية، وأبدعوا في صناعة المراصد والآلات الفلكية والأسطرلاب إضافة إلى معرفة متنامية بمواقع الكواكب والنجوم[١٤]، والكثير من الإبداعات التي لا يعتري الشك الباحثين في نسبتها إليهم، رغم المنطق الإنكاري لدعاة تمايز الحضارة الأوروبية.

٢- الارتباط بين العلم والإيمان

لتفسير معالم الارتباط بين العلم والإيمان ومن ثم الوقوف على رأي الإمام الخميني يقتضي الأمر أولاً عقد مزاوجة بين العمل والعلم باعتبار أن العلم هو مختصات العقل. علماً أن كلمة عقل لم ترد في القرآن، بل وردت كلمة القلب كدلالة على تلك العلاقة التي أسسها الإسلام بين العقل والإيمان.

القلب كما ورد في القرآن الكريم هو عقل يتدبر به المسلم أمور دينه ودنياه. «من كان له قلب» هو بحسب المفسرين من كان له عقل و «أولي الألباب» يعني أولي العقول. والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب. وحسب تفسير العلامة الطباطبائي المراد به في القرآن هو الشعور والفكر. والقلوب الواردة في القرآن مرادفة للعقول وإليها تعود مهمة التعقل والتفقه بحسب الآية ١٧٩ من سورة الأعراف ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾.

والقرآن الكريم كان قد حدد غايات العقل بتوجيهه نحو معرفة علمية بالكون والطبيعة والإنسان من خلال التبصر والنظر. وإنما حث أيضاً البشر على تشغيل العقل في معرض تنظيم شؤون دنياهم على قاعدة الالتزام بما جاء به الوحي من هداية والتمييز بين الخبيث والطيب من خلال ما جاء به النبي من تشريعات.

العقل بحسب القرآن الكريم يمثل جزءاً لا يتجزأ من الكائن البشري وبالتالي يمثل المساواة الإلهية في تكوين المخلوق. فهو واحد لدي الأفراد ولكن يختلف عقل فرد عن آخر في خاصية التفكير في حكمة الخلق من ناحية، وفي كيفية السلوك الدنيوي المجتمعي من ناحية ثانية. فإذا حقق العقل قدرته عمل الاستدلال والربط بين الظواهر الطبيعية من خلال ما تراه الحواس ظاهراً وبسيطاً ومرتبطاً بها يصل إلى معرفة الخالق فيتدعم الإيمان بالتدبير الإلهي، وكذلك إذا تعقل الإنسان الأوامر والنواهي، يضع في سياق واحد العقل والإيمان، وهو يضع تجربته في الحياة، بحيث يصبح قادراً على تنظيم الاجتماع البشري تنظيماً عقلياً يأخذ من الإيمان تفريقه بين الحق والباطل، والخير والشر، ويقيم معرفة مؤمنة ترشد العمل وتحدد غاياته، وينتهي العقل هكذا إلى تأسيس مسؤولية مزودجة، مسؤولية

الإنسان تجاه الله، ومسؤوليته تجاه نفسه والمجتمع والطبيعة. (١٥)

أما حول نظرة الإنسان نفسه للعقل كعقل مستقل عن الإيمان الديني، فنجده في مسار تاريخي طويل يمتد إلى عهد اليونان حين كان هناك علماء يعتبرون أن الإنسان مقياس كل شيء، وكانوا يرون هذا في مجال الفلسفة والعلم وأن معيار الواقعية والحقيقة هو الإنسان وما يراه. فإن رأى هذا الشيء حق، فهو حقاً وإن رآه باطلاً فهو باطل. الإنسان معيار الحقيقة وليس العكس فلو كنا نقول إن الله موجود فبما أن الإنسان يراه كذلك فهو حقيقة، وإن قيل غير موجود، فإن الله معدوم وهكذا.

في القرون الوسطى - مع سيطرة الكنيسة طوال هذه العصور - خضع العقل لسلطة تفسير النص الديني. ومع عصر الحداثة كان الغرب قد أعطى في صراعه مع الكنيسة للعقل سلطة عليا بمعزل عن أي ارتباط بالنص الديني التأويلي. ولكن سيتكرر مع الغرب هذا الإنسان كمقياس للحقيقة، وسيتوحد الإنسان مع الطبيعة وفق مبدأ الواحدية المادية في عالم مادي لا يشير إلى شيء خارجه هو عالم تم إلغاء الثنائيات داخله، ثنائية الإنسان والطبيعة، وثنائية الخالق والمخلوق. وفي مثل هذا العالم المادي لا يوجد شيء للوهم القائل إن الإنسان والطبيعة يحويان من الأسرار ما لا يمكن الوصول إليه، وإن فيه جوانب غير خاضعة للقوانين المادية. كما يمكن إخضاع كل شيء للمقاربة التجريبية ويصبح العالم الطبيعي المصدر الوحيد للمنظومات المعرفية والأخلاقية ويظهر العلم المنفصل عن الأخلاق وعن الغائيات الإنسانية والدينية. وقد أحرز هذا النموذج المادي التفسير شيوعاً غير مسبوق وشاعت معه قدرة العلم على تفسير كل ما يحيط بالإنسان وقدرته على حل

مشاكله بمعزل عن أي مطلقات.

حتى القرن السابع عشر أي قبل بروز ما يسمى عصر الأنوار، كان الإنسان الغربي يفكر انطلاقاً من الله. لقد كان أولاً هناك الخالق، الكائن المطلق اللامتناهي. وبالعلاقة معه، كان الكائن البشري يعرف نفسه كنقص متناه مقابل الكامل اللامتناهي. وكان الله يأتي منطقياً، أخلاقياً وميتافيزيقياً قبل الإنسان. كان لا يزال يتوافق مع التأسيس الديني للأخلاق. في عصر الأنوار شهدنا العودة إلى تأكيد الكائن البشري في كل ميادين الثقافة، إلى حد أن الله بدأ يظهر كفكرة عند الإنسان. برزت فكرة احترام الإنسان للآخر من المنظور القيمي المادي، إذ لا حاجة للدين لكي نكون نزهاء مستقيمين، ولا حاجة بنا إطلاقاً للإيمان بوجود إله للقيام بالواجب الأخلاقي، ولم يعد الإيمان بوجود الله يحكم الفضاء السياسي في عالم علماني اختفى فيه الله كلياً وأصبح شأناً شخصياً ينتمي إلى الحياة الخاصة، فيما فرض على المجال العمومي أن يتخذ بهذا الصدد موقفاً خاصا. (١٦)

وبهذا المعنى شكلت المادة عصب النهضة، وأرخت بكل أثقالها على نهضة المعرفة وتربعت العقلانية على قمة النظام الفكري حيث لم يعد العقل مقموعاً من الكنيسة، ولم يعد الاهتمام موجوداً حول جدوى الإيمان بألوهية تنتظم وفق مبادئها حركة البشر والعالم، فقد افترض العلم أن الواقع هو ما يثبته العلم وحده وانتهى الأمر إلى انكسار العلاقة بين العقل والإيمان لصالح الأول، بحيث بات العقل تعبيراً عن سيادة المادة التي أنتجت مفهوماً للدولة بدون حاجة إلى مرجعية دينية، وأسس لتوازن مجتمعي وفق مبادئ السوق والثروة والملكية والمصلحة الشخصية والتقدم المجتمعي، دون انتظار تعويض ما في مملكة السماء.

وهكذا لعبت أصولية المادة دوراً حاسماً في سيادة المطلق الرأسمالي وحلت مطلقات العقل التي باتت توظف في كل شيء. في القدرة على معرفة قوانين الوجود، في التقدم، وفي وسائل قيام نظم اجتماعية تعكس الرفاهية والسلام بدون ضوابط إنسانية أو محرمات دينية.

لكن السحر سرعان ما انقلب على الساحر وسرعان ما وقع العلم في المصيدة التي أعدّها بنفسه، فلقد تحول العلم إلى نقيضه أي صار غير علمي حين دخل في دوامة النسبية. فبالنظر إلى التحولات التي طرأت في ميدان الفيزياء، وأهمها ظهور نظرية النسبية وبطلان مبدأ الحتمية، أصبح من الممكن إعادة النظر في صدق النظريات العلمية ومناهج العلوم الطبيعية. كما أنه أصبح من المشكوك فيه إمكانية تفسير الوجود بالانطلاق من العلم وحده. ولقد لعب الفلاسفة الفرنسيون والألمان على وجه الخصوص دوراً هاماً في عملية نقد العلم هذا، ودحض النظريات العلمية وتجريدها مما نسب إليها من قيم مطلقة وروجوا المذهب في النسبية داخل العلم، ومن بين هؤلاء كان كارل بوبر، وتوماس كون وباولفاير. وبنظر هذا الأخير كان العلماء وفلاسفة العلم قبل ذاك، يدافعون عن العلم برغبة جامحة لفرض سيطرتهم على العقول. كان العلم بنظر هؤلاء وحده هو الصحيح، وقد استطاع أن يحقق نتائج باهرة أو يتفوق على غيره، لأنه كان بمنأى عن النقد نتيجة ارتباطه بمراكز القرار التي تستعمله لأغراضها الخاصة.

لا يشذ موقف الإمام الخميني ﷺ عما انتهى إليه الذين نظروا إلى العلم بعين الشك والريبة، بل إنه مضى حتى أقصى الممكنات التي تصل العلم بالإنسان في فهم الطبيعة لينتهي به إلى عالم مجهول هو عالم ما وراء الطبيعة حيث لا تستطيع العقول مهما بلغت

من قدرة على التفسير الإحاطة بهذا العالم. إن هذا القصور هو عند الإمام الخميني ﷺ بمثابة أحد معالم الارتباط بين الإيمان بالعلم من جهة، وعدم تجرد العقل عن الإيمان الديني. فلو جمعت كل طاقات البشرِ ووضعت فوق بعضها بعضاً لتمكنت من فهم خاصية الطبيعة فقط، علماً أن خصائص الطبيعة لم يكتشفها البشر بأجمعها ولكن الإمام الخميني ﷺ كان أكثر تفاؤلاً في هذا المجال من علماء النسبية أنفسهم حيث يرى أن ما يجهله العلماء حول الطبيعة يمكن أن يكتشف فيما بعد، ولكن مهما يكن من أمر، فإنه لن يخرج عن إطار الطبيعة، لأن الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يدركه يدخل ضمن حدود إدراكه الطبيعي. فلو تمكن من فهم كل خصوصيات عالم الطبيعة وكل ما يرتبط بكمالها، ولو حاول الإنسان حتى النهاية وبذل جهده، فإنه يتمكن من معرفة تلك العلاقات التي بين الأشياء في الطبيعة، والعلة والمعلول، والسبب والمسبب، فلو اكتشف الزلزلة وعلاقتها بالأرض، ومتى تحدث وما هو نوعها وقوتها واكتشف كل ما تبقى من علاقات ولم يبق مجهول أمامه، فإنه سيبقى ضمن إطار الطبيعة ولا يمكنه أن يتحرك خارج حدودها وفوقها ويدرك ما وراءها. ومن هذا الاستدلال يربط الإمام الخميني ﷺ بين الإيمان بقدرات العلم المحدودة، والإيمان الديني أو الإيمان بالوحي، لأن عالم ما وراء الطبيعة بحاجة إلى معانٍ أخرى في العمل، تقوم على أساس الاعتقاد بما جاء به الأنبياء الذين بعثوا لتربية الجانب الآخر من الإنسان٢١.

تتضح منهجية الإمام الخميني ﷺ في الربط بين العلم والإيمان من خلال مسيرة العلم نفسه سواء في المراحل التي أعلن فيها الإنسان الغربي عن تقديسه للعقل وللإنسان نفسه من خلال هذا العقل، والذي انتهى إلى

المزيد من التوجه نحو مركزية الإنسان في الكون. فبمجرد أن بدأ العلم يفقد جدارته، اتجهت الأنظار إلى التوابع السلبية الممكنة للعلم على الوجود الإنساني، وبدأنا نسمع منذ نهايات ثمانينات القرن العشرين، خطاباً أخلاقياً يعلن نفسه في العلم ويتعلق بحفظ البشر من الأضرار المحتملة الصادرة عن العلم نفسه، فظهرت اللجان الأخلاقية، المكلفة بتقييم نتائج وعواقب التقدم العلمي. أما في الفلسفة التي كانت قد بشرت بمجيء الإنسان الأعلى، والتي شرطت التخلص من فكرة الإله التي تقف عقبة في سبيل حرية الإنسان وقوته الإبداعية فسرعان ما فشلت في محاولاتها، إذ عرف الفكر الفلسفي المعاصر ابتداءً من الستينات تيارات فلسفية جديدة راحت تردد بأصوات عالية إن الإنسان كما تصورناه، وكما أحببناه فينا وفي غيرنا، ودافعنا عنه وعن قضاياه، لم يعد له وجود أو هو على وشك الاختفاء والموت، لأنه لم يعد بالإمكان الدفاع عن تصورات مثالية للإنسان أو التبشير بها، إذ يكفي استحضار ما وقع بين الحربين العالميتين الماضيتين، أو في راوندا، أو في البوسنة، أو في العراق ليبرز لنا أنه بدل أن يحل الإنساني محل الإلهي حل محله الشيطاني، وأننا ما زلنا على حد تعبير لوك فيري بعيدين عن القضاء على الشيطان لأن الفلاسفة بدل أن يشغلوا بالقضاء على الشيطان انشغلوا بالقضاء على الله بعدما كان لآلاف السنين يلهم كل مجالات الثقافة البشرية من الفلسفة إلى الفن إلى الأخلاق٢٢.

لم يكن ذلك ليحدث في مسارات العلم والفلسفة لولا الارتكاز على الفصل بين قدرة العقل الإنساني على حل كل الألغاز المحيطة بعالم الإنسان وقدرة العقل على الارتقاء وحيداً، ولكنه ما زال يحصد الإخفاق تلو الإخفاق طالما لم يحضر البعد الإيماني

ولم يكن رديفاً للعقل.

كان الإمام الخميني ﷺ على غرار سائر الفلاسفة والعلماء يؤمن بقدرة العلم وبقدرة العقل، ولكنه لم يكن على الإطلاق ليجعل منه عقلاً مجرداً بل مسنوداً إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها. هذه الفطرة هي التي تقود الإنسان نحو الله فاطر السماوات والأرض، فطرة المعرفة التي تقود الإنسان نحو الكمال المطلق وأصل حقيقة الوجود وإلى العلة التامة.

يستند الإمام الخميني ﷺ إلى ما ورد من آيات في القرآن الكريم ليربط بين العلم وضرورة الإيمان ليس فقط من أجل ربط عالم الشهادة بعالم الغيب، وإنما من أجل تفسير أسباب ارتكابات الإنسان للظلم جراء عدم تربية النفس وعدم الإقرار بتعاليم الأنبياء، فالآية الأولى في القرآن الكريم هي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فدُعيَ الرسول الأكرم منذ البداية للقراءة، وجاء في نفس هذه السورة ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[١٧].

يرى الإمام الخميني ﷺ أن تحول الإنسان إلى طاغوت هو من أخطر الأمور، وللتخلص من هذه الحالة، لا بد من تعليم الكتاب والحكمة، لأن الإنسان بنظر الإمام يطغى بمجرد أن يستغني. الاستغناء المالي يجره إلى الطغيان بقدر هذا الاستغناء، ويطغى الإنسان عندما يستغني علمياً، وعندما يحصل على مقام بمقدار ذلك المقام، بل إن سائر الأمور الدنيوية تجره إلى الطغيان فيما لو لم يزكِّ نفسه.

وإن جذور جميع الاختلافات بين البشر وبين السلاطين وبين أصحاب النفوذ تعود إلى الطغيان الموجود في النفوس، وغاية البعثة تزكية الناس حتى يتعلموا ولو تزكوا لما حصلت كل الاختلافات بين البشر.

وعلى هذا الأساس فإن حصر الإنسان بالبعد المادي وحده، والإيمان بحريته وإمكاناته على حل مشاكله

الخاصة ومشاكل وجوده الاجتماعي، يبقى قاصراً عن بلوغ المراد. يشير الإمام الخميني ﷺ إلى نتائج تفرّد الإنسان بالعقل العلمي وحده بالقول «هؤلاء الذين يدّعون أنهم عرفوا العالم، فقد عرفوا جانباً متدنياً من العالم، واكتفوا بذلك، وأولئك الذين يقولون بأنهم عرفوا الإنسان، فإنهم عرفوا شبحاً من هذا الإنسان، وليس الإنسان نفسه، لقد عرفوا شبحاً من حيوانية الإنسان، وظنوا أن هذا هو الإنسان».

وبهذا المعنى، نجد أن الإمام الخميني ﷺ يشدد من خلال ربط العقل بالإيمان على تفوق العلم الإلهي ويجعله فوق المعرفة البشرية، وتابعاً للوحي، في معرض بحثه عن الحقيقة، ويجعله مكملاً للإيمان في حقل التشريع. ومعه يظل هذا العقل خلقاً إلهياً مهمته التفكر في تجليات الألوهية في هذا الوجود بدون أن ينتهي إلى تعظيم الإنسان ومعارفه على حساب العلم الإلهي المطلق، وهي الرؤية التي تظهر بصورة معكوسة في الغرب منذ صراعه مع الكنيسة وانتهاءً بعصرنا الحالي...

إن الربط بين العلم والإيمان وفق الإمام الخميني ﷺ، تبرز فيه توحيدية الإسلام على أساس نظامه الفكري الذي ينعكس في صميم الفعل الإنساني ورؤيته لعلاقته مع الله ومع ذاته ومع العالمية الإنسانية كرؤية للأخوة في الدنيا والآخرة، على النقيض من الرؤية المادية التي تجعل الإنسان سلعة خاضعة لمقاييس الاستخدام المادي، والاستغلال في دنيا منفصلة عن الآخرة. يقدم الإمام الإسلام بوصفه رؤية عامة للوجود وبوصفه قيمة مرجعية للعلاقات بين البشر وبين الإنسان والطبيعة، والإنسان مع المطلق المتعالي اللامتناهي وحضوره في التجربة البشرية من خلال الأنبياء والرسل لكي يوصلها في نهاية الأمر إلى الكمال

عبر اتباعها الصراط المستقيم الذي يخرجها من الظلمات والشكوك والتمزق.

٣- ماهية العلم في فكر الإمام الخميني

قبل أن يشهد العلم هذه التخصصية الموجودة في عصرنا الحالي كانت الفلسفة هي أم العلوم، وكان موضوعها هو الوجود، وما وراء الوجود، والإنسان. مع التطور انقسمت هذه العلوم إلى قسمين علوم طبيعية وأخرى إنسانية، ضمت العلوم الطبيعية. الفلك، والفيزياء، والرياضيات والكيمياء، والطب وغيرها، وصارت العلوم الإنسانية تضم الفلسفة، والسياسة، والتاريخ، وعلم الاجتماع والنفس وغيرها من العلوم، وأصبح لكل فرع من فروع هذه العلوم فروع متخصصة. وقد حققت هذه العلوم جراء تطورها وتخصصها، الكثير من الإنجازات والكشوفات. ومعها ساد الشعور أن العلوم قادرة على حل كل مشاكل الإنسان، في رؤيته لنفسه، ورؤيته للعالم المحيط به، ولتفاعلاته مع سائر البشر.

لم يقف الإسلام متفرجاً إزاء هذه العلوم بل كانت له إسهامات كبيرة وجادة في تطورها. غير أن إشكالية هذه العلوم لم تقف عند حدود إنجازاتها، وإنما عند النتائج التي توصلت إليها، ومن بينها التشكيك بما جاءت به الأديان وعالم النبوات، والفصل بين عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة، وفصلها عن منطق التوحيد الإلهي في عالم الوجود.

الإسلام بنظر الإمام الخميني ﷺ إذ يفتح العقل على باب النظر والتقصي في حقيقة هذا الوجود، جاء ليعيد جميع المحسوسات وجميع العالم إلى مرتبة التوحيد، فتعليماته ليست تعليمات طبيعية أو تعليمات رياضية أو طبية أو

التي تدرس في ميادين شتى، إنها تشمل كل تلك، ولكنها مرتبطة بالتوحيد الذي ينتهي إلى مقام الألوهية.

فالمعنى ـ وفق الإمام الخميني ﷺ ـ الذي تبتغيه العلوم الجامعية هو ذو قيمة كبيرة، ولكن ثمة فصل بين المعنى الظاهري وهو معنى مشترك بين كل العاملين في حقل هذه العلوم، والمعنى الذي يبتغيه الإسلام، وهو أن ترتبط جميع هذه العلوم الطبيعية أو غير الطبيعية بالتوحيد أي أن يكون لكل علم جانب إلهي، فيرى الإنسانُ الله عندما ينظر إلى الطبيعة، ويرى الله عندما ينظر إلى المادة، وسائر الكائنات. مع أنه لا بد من وجود الطب، ووجود العلوم الطبيعية، والعلاج البدني إلا أن المهم هو مركز الثقل هو التوحيد الذي ينظر إلى تلك المعنويات بتلك المرتبة العالية، أي حين يستحضر صورة الألوهة من خلال الطبيعة، وأنها موجهة من عالم الغيب، ولو نظر الإنسان إلى الطبيعة بهذا العنوان كان يمكنه أن يكون كائناً إلهياً.

أن يكون الإنسان كائناً إلهياً يعني تحسس كل ما في الوجود من عظمة ليجد فيه تجليات النور الإلهي، والتفكر في طبيعة التجربة البشرية لاستخلاص ما في أحوال الأولين من عبر. وهو ما نجده في مقاصد القرآن الكريم حيث كثرت فيه الدعوة إلى التفكر وتمجيده ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[18] وكذلك في موارد أخرى ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[19]

ومن خلال الربط بين العقل والإيمان يرى الإمام الخميني أن هناك الكثير من الآيات التي فيها مدح عظيم للتفكر. وينقل الحديث عن الرسول الأكرم ﷺ في معرض إيضاحه للآية ١٩٠ من سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ حيث يقول الرسول الأكرم «ويل لمن قرأها ولم يتفكر بها». والعمدة التي يراها الإمام في هذا الباب أن التفكّر هو تلمّس البصيرة للوصول إلى المقصود وهو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي والعملي إلى السلامة المطلقة وعالم النور والطريق المستقيم.

٤- تحرير الأفكار من التبعات (العقل والحرية)

إن معالم الارتباط التي تجسدت بين الإيمان والعقل الذي استلهمه الإمام الخميني من رؤية الإسلام لتلك العلاقة وهي تعبير عن نظرة محددة للإنسان ببعديه الروحي والمادي، وبالفطرة المستودعة لديه من الباري تعالى هي فطرة معرفة الله وتعقل الموجودات، وسعيه نحو الارتقاء في مدرجات الكمال.

ولما كان العقل الخاصية المميزة للإنسان عن سائر الموجودات، غير أن هذا العقل في ممارسته لوظيفته وفي احتكاكه مع عالم الطبيعة وتعقله للتجربة الذاتية ولتجربة الآخرين، سرعان ما يلحق به الكثير من التبعات التي تحرفه عن الغايات المنشودة من وراء ممارسته لوظيفته. ولذلك كان الإمام الخميني ﷺ قد عمد وفي مناسبات متنوعة إلى الدعوة إلى تحرير هذا العقل من القيود وهي كثيرة وهي بمثابة أوهام لا بد من إزالتها من عالم التأثير الذي يحجب الإنسان عن أن يكون إنساناً إلهياً وإنساناً مستخلفاً لله في أرضه.

أ- وهم التقليد

من المعلوم أن الإنسان أكثر ما يؤثر ببنائه العقلي والوجداني هو الثقافة السائدة التي يكتسبها بالتنشئة، فالثقافة في أي مجتمع كان هي التي تشكل هوية ذلك المجتمع، وإن أي انحراف ثقافي يؤدي إلى خواء المجتمع وشعوره بالفراغ رغم أنه قد يكون

مقتـــدراً في المجـــال الاقتصـــادي والسياسي والصناعي والعسكري.

وقد كان للإمام الخميني ﷺ اهـتمام خـاص في تحقيـق الاسـتقلال الثقـافي الذي غاب عن العالم الإسلامي بفعل تبعية المسلمين للثقافـة الغربيـة. رفـع الإمام شعار لا شرقية لا غربيـة الـذي يحمل دلالات متنوعة، بينهـا الـدعوة إلى الاســتقلال الثقــافي والفكــري والدعوة إلى التحرر مـن وطـأة تبعيـة المسلمين للغرب. وقد اسـتوحى هـذا الشـعار مـن إحـدى آيـات القـرآن الكـــريم: ﴿اللهُ نُـــورُ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَـبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِـن شَـجَرَةٍ مُّبَارَكَـةٍ زَيْتُونِـةٍ لَّا شَرْقِيَّـةٍ وَلَا غَرْبِيَّـةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْـدِي اللهُ لِنُـورِهِ مَـن يَشَـاء وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[٢٠]

ومـن خـلال هـذا الشـعار كانـت الـدعوة للاسـتقلال الفكـري لأن الارتباط بالثقافة المخالفة يُفقد الثقافـة الأصلية وجودهـا، ولـذلك فـإن مـن السذاجة وفق رأيه أن نتصور إمكانيـة تحقيق الاسـتقلال في أبعـاده المختلفـة مع وجود التبعيـة الثقافيـة التـي دأب الاسـتعمار عـلى إحلالهـا محـل ثقافـة المجتمعات.

ولفهم موقف الإمـام الخمينـي ﷺ من مسألة التبعية في أسبابها ومظاهرها وأبعادها يمكن الوقوف على نصوص من كلام له، حيث يـرد أسـباب هـذه التبعيـة إلى ارتباطهـا بالبعـد النفـسي والثقافي. وبالتالي هي مسألة تعـود إلى فقدان الشعب ثقته بنفسـه مـن جهـة، وانبهـاره المطلـق بالشـعب المتبـوع إلى درجة التقليـد والأتبـاع الأعمـى مـن جهـة ثانيـة. أمـا مظاهرهـا فتبـدو في مواضـع متفرقـة ففـي خطـاب ألقـاه بتاريخ ٥ أيلول عـام ١٩٧٩ قـال: إن جميع مشاكلنا ومصائبنا هي أننا فقـدنا

أنفسنا وجلس غيرنا في مكاننا. إن ثقافتنا واقتصادنا كانا غربيين، ولقد نسينا أنفسنا حقاً. لقد نسي الشرقيون مفاخرهم كلها ودفنوها ووضعوا الآخرين مكانها. وعندما يذكرون الموضوعات يستشهدون بأقوال الغربيين، وهذا هو العيب، إنهم متأثرون بالغرب، إنهم نسوا ألفاظهم ولغتهم، وما دامت هذه التبعية موجودة فلن يكون هناك استقلال.

ويقول في هذا المجال: لا تشتبه عليكم الأمور عندما تشاهدون تقدم الغربيين في مجال الصناعة، ولا تتصوروا أنهم متقدمون في مجال الثقافة أيضاً، ينبغي لكم أيها الطلبة الجامعيون الأعزاء، أن تفكروا بكيفية التخلص من هذا التغرب والعثور على ما ضيعتموه وأن نكون مستقلين وأحراراً.

الاعتماد على الذات تلزمه خطوات متضافرة ليست محصورة بالجامعيين وحدهم وإنما بكافة مكونات المجتمع من أجل بناء الإنسان. يقول الإمام في هذا الصدد: لا يمكننا إصلاح الأمور ما لم نبنِ على أننا بشر، ويمكننا العمل لأنفسنا، وأننا مستعدون لتناول الخبز المصنوع من الشعير هنا ولا نريد شيئاً من الخارج. لا يمكننا أن نحقق الاستقلال ما لم يصمم هذا الشعب على أن يكون كل شيء من عنده، وأن تكون ثقافته من عنده واقتصاده من عنده. إن الدعاية سلبت منا آدميتنا وأوجدت عندنا يقيناً بأنهم كل شيء. بم تختلفون عن سائر البشر؟ البشر في كل مكان من جنس واحد ومن نوع واحد... إنهم لم يسمحوا للأفضل عندنا أن يكون، ولهذه العقول المفكرة أن تعمل. إن العقول المفكرة التي هربت من إيران إنما كانت أفكارها تعمل لخدمة الأجانب، ولكن الحمد لله فقد أثبتم وأثبت شبابنا قدرتهم على العمل. ثقوا أنكم قادرون على القيام بجميع الأعمال في المستقبل الطويل.

وآمل أن تُعملوا العقول، وتنزعوا عنكم تلك المخاوف التي أوجدها الغرب والشرق في بلادنا. مارسوا عملكم الثقافي بشجاعة أيضاً، ومارسوا أعمالكم بأنفسكم، وقللوا اتكالكم على الأجانب٣٤. لقد نجوتم إلى حدٍ كبير من تلك المصائد والشباك حيث هبّ الجيل المعاصر إلى العمل والإبداع. وقد رأينا ما أنجزه في العديد من المصانع وفي أجهزة الطائرات وغيرها في وقت لم يكن يتصور أن الخبراء الإيرانيين قادرون على تشغيل المصانع وأمثالها في ظل المقاطعة المفروضة والحرب الاقتصادية. أوصيكم أن تقطعوا دابر التبعيات بإرادتكم الصلبة شريطة التوكل على الله والاعتماد على النفس.

ب ـ وهم الحرية

اقترنت الدعوة عند الإمام الخميني ﷺ إلى الاستقلال الثقافي كمقدمة للتخلص من سائر أشكال التبعية بإبراز مظاهر هذه التبعية وخطورتها على هوية المجتمع الإسلامي. ومن بين مظاهر هذه التبعية كان وهم الحرية وهو المفهوم الذي ساد في الأوساط الأوروبية بعد الثورة الثقافية في القرن الثامن عشر في أوروبا عندما برز المفكرون بأفكارهم المناهضة للكنيسة في معركة استقلال العقل عن المؤثرات الدينية وتزامن ذلك مع نظرة جديدة للإنسان اقترنت مع ماعرف بالحقوق الطبيعية وعلى رأسها الحرية.

وفي أعقاب امتدادات الثورة في القرن التاسع عشر/ كان الغرب قد نظم مجتمعاته على أساس الفهم الجديد للحرية التي سرعان ما شكلت موئلاً للمثقفين في عالمنا الإسلامي الذي راح يستلمهم الغرب في مناهجه التعليمية مركزاً على إبداعات الغرب خصوصاً في المجال الثقافي والفكري، وترافق الأمر مع بروز سلوكات جديدة نابعة من الدعوة إلى التنميط

الثقافي الذي يحاكي الغرب كتعبير عن حق الإنسان في حريته.

ولما كان هذا التنميط هو بمثابة أحد أهم عناصر الثقافة المكتسبة من خلال الأطر التربوية والتعليمية، كان الإمام الخميني ﵀ شديد الحرص على تنقية المناهج والجامعات من رواسب هذه التبعية، لا سيما أن هذه المراكز تضطلع بتخريج الكفاءات العاملة في ميادين شتى في المجتمع و منها وسائل الإعلام، والفن، والإدارات التي تضطلع بصناعة الرأي العام.

وبطبيعة الحال وقف الإمام الخميني ﵀ في مواجهة سائر أشكال التبعية. ولم يكن يعمد لذلك إلا بعد توضيح ملابسات وتعقيدات نتائج هذه التبعية وبينها وهم الحرية السائد كما في الغرب. دون أن يعني هذا الأمر أن للإمام الخميني نظرة سلبية لمفهوم الحرية بقدر ما يعبر عن نظرة خاصة متوائمة مع تأصيله الإسلامي لكل ما يمت للإنسان بصلة.

الحرية بنظر الإمام الخميني ﵀ هي نعمة إلهية ممنوحة للبشر، وهو يجدها قد تحققت مع انتصار الجمهورية الإسلامية، وهذه الجمهورية ليست سوى ثمرة شعور الأفراد بالتحرر من كم الأفواه الذي كان سائداً في زمن الشاه. ومع تحقق نجاح قيام الجمهورية الإسلامية، تبقى هذه الحرية مصونة ارتكازاً على تعاليم الإسلام التي تمنح الإنسان حرية العمل والاعتقاد.

ولكن للإمام الخميني ﵀ نظرة مغايرة لمفهوم الحرية كما هو سائد وفق الطراز الغربي الذي يراه يؤدي إلى الانحراف وتدمير الشبان والشابات، وهذا الطراز الذي أذن له أن يكون سائداً في جامعات ومدارس إيران كما في سائر زوايا المجتمع.[٢١]

من بين أكثر ما يتم من خلاله التنظير لهذا الطراز وسائلُ الدعاية

والخطابات والكتب والصحافة. وبطبيعة الحال إن الفئة الموجة بهذا الأمر، هي فئة المثقفين والجامعيين الذين يضطلعون بأدوار تناسب مؤهلاتهم. استناداً إلى هذا الأمر، كان الإمام الخميني ﷺ شديد الحرص على دعوة هذه الفئات كما سائر أفراد المجتمع، إلى التنبه لخطورة هذه المسألة. يقول في هذا السياق «إننا ومنذ اليوم الأول الذي تحققت فيه ثورتنا كانت جميع الحريات موجودة، ولكن هل من الصحيح أن يتحدث الإنسان بما يشاء تجاه الآخرين بحيث تدب الفوضى؟ هل هذا هو معنى الحرية؟ هل الحرية في الغرب التي تريد نهبنا هي على هذه الشاكلة؟.. إنهم أرادوا الحرية التي تمكنهم من إفساد إخواننا وشبابنا، إنهم يريدون حرية الفحشاء بكل أنواعها... في حين أن الحرية الأولية لأي شعب من الشعوب هو حق تقرير المصير. فهل هذا كان سائداً خلال الحكم البائد الذي عمل على كم الأفواه من جهة وإحلال ثقافة.

الهوامش:

[١] بحوث في الملل والنحل لاية الله الشيخ جعفر السبحاني، الجزء ٦، ص٥٢٥-٦٠٣.
[٢] سورة العلق، الاية ١-٥.
[٣] سورة فاطر، الاية ٢٨.
[٤] سورة الزمر، الاية ٩.
[٥] سورة الانشقاق، الاية ٦.
[٦] سورة الطارق، الاية ٥.
[٧] سورة ق، الاية ٦.
[٨] سورة الروم، الاية ٨.
[٩] سورة العنكبوت، الاية ٢٠.
[١٠] سورة الرعد، الاية ١٦.
[١١] يمنى الخولي، بحوث في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٣١-١٩٩.
[١٢] نشأة الفكر العلمي والفلسفي في الحضارة الاسلامية، رشدي راشد، الجزء ٢، العدد ١-٢، ٢٠٢٢ م.
[١٣] جلال موسى، منهج البحث العلمي عند العرب، ص٥٥.
[١٤] الفكر الجغرافي، العدد ١، ص ٣٥.

[١٥] جنود العقل والجهل، اية الله العظمى الامام الخميني ﷺ، ص ٢٠.
[١٦] المنهج العلمي عند علماء العرب، د. ماهر عبد القادر محمد علي، ص٧٢.
[١٧] سورة العلق، الاية ٦-٧.
[١٨] سورة النحل، الاية ٤٤.
[١٩] سورة الاعراف، الاية ١٧٦.
[٢٠] سورة النور، الاية ٣٥.
[٢١] الوصية الالهية السياسية للامام الخميني ﷺ، ص٤١.

آية الله الشيخ حسن الجواهريّ
أستاذ بحث خارج في الحوزة العلمية / النجف الاشرف

لماذا يكره الغربُ الإسلام

(الحلقة الأولى)

المقدّمة:

ظاهرة كراهية الغرب للإسلام ظاهرةٌ واسعةٌ جدّاً، وقد تنامت عبر فترات مختلفة، وهنا نحاول أنْ نبحث في جذورها وتفسيرها وأصلها وسبل معالجتها.

وفي الواقع أنّ كراهية الإسلام لا تختصّ بالغرب، بل قد توجد في المجتمعات العربية، وإنْ كانت محدودةً، فعلى سبيل المثال حينما يُطرحُ تشريعٌ إسلاميّ في أيّ بلدٍ عربيٍّ من قبل الشيعة ينبع من الفقه الجعفريّ نجد أنّ الحكومات العربية تقوم بمنعه، والتظاهر ضدّه، وهكذا من السياسيين المرتبطين بالغرب؛ لمنع انتشار الفقه الجعفريّ.

وعموماً فإنّ التشريعات في العراق إمّا علمانية، أو هي قائمةٌ على أساس المذهب الحنفيّ، بينما في العهد الملكيّ كانت هناك محاكم جعفرية إلّا أنّ

(عبد الكريم قاسم) سَنّ تشريعات الأحوال المدنية بعيداً عن الفقه الإسلاميّ الجعفريّ، بل كانت تشريعاتٍ ترتكز على المنهج العلمانيّ، بضغط غربيّ في الأحوال الشخصية من العقود والزواج والمواريث وحقوق الزوجين وقيمومة الأب على الطفل والأسرة.

وكلّما أراد الشيعة الذين ينتشرون في العالم العربيّ أن يكون لهم حقّ في التشريع أو القضاء والمحاكم وفق المذهب الجعفريّ لتنظيم شؤونهم الدينية في الزواج والطلاق والحجاب والمواريث والتعاليم الإسلامية نجد أنّ الصيحاتِ المعارضة تتصاعد رفضاً لهذا المسعى، وتصوّره أنّه خطر على بلدانهم.

نعم، هذا الأمر مع أنه موجودٌ في العالم العربيّ، إلّا أنه أقلّ بكثير قياساً إلى كراهية الغرب للإسلام وتشريعاته بل حتى الدول اللادينية مثل الصين واليابان تعلن كراهيتها للإسلام، وتعمل على منعه وتثقيف الرأي العام ضدّه، وهذا وجدناه في العراق مؤخّراً.

وبهذا فإنّ الكراهية للإسلام والمسلمين والتشريع الإسلاميّ أمر واقعيّ، وليس مجرّد افتراض قائمٍ على الوهم، بل إنّ الغرب بني ثقافته على محاربة الإسلام، وقد أسهم إعلامُهم وقادتُهم السياسيون في تصوير المسلمين بأنّهم أناسٌ متطرّفون، وأنّ دينهم يدعو إلى العنف والقساوة، مع أن الإسلام في حقيقته دينُ الرحمة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فمع أنّ الدين الإسلاميّ، الذي يعكسه قرآنُ المسلمين يتحدّث صريحا عن الرحمة والعدل والإحسان ونشر العدالة إلّا أنّهم يُصرّون على أنّ الدين الإسلاميّ دينُ التطرّف، ويُخطأ مَنْ يقول: إنّ الغرب لا يكره الإسلام، بل

إنّ منهجهم الحقيقيّ قائمٌ على أساس كراهية الإسلام.

أوّلاً: تاريخ هذه الظاهرة:

هناك مَنْ يُرجع تاريخ نشوء الكراهية الغربية للإسلام إلى أحداث ١١/ سبتمبر.

وهناك مَنْ يُرجع هذه الظاهرة إلى العنف الذي مارسته القاعدة في العالم الغربيّ من تفجير الأبراج التجارية في سبتمبر، وتفجيرات استهدفت المدنيين في المترو والأسواق والأماكن المدنية، وحتّى في المجتمعات العربية، ففي الجزائر مارست الوهابية عنفاً واسعاً؛ إذ كانت تقتل الأبرياء في بيوتهم وفي الأسواق والشوارع والمزارع.

ولكنّ الحقيقة أنّ الكراهية لم تبدأ من هذا التاريخ ولم تنشأ من هذه الأحداث، بل هي قديمة، وإنّما أحداث سبتمبر تعتبر قمّة الإعلان عن هذه الكراهية، وهنا عدد من الأمور لا بدّ من توضيحها وشرحها ومناقشتها وهي:

ثانياً: الأسباب الظاهرية هذه الظاهرة:

هناك أقوال عديدة في تفسير هذه الظاهرة التي أصبحت واسعةً جدّاً، بل نجد أنّ الغرب أسّس حضارته وثقافته على هذا الفكر، أعني: أنّ الإسلام يجب أنْ يُحارب، لأنّه يشكّل خطراً على مستقبل الشعوب الغربية، لأنّه يدعو إلى العنف، فيجب نبذه في بلدان الغرب، وإنهاء وجوده ومحاربته بكُلّ وسيلة، وتشديد الحصار على المسلمين، والاقوال في الأسباب لهذه الظاهرة هي:

التفسير الأوّل: البعض يحمل التشريع الإسلاميّ المسوولية:

يقول بعض المسلمين العلمانيين: إنّ السبب هو التشريع الإسلاميّ نفسه؛ لأنّه لا يحترم المرأة، ويصادر حقوقها المدنية. وأنّه سببٌ في انتشار ظاهرة التطرّف، وغير ذلك من

الأسباب، فإنّهم يدافعون عن الغرب، ويحمّلون الإسلام والمسلمين المسؤولية، ويستعرض هؤلاء من التاريخ شواهدَ عن العنف والحروب.

التفسير الثاني: البعض يقول ان الغرب لم يثقّف المسلمين على ثقافتهم:

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى تحميل الغرب المسؤولية، بقولهم: إنّ الغرب لم يثقّف المسلمين على التسامح والمفاهيم الغربية والتعليم والتنوير، ممّا خلق لدى المسلمين الجهل والعنف والتطرّف، ولولا احتكار التطوّر لدى الغرب لوجدنا المسلمين قد تثقّفوا بثقافة الغرب، وصاروا مثلهم، ممّا أدّى بالمسلمين أنْ يكونوا بعيدين عن التطوّر والحداثة والثقافة الغربية.

وفي هذا الصدد هناك مثال يقال: إنّ جيوش كسرى مرّت بفترة من النقص في الأغذية ففرض كسرى على الناس التبرّع بالأموال، إلّا أنّ أحد الأغنياء اشترط أنْ يمنح جيش كسرى المال بما فيه الكفاية، مقابل تعليم أولاده، إلّا أنّ كسرى رفض ذلك، وقال: إنّ التعليم لا يمكن أنْ نمنحه للعامّة من الناس، بل هو أمرٌ مختصّ بالجند والحاشية والمقرّبين منّا.

التفسير الثالث: الاخرون يقولون بان يتحمّل المسلمون والغربيون السبب معاً:

الرأي الثالث يقول: إنّ السبب في كراهية الغرب للمسلمين يُحمّل لكلا الطرفين، الغرب والمسلمين معاً، فمن جهة المسلمين فإنّ إسلامهم وتشريعاتهم تمنع على المرأة الحرية، وتفرض عليها الحجاب، وتبيح الدماء، وتؤسس لمحاربة الغرب، ولديهم تشريعات قاسية كقطع يد السارق، وقطع الرقاب، والتخلّف والاستعباد وغير ذلك. ومن جهة فإنّ الغرب لم يبادرْ إلى نشر ثقافته بين المجتمعات الإسلامية.

ولمعرفة الحقيقة والأسباب لابدّ من أنْ نرجع إلى تاريخ الظاهرة عندها يتضح بنحو جلي سبب هذه الكراهية التي يعتمدها الغرب اليوم بنحو واسع حكوماتٍ ومنظّماتٍ وأحزاب ومؤسسات، وحتى المجتمعات هي ليس هذه الأسباب.

ثالثاً: الأسباب الحقيقيّة:

أوّلاً: الاستفادة الغربية من الآراء الشاذّة في الإسلام:

إنّ المستشرقين والسياسيين في الغرب يأتون إلى الشواذّ من الآراء في الإسلام، ويعتمدونها بديلا عن الرأي العامّ، فمثلا عموم المسلمين يرون أنّ القران الذي بين أيدينا هو القرآن ذاته الذي نزل على النبيّ محمّد ﷺ وهو الذي تداوله المسلمون عموماً، والأئمّة الأطهار، وهذا ما قام عليه الإجماع لدى المسلمين سُنّةً وشيعةً. ولكن يوجد رأي شاذّ بنسبة لا تتجاوزُ ٢٪ من كلا الطرفين يقولون عكس ذلك، ونجد الغرب والمستشرقين يبادرون إلى الترويج لخصوص هذا الراي الشاذّ، ويعتمدونه كرأي عامّ، ويعبّرون عنه أنّه الرأي المعتمد عند المسلمين عموماً، وينتهون إلى خلاصة يقنعون بها شعوبهم هي: أنّ الدين الإسلاميّ ليس ديناً سماوياً، بل هو دين محرّفٌ وساقطٌ عن الاعتبار؛ لأنّ القران الذي هو مصدر تشريعهم فيه نقصٌ وتحريفٌ، وأنّ أحاديثهم التي تعتمد على القرآن هي الأخرى محرّفة، وانتهوا بنهاية المطاف إلى القول: إنّ تشريعات المسلمين ليس تشريعات سماوية، بل هي تشريعات لدين محرّف صنعته البداوة ضدّ الحضارة، ورسّخت هذه النسخةُ المحرّفةُ العنفَ، وأوجدتِ الفوضى، وانعدام الأمن ومصادرة حقوق الانسان.

وهكذا في موضوع المرأة – مثلا – فإنّ الإسلام يعطي للمرأة حقَّها كاملاً في كُلّ الواجبات والحقوق إلّا في

مسألة الولاية العامّة والقضاء. إلّا أنّ الغرب لا يعتمد الفقه الجعفريّ الذي هو الإسلام الحقيقيّ، بل يعتمد على ما تعمل السعودية مع المرأة وقوانينهم النابعة من البداوة والجهل، فتمنع المرأة من أن تتعلّم قيادة العجّلات، وممارسة الطب، والهندسة وغيرها، وهكذا يتبنون الآراء الشاذّة التي يرفضها الإسلام الحقيقيّ، ويعتبرونها هي الإسلام ويروّجونها بين مجتمعاتهم لتعميق الكراهية للإسلام.

وفي مثال آخر فإنّ الإسلام قد أعطى الولاية العامّة و القيمومة للرجل والإسلام يُسقطها عن الرجل إنْ ثبت أنّ تعامله مخالفٌ لمصلحة المرأة الشرعية، كما لو أنّ الزوج منعها من زيارة أهلها دون مبرر شرعيّ.

وليعلمْ أنّ ولاية الرجل على المرأة تعني الانفاق عليها، وتحمّل المسؤوليات لأجلها وتوفير السكن وسائر مستلزمات الحياة، وليس للإضرار بها، بل هي أسلوب من أساليب تنظيم الأسرة وخدمة المرأة وتوفير ما لم تتمكّن هي من توفيره، بينما الغرب فسّروه تفسيراً مخالفاً للحقيقة اعتماداً على نموذج سيءٍ شاذٍّ.

ثانيا: عدم وجود او صول الردود الصحيحة الى الغرب:

ومن أسباب الكراهية هي عدم الردّ على الشبهات، أو أنّ هناك ردوداً إلا أنها لم تصلهم بسبب ضعف الإعلام لدينا، وقوّة الإعلام لديهم، وأنّ عدم وجود الردود أو عدم وصولها لهم أيضا من الخطورة بمكانٍ؛ إذْ وفّرت للإعلام الغربيّ أنْ يفسّر الإسلام وفق رؤيته اعتمادا على الآراء الشاذة والمرفوضة من قبل الإسلام الحقيقيّ.

ثالثاً: دور رجال السياسة في الغرب في نشر الكراهية:

نجد أنّ السياسيين الأمريكان والبريطانيين لأسباب تتعلّق بمصالحهم يحاولون إقناع الرأي العام في بلدانهم وشعوبهم أنّ الإسلام خطرٌ

عليهم، ويريدون بذلك أنْ يمرروا مخططاتهم في احتلال الشعوب الإسلامية واذلالهم ونهب ثرواتهم وقتل شخصياتهم، وهذا هو المشروع الغربي الذي يريد نهب ثروات العالم الإسلاميّ، وشنّ الحروب عليهم وقتلهم.

قد تجد أمريكا وبريطانيا المعارضة قبل من شعوبهم؛ لأنهم لا يرون مبرراً لقتل الشعوب المسلمة، أو لأنهم يرون أنه لا مبرر لإدخال شعوبهم في الحروب مع المسلمين، ومن هنا نجد السياسيين في أمريكا وبريطانيا يثقّفون شعوبهم على أنّ الإسلام خطرٌ عليهم، ويستغلّون الصور الوحشية التي تمارسها القاعدة وداعش في قطع الرؤوس، وتعليق الجثث وحرقها بأنها الصورة الحقيقيّة للإسلام، بينما الإسلام الواقعيّ بريء منها، لكي يبرروا مخططاتهم ويمنحوا أنفسهم الشرعية من شعوبهم في أعمالهم ضدّ المسلمين.

إنّ قادة الغرب يحاولون إيجاد الشرعية لحروبهم ضدّ المسلمين ولنهب خيراتهم وثرواتهم وشنّ الحروب عليهم من خلال إشاعة الثقافة التي تقول: أيها الشعوب الغربية إنّ الإسلام خطرٌ عليكم، وهذا هو الذي يسمّونه بـ «الإسلام فوبيا» والفوبيا هي الخوف الشديد الذي يقع فيه الإنسان خارج سيطرته، ويعيش القلق والاضطراب، وتوتر الأعصاب، كما لو يواجه الانسان أفعى قاتله، فإنه يخرج عن إرادته ويسيطر عليه الخوف والهلع، هكذا تمكّن هؤلاء السياسيون في الغرب أن يصوّروا الإسلام لدى شعوبهم من خلال البرامج المتعددة لأجل مصالحهم ومشاريعهم.

رابعا: العمل على التوسّع في نشر الكراهية:

هذه السياسة توسّعت أخيراً فظهرت أحزابٌ تعمل علنا على محاربة الإسلام والمسلمين، وقد رفعت شعار

طرد المسلمين من بلدانهم، ومنع هجرة المسلمين إلى بلدانهم؛ كونهم يشكّلون خطراً على حضارتهم، ففي هولندا ظهر حزبٌ يقودُهُ الشواذّ (من ممارسي الجس المنحرّف أو المسمّي بالمثلية والذين يبيحون اللواط والسحاق) هذا الحزب يعلن عداوته للإسلام جهاراً، وهكذا في الدانمارك، وهؤلاء هم أيضا يرفعون شعار: لا للإسلام كما يرفعه الحزب الهولنديّ وترفعه باقي البلدان.

كلّ هذا لأجل تعميق الرأي العام في أُوربا ضدّ الإسلام والمسلمين، ولأجل إيجاد رأي عامّ شعبيّ يشمل كُلّ المجتمعات الغربية ضدّ الإسلام كما قلنا بسقف عالٍ يصل حدّ الفوبيا.

خامسا. دور الإعلام الغربي في نشر الكراهية ضدّ الإسلام:

منهج الإعلام الغربيّ في نشر الكراهية ضدّ الإسلام يعتمد على مخاطبة المخيلة، وليس العقل فالعقل له أحكامه، بينما المخيلة لها أحكام أخرى، فحينما يقول الإسلام: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ...﴾ يضع الإسلام عشرة شروط منها: أنْ لا يكون فقيراً جائعاً، أو لم يسرق من مكانٍ خاصٍّ «المحرز»، إلّا أن الإعلام الغربيّ يقوم بالترويج إلى فكرة أنّ الإسلام يقطع اليد دون ذكر التفاصيل؛ لأجل نشر الكراهية ضدّ الإسلام.

وهكذا في موضوع المرأة فإنّ الإسلام حينما يحثّ على الحجاب إنّما يهدف إلى صون المرأة وعفتها، بالتالي صون المجتمع من المشاكل العديدة التي تنشأ بسبب التعرّي، وأنّه قد يؤدّي إلى هدم الأسرة، وإشاعة العنف والخطف والتحرّش الجنسيّ، كما حصل في بعض البلدان التي اشتهرت بهذا الأمر، إلّا أنّ إعلامهم يقول: إنّ الإسلام يصادر المرأة حريتَها، دون ذكر الأسباب العقلية والتي تنسجم مع الشريعة.

ويركّز الإعلام الغربيّ أيضا على أنّ الإسلام يمارس العنف ضدّ الانسان، ويجيز قطع الرقاب وحزّ الرؤوس، ويقوم الإعلام بعرض هذه المشاهد عبر وسائل الإعلام المرئي والمسموع، بينما لم يعرضوا رأي الإسلام الحقيقيّ المتمثّل برأي أهل البيت عليهم السلام الذي يحرّم هذه المظاهر التي تمارسها القاعدة والوهابية، ولم يقولوا للناس: إنّ الإسلام يحرّم هذه المظاهر، وأنّ الإسلام يحترّم الدماء، ويصون حرمة الفرد والمجتمع، ولم يقولوا: إنّ المسلمين الحقيقيين هم ضحية هذا الإرهاب، وليس هم مصدره، بل هو الحالة الشاذّة منه.

كذلك فإنّ الإعلام الغربيّ يقول للناس: إنّ الإسلام لا يحترم العلم، ويقوم بحرّق الكتب بينما الذي يقوم بحرق الكتب هم السعودية والوهابية، ولم يقل هذا الإعلامُ: إنّ شيعة العراق وشيعة إيران تحترم الفكر والكتب.

ولم يذكرِ الإعلامُ أنّ الإسلام يدعو إلى التسامح والعدالة واحترام المرأة والطفل... ولم يذكروا لشعوبهم أنّ في الإسلام تعاليمَ راقيةً منها التكافل والتعايش والدفاع عن الإنسان، وأنّ في الإسلام تشريعاتٍ تصون السلم الاجتماعيّ، وفيه قيمٌ ومواقف سامية، كُلّ هذه يهملها الإعلام الغربي عمداً؛ لأجل ترسيخ صورة الإسلام الوهابيّ في مخيلة الانسان الغربيّ لتعميق كراهيته للإسلام والمسلمين.

وعليه يوجد منهج إعلاميّ غربيّ ضدّ الإسلام الحقيقيّ اعتماداً على منهج الإعلام المعتمد على الوهم، والذي يستغل الصور البشعة التي يحرمها الإسلام ويقف منها فقهُنا وشريعتُنا موقف التحريم لها والمحاربة لها.

وعليه فإنّ السياسيين في الغرب هم من يتحمّل مسؤولية نشر الكراهية ضدّ الإسلام وتشويه صورته عبر

إعلامهم، وأن الاستطلاعات التي قامت بها العديد من المنظّمات الغربية أكّدت ارتفاع نسبة الكراهية، وتأكّدَ بهذا نجاحُ مخططاتهم ضدّ الإسلام.

سادسا: التضادّ بين الحضارة الإسلامية والغربية:

إنّ المقولة التي تذهب إلى أنّ الكراهية ضدّ الإسلام حديثةٌ، وأنّ سببها يرجع إلى الأسباب المذكورة المتقدّمة سابقاً، ومنها أحداث ١١-سبتمبر أو أحداث الجزائر أو غيرها هي تفاسير غير واقعية، وإنّما هذه الأحداث استُغلّت لتكون الفرصة لإعلان الكراهية، والسبب الأساس هو أنّه منذ أنْ نزل القران على نبيّنا محمّد ﷺ وإلى الآن وجدنا عبر التاريخ هناك جهوداً في الغرب لمحاربة الإسلام، والسبب أنّ الإسلام دينٌ يعتمد القيمَ والنبل واحترام الإنسان وصون الحقوق، وهذا يتعارض مع المنهج الغربيّ الذي تبنّاه السياسيون في الغرب عبر التاريخ الذي يعتمد الحضارة المادّية التي تقوم على الحروب والمصالح والنهب والقتل والانتصار على المسلمين واستعبادهم.

قد نبرّأ الإنسان الغربيّ المغلوب على أمره، وقد تكون أديانهم لا تحمل هذه الكراهية، إلّا أنّ الدوائر الغربية الاستشراقية هي من تمكّنت أنْ تفرض ثقافة الكراهية عليهم، وأنْ تصوّر لشعوبهم أنّ الإسلام هو العدوّ الذي لا بدّ من مواجهته، وهو الخطر الحقيقي عليهم، وعلى حضارتهم. كُلّ هذا كما قلنا لأجل نهب ثرواتنا واحتلال بلداننا، وهذه ما حصل من احتلال أفغانستان، وشَنّ الحرب عليها، وشَنّ الحرب على العراق. وللمزيد من البحث في هذا الجانب نتحدّث في الحلقة القادمة.

السيد رياض الحكيم
أستاذ بحث خارج في الحوزة العلمية

دروس في الثقافة المهدوية

المهدوية في الأديان السماوية

إن الإيمان بالمهدي والمصلح الموعود لا يقتصر على دين معين، بل يعتبر من ضمن تعاليم ومعتقدات العديد من الأديان الأخرى، ونتعرض هنا إلى ما تضمّنته تعاليم الأديان السماوية الثلاثة -اليهودية والمسيحية والاسلامية - بهذا الخصوص من خلال رصد نصوصٍ محدّدة في الكتب المقدسة - لدى أتباع هذه الديانات- ظاهرة في التبشير بالمهدي والمصلح الموعود وتطبيق العدالة في أنحاء المعمورة، وسوف نتعرض لذلك، ولأهم الإشكاليات المطروحة على العقيدة المهدوية.

المهدوية عند اليهود والمسيحيين

١- المهدوية عند اليهود

تضمنت عدة نصوص دينية يهودية في التوراة التبشير بالمهدي والمصلح الموعود، منها..

أ) «ويخرج قضيب من جذع «يسّىٰ»[١] وينبت غصن من اصوله[٢] ويَحِلّ عليه روحُ الربّ روحُ الحكمة والفهم، روحُ المشورة والقوّة، روح

المعرفةِ و مخافةِ الربّ. ولذّتُه تكون في مخافة الربّ فلا يقضي بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمِه ويُميت المنافقَ بنفخةِ شفتيه، ويكون البِرّ منطقةَ متنيه والأمانةُ منطقةَ حقويه، فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي...»[٣].

ب) ينتظر اليهود «مسيّا» و «هو إنسان مثالي من نسل الملك داوود (النبي داوود في الإسلام) يبشِّر بنهاية التاريخ، ويخلص الشعب اليهودي من ويلاته، والأحداث المتوقعة عند وصول (الماشيح) حسب الإيمان اليهودي تشابه أحداثَ يوم القيامة في الإسلام والمسيحية»[٤].

٢- المهدوية عند المسيحيين

من ثوابت عقيدة المسيحيين انتظار ظهور عيسى عليه السلام، وقد أشارت اليها عدّة نصوص في الأناجيل، منها:

أ) انجيل لوقا: «كونوا على استعداد، أوساطُكم مشدودة ومصابيحُكم موقَدة كرجالٍ ينتظرون رجوعَ سيّدهم من العرس.. فكونوا إذاً على استعداد، لأنّ ابن الإنسان يجيء في ساعةٍ لا تنتظرونها»[٥].

ب) انجيل مرقس: «... وفي تلك الأيام، بعد زمن الضيق تُظلم الشمس ولا يُضيء القمر، وتتساقط النجوم من السماء وتتزعزع قواتُ السماء، وفي ذلك الحين يرى الناس ابنَ الانسان آتياً في السّحاب بكلّ عزة وجلال، فيُرسل ملائكته إلى جهات الرياح الأربع ليَجمعوا مختاريه من أقصىٰ الأرض إلى اقصىٰ السماء»[٦].

جـ) إنجيل يوحنا: «قلت لكم: أنا ذاهب وسأرجع إليكم، فإن كنتم تحبّوني فرحتم بأني ذاهب إلى الآب، لأنّ الآب أعظمُ مني... لن أخاطبَكم بعدُ طويلاً، لأنّ سيّد هذا العالم

سيجيء، لا سلطانَ له عليّ، فقال لهم: تتساءلون عن معنى قولي: بعد قليل لا ترونني، ثم بعد قليل ترونني الحقَّ الحقَّ أقول لكم: ستبكون وتندبون، وأما العالم فسيفرح ستحزنون، ولكنّ حزنَكم يصير فرحاً... أنتم تحزنون الآن ولكني سأعود فأراكم، فتفرح قلوبكم فرحاً لا ينتزعه أحد منكم»[٧].

المهدوية في الإسلام

تسالم المسلمون - عموماً- على الاعتقاد بخروج المهدي وانتظاره، وإن اختلفوا في بعض الخصوصيات والتفاصيل المرتبطة بذلك، كما سيأتي.

ونظراً لارتباط هذا الموضوع بقضية الإمامة والخلافة نشير بايجاز إلى موقف المسلمين من الإمامة والخلافة واختلافهم فيها.

اختلاف المسلمين في الإمامة

من المؤسف أن المسلمين قد اختلفوا اختلافاً شديداً منذ وفاة نبيهم ﷺ - بل قبل ذلك- في تعيين إمامهم وخليفته من بعده ﷺ، وقد تنبّأ النبي ﷺ بذلك وحذّرهم منه مراراً كان آخرها في ساعات وفاته الأخيرة، حتى إنه أراد أن يكتب لهم كتاباً يكون وثيقة تحول دون اختلافهم وضلالهم فمنعوه، واختلفوا وتنازعوا بحضوره.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس قال: «لما حُضِر رسول الله ﷺ ـ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ـ قال النبي ﷺ: «هَلمّ اكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده». فقال عمر: «إنّ النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله» فاختلف أهل البيت ـ والمقصود منه هنا الذين كانوا حاضرين في الغرفة ـ فاختصموا، منهم من يقول: «قرّبوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده» ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف

عند النبي ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا» قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كلَّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافِهم ولغَطِهم»[٨].

وفي صحيح مسلم أنهم قالوا: «إن رسول الله يهجر»[٩].

ويمكن أن نتعرف على ملامح مضمون وصية النبي ﷺ الذي أراد أن يوصي به الأمة من خلال أربعة شواهد وقرائن تضمّنتها الروايات المذكورة، وهي..

الأول: أن الأثر البارز والمهم لمضمون الوصية أنه يحفظ الأمة ويصونها من الضلال بعد وفاة النبي ﷺ، وهو الآفة التي واجهت أمماً أخرى بعد رحيل أنبيائها عنها.

الثاني: أن مضمون الوصية حساس يمس مصالح بعض الحاضرين بحيث أدّى توقّعهم له إلى الشغب والمنع من كتابة وصية النبي ﷺ للوصية، واتهامه له ﷺ بأنه (يهجر)، لسلب شرعيته وقطع الطريق أمام أية محاولة أخرى منه ﷺ لكتابة الوصية المذكورة.

الثالث: إن نفس الاختلاف واللغو والشجار الحاد بين بعض الحاضرين وغيرهم قد توقّعه النبي ﷺ في يوم الغدير عندما نصّ على ولاية علي عليه السلام، حيث طمأنته الآية الكريمة آنذاك: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١٠]، والفارق بين الزمانين أن الوحي يوم الغدير قد فاجأهم وكان بحضور جموع غفيرة من المسلمين من أقطار شتى فلم تسنح الفرصة والظروف لمعارضته بينما كانوا قد تهيّأوا للموقف المضاد حين وصية النبي ﷺ بحضور عدد محدود من الصحابة، فحال أولئك بينه وبين

كتابة وصيته ﷺ.

الرابع: إن نفس الأثر المهم الذي كان ينشده النبي ﷺ ويحرص عليه ـ وهو التحصين من الضلال ـ قد رتّبه ﷺ على التمسك بالكتاب والعترة من خلال حديث الثقلين المتواتر والمنسجم مع مضمون وهدف الكتاب الذي كان يروم كتابته، ففي صحيح الترمذي بسنده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[11].

إن هذه القرائن والشواهد تؤكد ماذكرناه من تطابق مضمون الوصيّة المزعمة مع مضمون حديث الثقلين، وأن مضمون الوصية هو النص على إمامة أهل البيت عليهم السلام وأولهم الإمام علي عليه السلام، وأن النبي ﷺ أرادها أن تكون مكتوبة لتصبح وثيقةً باقيةً لا يمكن تجاوزها، لكنّ المؤسف أنّ ذلك لم يتحقق.

ثم إنّه بسبب اختلاف المسلمين المذكور ـ عقيب رحيل نبيهم المصطفى ﷺ ـ وما جرى على أهل بيته ﷺ من بعده من مآسٍ ومجازر وإعراض الناس عنهم، رعىٰ أئمة أهل البيت عليهم السلام شيعتهم وأثَروْا مدرستهم بعلومهم وهديهم وتوجيهاتهم عليهم السلام[12].

ومما تتميز به مدرسة أهل البيت عليهم السلام تبعيّتها لرؤية النبي ﷺ للإمامة ودورها المحوري في الأمة باعتبارها الحافظة للامة من الانحراف والموجّهة لها لتنعم بالأمن والاستقرار والرقي والكمال، وقد تضمّنت عِدّة نصوص معتبَرة بيان أهمية الإمامة والولاية ـ بعبارات شتى ـ (منها):

صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام

قال: «بني الاسلام على خمسة أشياء، على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن..» (١٣).

المهدوية وأهميتها

بعد وضوح أهمية الإمامة في الإسلام عموماً وفي مدرسة أهل البيت خصوصاً تتضح أهمية الاعتقاد بالمهدي المنتظر عليه السلام، باعتباره الإمام المعاصر لنا، والذي تضمّنت الأدلة العامة والخاصة وجوده وشرعيته وكونه الحجة على الأمة، وسيأتي التعرض لبعضها ضمن البحوث الآتية.

وينبغي هنا التعرض إلى موقف كلّ من جمهور المسلمين وشيعة أهل البيت عليهم السلام تجاه القضية المهدوية كلاً على حدة في ضمن مبحثين:

المهدوية لدى جمهور المسلمين

ونتعرض هنا إلى ثلاثة أمور..

الأول: ماروي في مصادرهم بشأن المهدي المنتظر عليه السلام عموماً.

الثاني: المصادر التي تناولت موضوع المهدي المنتظر عليه السلام.

الثالث: موقفهم من روايات المهدي المنتظر عليه السلام.

أما الأمر الأول: فقد وردت روايات كثيرة عن مجموعة من الصحابة في مصادر الجمهور تضمّنت أخبار المهدي عليه السلام وظهوره وانجازه حتىٰ إن أحد الباحثين ذكر أسماء واحد وثلاثين صحابياً روَوا أحاديث المهدي، منهم: علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، الحسين بن علي، جابر بن عبدالله الأنصاري، أبو سعيد الخدري، حذيفة بن اليمان، العباس بن عبد المطلب، أبوهريرة، عبدالله بن مسعود، عائشة بنت أبي بكر، وغيرهم (١٤)، بينما

ذكر الشيخ محمد أمين زين الدين ﷺ أن أخبار المهدي عليه السلام رويت عن خمسين صحابياً ومئات التابعين[١٥]، كما استعرض عدد من الباحثين ثمانية وثلاثين شخصاً من أئمة الصحاح والمسانيد والسُّنن[١٦] خرّجوا أحاديث المهدي المنتظر عليه السلام[١٧].

وفي مايلي نماذج من هذه الروايات المروية في المصادر المذكورة..

١- ما رواه عبد الرزاق (ت٢١١) بسنده عن أبي سعيد الخُدري قال: «ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله بلاءٌ يصيب هذه الأمة حتى لا يجد الرجل ملجأً يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله رجلاً من عترتي من أهل بيتي فيملأ الأرض به قسطاً كما مُلئت ظلماً وجَوراً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدَعُ السماء من قطرها شيئاً إلا صبّته مدراراً ولا تدَعُ الأرض من مائها شيئاً إلا أخرجته حتى تتمنى الأحياءُ الأمواتَ يعيشون في ذلك سبع سنين أو ثمان أو تسع سنين»[١٨].

٢- ما رواه أبو داوود (ت ٢٧٥هـ) وغيره بسنده عن ام سلمة: قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»[١٩].

وأما الأمر الثاني: فهناك الكثير من مصادر الجمهور التي تعرضت أو اختصت بأخبار المهدي المنتظر عليه السلام وأحواله، وهي صنفان..

الصنف الأول: المصادر العامة التي تعرّضت للمهدي المنتظر عليه السلام منها..

أ) **المصنَّف**: تأليف عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ).

ب) **الفتن**: تأليف الحافظ أبي عبد الله نُعَيم بن حمّاد المروزي (ت٢٢٩هـ).

ج) **المصنَّف في الأحاديث والآثار**: تأليف الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت٢٣٥هـ).

د) **مسند أحمد بن حنبل**: تأليف أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني

(ت٢٤١هـ).

هـ) **سنن ابن ماجة**: تأليف أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ).

و) **سنن أبي داوود**: تأليف أبي داوود سليمان بن الاشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ).

ز) **الجامع الصحيح المعروف بـ «سنن الترمِذي»**: تأليف أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت٢٧٩هـ).

ح) **التأريخ الكبير**: تأليف أبي بكر أحمد بن أبي خيثمة (ت ٢٧٩هـ)[٢٠].

ط) **شرح السّنة**: تأليف الحسن بن علي البربهاري الحنبلي (ت٣٢٩ هـ).

وغيرها كثير[٢١].

الصنف الثاني: المصادر المختصة بالمهدي المنتظر عليه السلام

أ) الأحاديث الواردة في المهدي: تأليف أبي بكر بن أبي خيثمة النسائي (ت٢٧٩هـ)[٢٢].

ب) جزء في المهدي: تأليف أحمد بن جعفر بن المنادي (ت٣٣٦هـ)، حيث ورد أنه قد جمع جزءاً في المهدي عليه السلام.

ج) أربعون حديثاً: تأليف أبي نعيم الاصفهاني (ت٤٣٠هـ) وهو كتاب خاص بالمهدي عليه السلام وأخباره.

د) الوعاء المختوم في السرّ المكتوم في أخبار المهدي: المنسوب إلى محيي الدين الحاتمي المعروف بابن عربي (٥٦٠-٦٣٨ هـ).

هـ) البيان في أخبار صاحب الزمان: تأليف أبي عبد الله محمد الگنجي الشافعي (ت٦٥٨هـ) وهو كتاب خاص بأخبار المهدي عليه السلام وأحواله.

و) العُرف الوردي في أخبار المهدي: تأليف جلال الدين بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) وهو كتاب خاص بالمهدي عليه السلام وأحواله.

ز) القول المختصر في علامات المهدي المنتظر: تأليف ابن حجر

الهيتمي (ت٩٧٤هـ).

وأما الأمر الثالث: وهو موقف علماء العامة من روايات المهدي المنتظر عليه السلام، فقد بنى أو صرح الكثير من شخصيات وعلماء الجمهور باعتبار روايات المهدي المنتظر عليه السلام، ونصّ بعضهم على تواترها، نذكر منهم:

١- سفيان الثوري (ت١٦١هـ)[٢٣]، حيث حكى عنه أبوداوود قوله: «وإن مرّ بك المهدي وأنتَ في البيت فلا تخرج إليه حتى يجمع الناس».

ويفهم منه أن أمر المهدي عليه السلام كان شائعاً مسلّماً عندهم[٢٤].

٢- الترمذي حيث عبر عن بعض ماورد بشأن المهدي عليه السلام «هذا حديث حسن صحيح»[٢٥].

٣- ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) قال: «إن الأحاديث التي يُحتجّ بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داوود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وغيره»[٢٦].

٤- ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) قال: «تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسى عليه السلام سينزل ويصلي خلفه»[٢٧].

٥- عبد العزيز بن باز (ت١٤٢٠هـ) مفتي السعودية العام ورئيس هيئة كبار العلماء قال: «إن أمر المهدي معلوم، والأحاديث به مستفيضة بل متواترة متعاضدة فهي بحق تدلّ علىٰ أن هذا الشخص الموعود بأمره ثابت وخروجه حق»[٢٨]، وقال أيضاً: «أما إنكار المهدي المنتظر بالكلية كما زعم ذلك بعض المتأخرين فهو قول باطل، لأن أحاديث خروجه في آخر الزمان، وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً، قد تواترت تواتراً معنوياً»[٢٩].

وقد استعرض بعض الباحثين أسماء سبعة وستين شخصاً من المتقدمين والمتأخرين منهم وقال: «وغيرهم كثير»[٣٠].

المهدوية لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام

يعتبر الاعتقاد بالمهدي المنتظر عليه السلام من أساسيات معالم مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن مكمّلات عقيدة شيعتهم في الإمامة، حتى عُرف ذلك واشتهر عنهم، وذلك لأنه عليه السلام الإمام الحالي الذي لابد من معرفته والإيمان به، لما ورد من النصوص الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من أن الأرض لا تخلو من حجة، وأن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية[٣١].

ونتعرض هنا إلى أمرين..

الأمر الأول: الأدلة الواردة في موضوع المهدي المنتظر عليه السلام.

الأمر الثاني: المصادر التي تناولت الموضوع.

أما الأمر الأول: فأهم ما يدل على العقيدة المهدوية عندهم دليلان:

أولهما: اتفاقهم على تحقق الغَيبة الصغرى وارتباط النواب الأربعة آنذاك بالإمام عليه السلام، وهو ما سوف نتعرض له لاحقاً.

ثانيهما: الروايات المتواترة الدالة على ظهور المهدي المنتظر، وهي على صنفين..

الصنف الأول: الروايات الواردة في تفسير أو تطبيق بعض الآيات وارتباطها بالمهدي المنتظر عليه السلام.

الصنف الثاني: الروايات المجرّدة عن التفسير المتضمنة للإخبار عن المهدي عليه السلام وشؤونه وما يرتبط به.

أما الصنف الأول: فهي روايات كثيرة (منها)..

١- صحيحة أبي حمزة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام -في حديث يتضمن تفسير عدة آيات- إلى أن قال: «وأما قوله ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[٣٢]، يعني قيام القائم عليه السلام»[٣٣].

٢- صحيحة أبي عبيدة الحَذّاء عن الإمام الباقر عليه السلام وفيها «... فقال لهم:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[٣٤]، والإمام يبشّرهم بقيام القائم وبظهوره...»[٣٥].

وأما الصنف الثاني ـ أي الروايات المجرَّدة عن تفسير وتأويل القرآن بالإمام المهدي عليه السلام ـ فهي كثيرة جداً، ونقتصر هنا على نماذج منها:

١ - موثقة سَماعة بن مهران قال: كنت أنا وأبو بصير ومحمد بن عمران مولى أبي جعفر عليه السلام في منزل بمكة فقال محمد بن عمران: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «نحن اثنا عشر مهدياً، فقال له أبو بصير: تالله لقد سمعتَ ذلك من أبي عبد الله عليه السلام؟ فحلف مرة أو مرتين أنه سمع ذلك منه. فقال أبو بصير: لكني سمعته من أبي جعفر عليه السلام»[٣٦].

وعلى هذا يكون نفس الكلام صادراً عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.

٢ - صحيحة غياث بن ابراهيم عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أنكر القائمَ من ولدي فقد أنكرني»[٣٧].

وسيأتي التعرض لغيرها من الروايات المعتبرة في ضمن البحوث الآتية بحسب مناسبة مضمونها.

وأما الأمر الثاني: ـ أي المصادر الشيعية التي تناولت موضوع المهدي المنتظر عليه السلام ـ فهي علىٰ صنفين:

الصنف الأول: المصادر الروائية العامة المشتملة على روايات المهدي عليه السلام.

الصنف الثاني: المصادر المختصة بأخبار المهدي عليه السلام.

أما **الصنف الأول** فهي كثيرة، (منها)..

١ - كتاب سليم بن قيس الهلالي (ت٨٠هـ).

٢ - المشيخة: تأليف الحسن بن محبوب السرّاد وفي بعض المصادر «الزراد» (ت٢٢٤هـ).

٣- المحاسن: تأليف أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤ أو ٢٨٠هـ).

٤- تفسير العياشي: تأليف محمد بن مسعود عياش السمرقندي «العياشي» (في القرن الثالث الهجري).

٥- الكافي: تأليف أبي جعفر بن محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ) وهو من الكتب الحديثية الأساسية.

٦- الارشاد في معرفة حجج الله على العباد: تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن نعمان العسكري البغدادي، المعروف بالمفيد (ت٤١٣هـ).

وأما الصنف الثاني: ـ أي المصادر المختصة بأخبار المهدي عليه السلام ــ فهي كثيرة أيضاً، منها..

١- الغَيبة: تأليف الفضل بن شاذان النيسابوري (ت ٢٦٠هـ).

٢- الغَيبة: تأليف محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب المعروف بالنعماني (ت حوالي ٣٦٠هـ).

٣- كمال الدين وتمام النعمة: تأليف محمد بن علي بن الحسن بن بابويه الصدوق (ت ٣٨١هـ).

٤- الغَيبة: تأليف الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ).

٥- معجم أحاديث الامام المهدي عليه السلام: تأليف ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية.

الخلاصة

١- تسالم المسلمون على الاعتقاد بخروج المهدي المنتظر عليه السلام.

٢- بالنسبة لجمهور المسلمين تضمنت الكثير من رواياتهم التعرض للمهدي المنتظر عليه السلام حتى إن الكثير منهم اعتبر الروايات في ذلك متواترة.

٣- تضمنت الكثير من مصادر الجمهور التعرض لأخبار المهدي المنتظر عليه السلام حتى إن الكثير منهم قد

ألّف كتباً خاصة في ذلك مما يدل على أهمية الموضوع لديهم.

٤- يعتبر الاعتقاد بالإمام المهدي عليه السلام وظهوره من أساسيات معالم مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن مكملات عقيدة شيعتهم في الإمامة.

٥- أهم مثبتات عقيدة شيعة أهل البيت عليهم السلام أمران..

أ) اتفاقهم على تحقق الغَيبة الصغرى التي استمرت حوالي سبعين عاماً وارتباط النواب الأربعة بالإمام المهدي عليه السلام ارتباطاً مباشراً.

ب) النصوص المتواترة المروية في مصادرهم -سواء منها ما تضمن تفسيراً أو تطبيقاً للآيات الكريمة أم غيرها-.

٦- هناك الكثير من المصادر الشيعية التي تضمنت أخبار الامام المهدي المنتظر عليه السلام، بما فيها الكتب الخاصة بذلك.

الهوامش:

[١] يسّى: شخصية ذكرت في (الكتاب المقدس) في سفر حموئيل الأول، وهو والد الملك داوود ثالث ملوك اسرائيل... ولد وعاش في بيت لحم... وكان من سبط يهوذا. ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

[٢] المقصود من ذلك أن المصلح الموعود من ذرية اليسّى.

[٣] الكتاب المقدس: اشعياء: الاصحاح الحادي عشر: ١٠٠٥.

[٤] ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

[٥] العهد الجديد: لوقا: ١٢/ ٢٠٧.

[٦] العهد الجديد: مرقس: ١٣/ ١٣٩.

[٧] المصدر: يوحنا: ١٦/ ٣٠٣ و٣٠٧.

[٨] انظر: الجامع الصحيح: ٤/ ٢٩.

[٩] صحيح مسلم: ١١/ ٩٥.

[١٠] سورة المائدة: ٦٧.

[١١] الجامع الصحيح «الترمذي»: ٥/ ٦٦٣.

[١٢] انظر كتاب «دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة».

[١٣] الكافي: ٢/ ١٨.

[١٤] انظر «كتاب المهدي»: ٦٧.

[١٥] انظر (مع الدكتور أحمد أمين) في حديث المهدي والمهدوية: ٧٢-٧٥.

[١٦] الفرق بين الصحاح والمسانيد والسنن

عند الجمهور: أن الصحاح تمتاز بعناية مصنفيها بجمع صحيح الحديث وترك ضعيفه وترتيب الحديث حسب الموضوعات، كما عمل البخاري ومسلم.

[١٧] والمسانيد تمتاز بأن أصحابها جمعوا مسند كل صحابي على حدة من دون اعتبار لحال الحديث صحة وضعفاً، ومن غير ترتيب موضوعي، كما عمل أحمد بن حنبل والحميدي.

[١٨] والسنن تمتاز أن أصحابها اعتنوا بجميع الأحاديث حسب الموضوعات من دون التقيد بكونها ثابتة، بل أدخلوا فيها بعض الأحاديث الضعيفة، كما عمل الترمذي وأبو داوود. (انظر: الموسوعة الحرة/ اسلام ويب).

[١٩] انظر كتاب «المهدي» ٦٨. و عبد المحسن العباد في مجلة الجامعة الاسلامية: العدد: ٣/ ٧٠.

[٢٠] المصنف: ١٥/ ١٩٨.

[٢١] سنن ابي داوود: ٤/ ١٠٧، عقد الدرر في اخبار المنتظر: ٣٥.

[٢٢] قال ابن خلدون: (ولقد توغّل أبو بكر بن أبي خيثمة – على ما نقل السهيلي عنه– في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي) مقدمة ابن خلدون ١/ ٣١٢.

[٢٣] انظر كتاب (المهدي): ٦٨-٧٣.

[٢٤] قال السهيلي (٥٠٨-٥٨١هـ) في الروض الآنف: «الأحاديث الواردة في المهدي كثيرة، وقد جمعها أبوبكر بن أبي خيثمة فأكثر».

[٢٥] انظر كتاب «المهدي»: ٧٠.

[٢٦] المصدر: ٨١.

[٢٧] الجامع الصحيح (الترمذي): ٤/ ٥٠٥.

[٢٨] منهاج السنة: ٤/ ٢١١.

[٢٩] فتح الباري: ٥/ ٣٦٢.

[٣٠] مجلة الجامعة الاسلامية: العدد ٣/ ١٦١-١٦٢.

[٣١] مجلة عكاظ: رقم: ١٠٨/ محرم عام ١٤٠٠هـ.

[٣٢] انظر كتاب (المهدي): ٧٠-٧٣.

[٣٣] انظر الكافي: ١/ ١٧٨ - ١٧٩ و٣٧٦-٣٧٧.

[٣٤] الكافي: ١/ ١٤٥.

[٣٥] الانعام: ٤٤.

[٣٦] يونس: ٦٤.

[٣٧] المصدر: ١/ ٤٢٩.

[٣٨] الكافي: ٣٣٥.

[٣٩] كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٢.

علی عباس بور
باحث حوزوي.
ترجمة: حسين صافي

التجليات الأدبية والبلاغية لتفسير درة المعاني للملا عبد الله البهابادي اليزدي

ملخص

لعلم التفسير مكانة فريدة ليست لأيٍّ من العلوم الإسلامية، والإحاطة بمفاهيم القرآن تطلّبت ظهور علوم أولية مثل علم الصرف والنحو والقراءة والبلاغة (المعاني والبيان والبديع) لتهيئة مقدمات فهم ظاهر القرآن، فالشيعة تعتقد أنّ للقرآن معانٍ ظاهرة وباطنة. المعاني الظاهرية للقرآن تستخرج من خلال البحث في الآيات الأخرى ودراسة قواعد الصرف والنحو والبلاغة، أمّا المعاني الباطنة فلا مجال للوصول إليها إلّا عبر الانتهال من نمير العلوم الصافي للأئمة المعصومين عليهم السلام. منذ نزول أولى شآبيب الوحي الإلهي دُوّنت تفاسير عديدة

ذات مشارب واتجاهات متنوعة روائية وعقلية وأدبية وعرفانية وغيرها من أجل توضيح الأبعاد اللامتناهية للقرآن الكريم. من بين التفاسير الأدبية التي ظهرت في القرن العاشر الهجري تفسير درة المعاني في تفسير سورة الحمد والإخلاص للعلامة الملا عبد الله البهابادي اليزدي. يتناول المؤلف النحرير في التفسير المذكور مباحث من قبيل التركيز على جذور الألفاظ، وقاعدة التخصيص وقاعدة الالتفاف لغرض تبيين المفاهيم التي تنطوي عليها سورتي الحمد والإخلاص المباركتين. جدير بالذكر أنّ الصبغة الأدبية هي الغالبة على تفسير سورة الحمد المباركة بينما يتميّز تفسير سورة الإخلاص بصبغة عقلية.

في هذه الورقة، يحاول الكاتب، على نحو إجمالي، بأسلوب تحليلي دراسة بعض القواعد المستخدمة في تفسير درة المعاني للمرحوم الملا عبد الله البهابادي ودور العلوم الثلاثة الصرف والنحو والبلاغة كتجليات أدبية وبلاغية في التفسير المذكور.

الكلمات المفتاحية: التفسير، درة المعاني، الألفاظ، النحو، الصرف، البلاغة.

مقدمة

١. مكانة القرآن الكريم عند العلماء والمسلمين

القرآن كتاب سماوي نزل لهداية البشرية وترسيم طريق التكامل. وهو في حدّ ذاته معجزة عجز الآخرون عن الإتيان بمثله. يمكن دراسة إعجاز القرآن من زوايا عدّة إحداها الإعجاز الأدبي والبياني. نظم إيقاع القرآن في ضوء بعض المحسنات البديعية مثل السجع ومراعاة الفواصل أكسبت هذا الكتاب السماوي تركيبة فريدة إعجازية. مع ذلك ينبغي أن لا تغيب عن بالنا هذ المسألة وهي أنّ إعجاز القرآن وتركيبته الخلاقة لا تقتصر على هذه الأمور فحسب، فسواء قلنا

بوجود السجع والفواصل في القرآن أم لم نقل، يبقى نظم القرآن وإيقاعه وجماله وسحره قائمًا.

ما برح القرآن بوصفه حجر الزاوية في البنية الفكرية للمسلمين وأهم ينابيع الفكر والتعاليم الإسلامية، موضع عناية واهتمام المسلمين والعلماء، وأثمر اهتمامهم وجهودهم الحثيثة في فهم معاني القرآن إلى تدوين آلاف التفاسير لكتاب الوحي الإلهي وبمشارب واتجاهات مختلفة ومتنوعة ضمّتها مئات المجلدات. وتشي كثرة التفاسير المدوّنة باهتمام المسلمين الوافر بهذا الكتاب الخالد، هذه الصحيفة المقدسة التي ترسم مسيرة النهوض للبشرية نحو دار الخلد، كما كان لهذه الوفرة من التفاسير حصة كبيرة في دينامية المسلمين واعتلائهم وتكاملهم.

٢. ريادة الشيعة في تفسير القرآن

كان علم تفسير القرآن وما يزال من العلوم المباركة والمفيدة للغاية عند المسلمين. فقد مرّ منذ بدايات تأسيسه وحتى اليوم بتطورات عديدة. في القرون الأولى من نزول الوحي، على سبيل المثال، ظهر التفسير بشكل بسيط لا يتجاوز نطاق شرح الألفاظ بالاستناد إلى المأثور والأخبار، واستمرّت مسيرة التفسير بتؤدة فشهدت في مراحل لاحقة توسّعًا كبيرًا وتحوّلًا عميقًا حتى بلغت مرحلة الكمال وأصبحت حركة وعلمًا قائمًا بذاته في حقل الفكر والمعارف الإسلامية.

وعلى العكس من اتهامات الوهابية المعاصرة للشيعة بأنّ علم التفسير مهجور عندهم، كان الشيعة أول من خدم القرآن الخدمة الحقيقية. فالمصنّفات القرآنية لغير الشيعة كانت تصبّ في الغالب في خانة المباحث التمهيدية مثل الأدب والنحو والبلاغة والتجويد وعلم القراءات وتاريخ النزول.. إلخ، وبالنسبة

للنظرة الروائية فإنّ جمهرة الأحاديث المختلقة والموضوعة والإسرائيليات كانت مدعاة لتفريغ ظاهر القرآن من أيّ قيمة للتمسك به، كما أنّ دخول الرؤية التأويلية بقوة على الخط والتي نلاحظها بوضوح في بعض تفاسير أهل السنّة مثل تفسير البيضاوي كل هذه الأسباب أدّت إلى إضعاف الدور الهدائي للقرآن،[1] لكنّ الشيعة وعلى الرغم من سابقتهم الطويلة وريادتهم للعلوم التمهيدية للقرآن مثل علم القراءة والتجويدو الإعجام والتشكيل والتدوين وفضل القرآن ومعاني القرآن وغريب القرآن والمجاز القرآني وأمثال القرآن وأحكام القرآن وغير ذلك، بل وكانوا المؤسّسين لهذه العلوم والفنون،[2] إلّا أنّهم اضطلعوا بالمهمة الرئيسية في هذا المجال أعني الصيانة الحقيقية للمقاصد الإلهية من كلام الوحي، ولذلك تجد أنّ الآراء التفسيرية للشيعة أقل اختلافًا وأقرب إلى المنطق والمعقولية على العكس من تفاسير أهل السنّة التي تعجّ بالتناقضات والاختلافات.

٣. مسيرة التفسير القرآني في العهد الصفوي

في العهود التي سبقت صعود الدولة الصفوية، لم يكن علم التفسير يحظ بالاهتمام الكافي وذلك لعوامل عدة منها ابتعاد علماء الشيعة عن مركز صنع القرار السياسي وعدم الشعور بالحاجة إلى كتب أحكام القرآن،[3] ولكن بعد استقرار الدولة الصفوية والاعتراف بالمذهب الشيعي كمذهب رسمي للبلاد ورغبة ملوك الصفوية في إدارة البلاد على أساس أحكام هذا المذهب الجديد، تضاعف الاهتمام بالتفسير بشكل غير مسبوق. وتبعًا لذلك، شهد علم التفسير في ذلك العهد عصرًا ذهبيًا، فتتابعت التصانيف العلمية الشيعية في مختلف الحقول والميادين ليتسارع تعجيل مسيرة التكامل والاعتلاء الشيعية.

وقد ظهرت في هذا العصر ثلاثة

تيارات رئيسية في حقل التفاسير الشيعية اقتضتها التحولات السياسية والاجتماعية المستجدة. التيار الأول هو التيار الكلامي، وباعتقاد كاتب السطور أنّه على الرغم من تصنيف بعض تفاسير هذا العصر كتفسير صدر الشيرازي بالتفسير الفلسفي، إلّا أنّها كانت ذات نزعة كلامية فهي ليست فلسفية في جوهرها وإن بدت بطابع فلسفي. التيار الثاني، تيار حديثي وأخباري. في تلك الفترة خرج الشيخ الميرزا محمد أمين الاسترابادي بادعاء مفاده أنّه من أجل فهم الدين لا بدّ من الرجوع إلى الأخبار والروايات. بينما تمحور التيار الثالث حول الشريعة فتجلّت الأحكام الفقهية من خلال التفاسير.

سورة الحمد المباركة

بالنسبة لمكانة سورة الحمد لا بدّ من القول: إنّها من أهم سور القرآن الكريم وتتمايز على باقي السور بخصوصية خاصة. فوجوب قراءتها في الصلوات اليومية وكذلك ما تنطوي عليه من معارف راقية أخلاقية واجتماعية وعرفانية شكّلت أسبابًا لفتح باب خاص لهذه السورة قليلة الآيات وكثيرة المضامين والمعاني في علم الفقه وعلم الأخلاق والعرفان الإسلامي. ودعت أهمية السورة وعظمتها مفسّري القرآن الكريم أيضًا لينظروا نظرة خاصة إليها، وإفراد كتب مستقلة في شرحها وتفسيرها بحيث يمكن القول أنّه أصبح لدينا تراث عظيم وغني يضمّ ببليوغرافيا ضخمة مخصّصة لتفسير سورة الحمد تشمل مئات الكتب في تفسير هذه السورة المباركة خُطّت بأقلام علماء مسلمين فطاحل من مختلف المشارب والانتماءات المذهبية (الشيعية الإثني عشرية، الشيعة الزيدية، المالكية، الشوافع، الحنابلة، الأحناف) وعبّر كل منهم عن وجهة نظر فكرية خاصة (عرفانية، فلسفية،

كلاميـة، روائيـة) ضـمن خارطـة جغرافية مترامية الأطراف.

«بِسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»

لا خلاف بين علماء الشيعة على أنّ البسملة «بسم الله» جزء من سورة الحمد وجميع سور القرآن أيضًا. وكان ذكر «بسم الله» في مستهل السور معمولًا به منذ عصر النبي ﷺ وحتى يومنا، وجرت على ذلك سيرة المسلمين على مرّ العصور، أي عند الشروع بتلاوة القرآن تُستهلّ القراءة بالبسملة، وقد ثبت بالتواتر أنّ النبي الأكرم ﷺ كان يفعل ذلك، فأنّى له ﷺ والمسلمون على إثره أن يقرأوا البسملة ويواظبوا عليها إن لم تكن جزءًا أصيلًا من القرآن.(٤)

تفسير «اسم»

إذا كان المقصود من «اسم» في الآية الشريفة الألفاظ الدالة على الذات أو الذات التي تنطوي على الصفات، فالأقرب إلى الذهن هو أن تكون الباء في البسملة «بسم الله» متعلقة بابتداء «المصدر المضاف» أو ابتداء «الفعل المضارع» فيكون المعنى ابدأ بذكر اسم الله الرحمن الرحيم. أو أشرع بتنزيل هذه الآيات البينات باسم الله الرحمن الرحيم.

أمّا إذا كان المقصود من الاسم الموضوعات والحقائق التي بواسطتها يعرف الإنسان ربه جلّ وعلا مثل الرحمن والرحيم والعالم والقادر والرب والحيّ والمدرك وأمثالها فالأنسب هو أن تكون الباء متعلقة بتمام تنزيل السوة المباركة أو القرآن الكريم، أعني، أنزّل القرآن أو هذه السورة تحت عنوان رحمانية أو رحيمية الله تبارك وتعالى، لأنّ نزول جميع البركات وأهمها نعمة نزول الوحي والآيات البينات نابعة من صفة الرحمانية والرحيمية، ولا تتحقّق ولا تنوجد إلّا في ظل تجليات رحمة الحق، وأنّ العلم والقدرة والحكمة وأمثالها من الأسماء المقدسة التي تلي الرحمة في الرتبة، لها تأثير في تنزيل

البركات أو كيفيته.

فضل البسملة «بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ»

قالَ الله عَزَّ و جَلَّ... اِذا قالَ العَبدُ: «بِسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ» قالَ الله ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ: بَدَاَ عَبدی بِاسمی، وَ حَقٌّ عَلَیَّ اَن اُتَمِّمَ لَهُ اُمورَهُ و اُبارِك لَهُ فی اَحوالِهِ».(٥)

وقال النبي الأكرم ﷺ: اَلْعَبد... إِنْ قالَ فی أَوَّلِ وُضوئِهِ بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحیمِ طَهُرَت أعضاؤُهُ كلُّها مِنَ الذُّنوبِ».(٦)

وقال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنِ اسْتَمَعَ إلى قارىءٍ يَقرَؤُها [بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ] كانَ لَهُ بِقَدرِ ما لِلْقارِئ».(٧)

«الحمد لله رب العالمين»

يشير المرحوم الملا عبد الله في تفسير الآية الشريفة «الحمد لله رب العالمين» إلى مبحث اللام ويوضّح بأنّ كل نعمة تعود إلى لام الاختصاص ويقول بأنّ كل نعمة هي عطيّته، وعليه، فالحمد له وحده على كل نعمة، حتى مع وجود واسطة، لأنّ الحمد هو ذكر النعمة، وذكر النعمة يكون بذكر إحسان المنعم، وإلّا لم يكن ذكر لنعمته. لذا، فحمد النعم يختصّ بالله وحده، ومن هنا إلحاق لام الاختصاص باسم الجلالة «الله» لبيان هذا المعنى.

مفهوم الحمد، خليط من مفهوم المديح والشكر. يطلق الإنسان لسانه بالحمد إزاء الجمال والكمال ولسانه بالشكر إزاء نعم الآخرين وخدماتهم وإحسانهم. فالله تبارك وتعالى يستحق الحمد لكماله وجماله، ويستحق الشكر لإحسانه ونعمه.

«الرحمن الرحيم»

اشتهر بين جماعة المفسرين أنّ صفة «الرحمان» إشارة إلى الرحمة العامة لله، والتي تشمل الصديق والعدو، والمؤمن والكافر والمحسن والمسيء؛ لأنّنا نعلم

أنّ «شآبيب رحمته اللامتناهية نزلت على الجميع، وخوان نعمه السابغة أقيمت في كل مكان.» كل العباد ينعمون بمختلف مواهب الحياة، وينالون رزقهم من خوان النعم الإلهية اللامتناهية، وهو ما يطلق عليها الرحمة العامة التي وسعت الوجود كله والجميع يسبح في بحر جوده.[٨]

«الرحيم» إشارة إلى رحمة الله الخاصة، التي يخصّ بها عباده المطيعين الصالحين؛ لأنّهم بحكم إيمانهم وعملهم الصالح استحقّوا رحمته ومغفرته وإحسانه الخاص، وليس للمذنبين والمسيئين نصيب من هذه الرحمة الخاصة.

«مالك يوم الدين»

في تفسيره للآية الكريمة «مالك يوم الدين» يستعرض أولًا القراءات المختلفة ويشرح التركيب الخاص لكل قراءة. وللمثال يقول: من قرأ «مالك» بفتح اللام فقد عدّ الفعل ماضيًا ولذلك اعتبر «يوم» ظرف للفعل الماضي.[٩]

«مَلِك يَوْمِ الدِّينِ»، من هو مالك ذلك اليوم؟ من هو المقرّر؟ «مالك» تعني المالكية وكذلك تعني الملكية أي الملك والسلطان وصاحب الأمر والمالك وصاحب القرار. من المهم جدًا أن يعرف المرء أنّه هو «الله» و «الرحمن» و «الرب». إنّنا نحتاجه ليس في هذه الدنيا فقط، بل إنّ مستقبلنا مربوط به أيضًا. إنّه مالك مستقبلنا وآخرتنا وصاحب أمرنا. عندما نغادر هذه الدنيا فلن يكون في العالم الآخر أرباب أو خالق آخر غيره. إذن، مستقبلنا أو آخرتنا أيضًا في قبضة يمينه.

ترجيح قراءة مالك

ترتبط كلمة «يوم» و «يومئذ» في أغلب المواضع التي وردتا في القرآن الكريم بعالم الآخرة (البرزخ والقيامة)، وقد جاءتا بصيغة الظرف، وليس المملوك، وهو تمهيد للاستئناس القرآني يمكن على أساسه أن نعدّ

«مالك يوم الدين» في الآية الكريمة أيضًا ظرفًا وليس مملوكًا كأن نقول مثلًا: قاضي يوم الدين، شفيع يوم الدين؛ إذن الكلام هنا ليس عن كونه تعالى مالك يوم الدين، ويوم الدين مملوك لله، وإنّما المالكية المطلقة لله سبحانه سوف تظهر إزاء جميع الأشياء في ذلك الظرف الخاص، وهذا المعنى أكثر انسجامًا مع قراءة مالك.

وعلى هذا، فمعنى الآية الكريمة «مالك يوم الدين» أنّ الله تعالى في ذلك اليوم مالك الأشياء، ومالكيته في ذلك اليوم سوف تظهر للجميع، لا بمعنى أن الله تعالى مالك ذلك اليوم.

استنادًا إلى ترجيح قراءة مالك، يبيّن معنى «مالك يوم الدين» الوجه الإثباتي لتلك الحقيقة، حيث تُظهر الآية الكريمة الأخرى «يوم لا تملك نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله»[١٠] الوجه السلبي لها. وإن كانت المالكية المطلقة لله سبحانه على الأشياء لا تختصّ بعالم الآخرة وحده، ولكن نظرًا إلى أنّ هذه الحقيقة سوف تظهر للجميع عيانًا ويعترفون بها في ذلك اليوم، فإنّ «يوم الدين» يُطرح في الآيات الكريمة كظرف للمالكية الإلهية.

«إياك نعبد وإياك نستعين»

يناقش العلامة الملا عبد الله في تفسير الآية الشريفة «إياك نعبد وإياك نستعين» قاعدتين أدبيتين مهمتين. القاعدة الأولى «تقديم ما حقّه التأخير» والتي يُستنبط منها الحصر والاختصاص. مع التوضيح بأنّ تقديم المعمول على العامل أو، تقديم ما حقّه التأخير دليل على الحصر. طبعًا هذا الدليل يكون قائمًا عندما لا يكون التقديم لدواعي سجع الآيات وما شابه، على الرغم من أنّ التقديم أحيانًا يفيد الحصر، وفي نفس الوقت تتم مراعاة سجع الآيات.

يقول كل من الزمخشري والطبرسي والملا عبد الله البهابادي: في الآية الكريمة «إياك نعبد وإياك نستعين» تمّ

تقديم المفعول لغرض الاختصاص، فمعنى الآية: «نخصّك وحدك بالعبادة، ونخصّك وحدك بالاستعانة».[١١]

وفي اختيار هذا السياق الخاص تكمن أسرار نشير إلى بعضها:

أ: فالموحد الذي يعتقد بأنّ الذات الإلهية المقدسة هي الجامعة والمنشأ لكل كمال وجمال، ويعتقد بربوبيته ومالكيته المطلقة، يرى الله تعالى أولًا وقبل كل شيء، ويقدّم «إياك» ليجعل العبادة حقّه الحصري.

ينزع الإنسان عن نفسه حجب الغفلة ولا يرى سوى الله، فيتحدّث عنه أولًا، ومن هنا جاءت كلمة شهيد في الآية الكريمة «أولم يكف بربّك أنّه على كل شيءٍ شهيد»[١٢] بمعنى المشهود لا الشاهد، بمعنى أنّه عندما يلاحظ أيّ شيء يرى الله قبله، ثمّ يرى غيره الذي هو من آياته وتجلياته، وحيث أنّ الله تعالى مشهود غالب على كل الشهود، فقد جاءت كلمة شهيد مجرورة بحرف الجر «على».

ب: العابد الذي يرى المعبود ابتداءً ويعتقد أنّه الجمال المحض والكمال الخالص، لا يشعر بمشقة العبادة وصعوبتها. العبادة في البداية تنطوي على صعوبات ومشقة لسالكي طريق الحق، وعلى هذا الأساس كان الصبر على الطاعة من أتمّ الفضائل ورأس الإيمان: «فإنّ الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».[١٣]

في الآيات الأولى من سورة الحمد المباركة يكون الكلام بلغة الغائب، ثم يتحوّل في المقطع الأخير من السورة، الذي يبدأ مع الآية موضع النقاش، إلى لغة الخطاب الحضوري. يسمّى هذا التحوّل في السياق في العلوم الأدبية (علم البديع) الالتفات من الغائب إلى الحاضر، وهو لأغراض المحسنات البديعية وإضفاء جمالية على الكلام، وزمامه يكون بيد المتكلم حيث يسعى إلى تزويق الكلام وتنويعه فيفترض الشخص غائبًا تارةً وحاضرًا أخرى، بيد أنّ الالتفات من الغائب

إلى الحاضر في الآية الكريمة ليس تفننًا أدبيًا فحسب ليكون زمام الكلام بيد المتكلم، فيختار بين أن يخاطب الله سبحانه وتعالى بلغة الغائب مرة، وبلغة الحاضر مرة أخرى؛ وإنّما زمام الكلام بيد المخاطب.

مع التوضيح بأنّ فهم الأسماء الحسنى والقبول بها كما ورد في بداية السورة هو لاستدعاء الإنسان الغائب للمثول بين يدي الله تعالى. عندما يثبت للمرء أنّ الله سبحانه جامع لكل الكمالات الوجودية؛ وأنّ «الله» الربوبية المطلقة على جميع عوالم الوجود الإمكاني؛ و «رب العالمين» رحمته المطلقة التي تظلّل كل شيء؛ و «الرحمن» الرحمة الخاصة للمؤمنين والسالكين؛ و «الرحيم» وأخيرًا مالكيته اللامتناهية سوف تظهر في يوم الدين؛ وهو «مالك يوم الدين» ولا موجود غيره يستحقّ الخضوع والخطاب، عندما يؤمن المرء بكل هذه المعارف، سوف يحضر من غيبته، ويجد نفسه ماثلًا بين الله سبحانه وتعالى، حينئذ فقط سوف يستحق المخاطبة. إذن، التحوّل يحصل في المتكلم من الغيبة إلى الحضور، لا في المخاطب الذي لم يغب أبدًا؛ بيد أنّ الذي لا يدرك الأسماء الحسنى أو لم يعتقد بها أصلًا لا يستحق المخاطبة، ولا المثول بين يدي الله تعالى، فهو لم يزل غائبًا، على الرغم من أنّ الله تعالى مشهود مطلق.

الجمع والجماعات في الإسلام

تشير صيغة الجمع في «نعبد» و «نستعين» والآيات التي تليها إلى أنّ أصل العبادة وخاصة الصلاة قائمة على مبدأ الجمع والجماعة، فحتى عندما يقوم العبد لربه متضرّعًا ومناجيًا، يجب عليه أن يجد نفسه بين الجماعة، ناهيك عن بقية الأعمال والشؤون الحياتية. وعلى هذا، فإنّ الفردانية أو الأحادية أو الانعزالية وما شابهها من المفاهيم مرفوضة من وجهة نظر القرآن الكريم والدين الإسلامي الحنيف. على

الأخص الصلاة بدءًا بالأذان والإقامة التي تنادي إلى الاجتماع للصلاة (حي على الصلاة) مرورًا بسورة الحمد التي نبدأ بها صلاتنا، وانتهاء بالسلام والتشهد (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) كلها تدلّ على أنّ هذه العبادة تنطوي على بعد اجتماعي؛ بمعنى، يجب أداؤها جماعةً، نعم، الصلاة فرادى صحيحة ومقبولة في الإسلام، إلّا أنّ العبادة الفردية ذات بعد فرعي وتأتي بالدرجة الثانية.

«صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»

في تفسيره الآية الشريفة «صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» يستهلّ التفسير ببحث حول القراءات[١٤]، ويواصل مع مبحث النحو والصرف ويقول: «عَلَيْهِمْ» جار و مجرور متعلقان بأنعمت.[١٥] «غَيْرِ» صفة الذين.[١٦] «الْمَغْضُوبِ» مضاف إليه. «عَلَيْهِمْ» متعلقان بالمغضوب. «وَ لَا» الواو عاطفة، لا زائدة لتأكيد معنى النفى فى غير.[١٧] «الضَّالِّينَ» معطوف على المغضوب عليهم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.[١٨]

سورة الإخلاص المباركة

في تفسير سورة الإخلاص المباركة يستعرض المرحوم الملا عبد الله عددًا من الروايات في شأن نزول السورة وفضلها فيقول أنّ من جملة ما ورد في فضل سورة الإخلاص «أنّها تعدل ثلث القرآن»، فاستنبط العلماء لذلك وجهًا مناسبًا وهو أنّ القرآن مع غزارة فوائده اشتمل على ثلاثة معان فقط: معرفة ذات الله تعالى وتقدّس، ومعرفة صفاته وأسمائه، ومعرفة أفعاله وسننه مع عباده. وهو ما انعكس بنحو أتمّ وأكمل في هذه السورة. ولما تضمّنت سورة الأخلاص أحد هذه الأقسام الثلاثة – وهو النفوس- وازنها رسول الله بثلث القرآن.[١٩]

وكما ذكرنا فإنّ الطابع الفلسفي الروائي هو الغالب على هذه السورة. ولكنّها مع ذلك لا تخلو من الملاحظات الأدبية. على سبيل المثال، صرّح علماء النحو أن استعمال الضمير هو لرعاية الاختصار في الكلام، ولكن أحيانًا يستعمل الاسم الظاهر بدلًا من الضمير لغرض التأكيد. (٢٠)

يقول السيوطي: الهدف من هذا الاستعمال زيادة التقرير والتمكين؛ مثل «قل هو الله أحد. الله الصمد»، وكذلك المرحوم الملا عبد الله يؤكّد على هذا القول، علاوة على ذلك فإنّ «هو» ضمير فصل وللتأكيد أيضًا.

ويقول في تفسير الآية الكريمة «قل هو الله احد»: «قل» فعل، و فاعل «هو» ضمير شأن يتقدّم قبل الجملة الإسمية مبتدأ، «الله» مبتدأ ثان، «أحد» خبر «الله» والجملة خبر «هو». وهنا يذكّر بقاعدة في اللغة العربية فيقول: فإن قلت: أين العائد الذي يربط الجملة بالمبتدأ؟ قلت: قالوا: إنّ الخبر إذا كان مفسّرًا للمبتدأ فلا حاجة إلى عائد، وهنا كذلك. (٢١)

وفي تفسير الآية الكريمة «لم يلد و لم يولد» يقول: اعترض عليه بأنّ سيبويه قد نصّ على أنّ الخبر قد يقدّم على الاسم في باب «كان» ولكن متعلّق الخبر حينئذ لا يقدّم على الخبر؛ لئلا يلزم العدول عن الأصل بمرتبتين، فكيف قدّم الظرف وهو «له» على الاسم والخبر جميعًا؟

أجاب النحويون: بأنّ هذا الظرف وقع بيانًا للمحذوف كأنّه قال: «ولم يكن كفوًا أحد». (٢٢)

المصادر:

* القرآن الكريم.
* نهج البلاغة.
[١] ابن بابويه، محمد بن علي، الامالى، ترجمة: محمد باقر كمرئي، طهران، منشورات كتابچى، ط. ٦، ١٣٧٦.
[٢] ـــــــــ؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، طهران، منشورات جهان، ١٣٧٨هـ.
[٣] استادى، رضا؛ تفسير منتسب به امام حسن عسكرى عليه السلام؛ قم: مؤسسة تبيان الثقافية والمعلوماتية، ١٣٨٧.
[٤] البحراني، السيد هاشم الحسيني، البرهان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، قم، ١٣٣٤ ش.
[٥] بهشتي، محمد، خدا از ديدگاه قرآن، منشورات مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٧٤، ط. ٧.
[٦] الخميني، السيد مصطفى؛ تفسير القرآن الكريم، منشورات مؤسسة إعداد ونشر تراث الإمام الخميني، ١٤١٨هـ، ط. الأولى.
[٧] رضائي أصفهانى، محمد على؛ منطق تفسير قرآن (١) روش‌ها و گرايش‌هاى تفسير قرآن، منشورات جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، قم، ١٣٨٥ ش.
[٨] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر، ١٤٠٧هـ، الاتقان فى علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.
[٩] مكارم شيرازي، ناصر وجمع من الباحثين، تفسير الأمثل، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٦٤ ش.

الهوامش:

[١] عابدينى، عظيم؛ فعاليت‌هاى تفسيرى علامه ملاعبدالله بهابادى؛ ص ٢.
[٢] الصدر، السيد حسن؛ تأسيس الشيعه؛ صص ٣١٥ إلى ٣٤٧.
[٣] دوّنت قبل العصر الصفوي تفاسير فقهية مختلفة منها على سبيل المثال: تفسير فقه‌القرآن لسعيد بن هبة الله الراوندي (٥٧٣هـ)، وتفسير منهاج‌الهدايه ابن متوج البحراني (٨٢٠هـ) وتفسير كنزل العرفان لفاضل مقداد (٨٢٦هـ).
[٤] تفسير الأمثل.
[٥] ابن بابويه، محمد بن علي، الامالى، ترجمة: محمد باقر كمرئي، ص ١٧٧٤. ابن بابويه، محمد بن على، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٣٠٠، ح٥٩.
[٦] استادى، رضا؛ تفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ ص ٥٢١، ح ٣١٩.

[٧] المصدر نفسه؛ ج ١، ص ٣٠٢.
[٨] مكارم شيرازى، ناصر؛ تفسير الأمثل، ج ١، ص ٣٢٠.
[٩] بهابادى، الملا عبد الله، درة المعانى، ص ١٤.
[١٠] سوره الانفطار، الآية ١٩.
[١١] البهابادي، الملا عبد الله؛ درة المعاني، ص ١٧.
[١٢] سورة فصلت، الآية ٥٣.
[١٣] نهجالبلاغة، الحكمة ٨٢، الفقرة ٣.
[١٤] البهابادي، الملا عبد الله؛ درة المعاني، ص ٢٠.
[١٥] المصدر نفسه.
[١٦] المصدر نفسه.
[١٧] المصدر نفسه، ص ٢١.
[١٨] المصدر نفسه.
[١٩] المصدر نفسه، ص ٢٣.
[٢٠] المصدر نفسه؛ ص ٢٤.
[٢١] المصدر نفسه.
[٢٢] المصدر نفسه.

السيد جعفر مرتضى العاملي
باحث واستاذ في الحوزة العلمية ومؤرخ ـ لبنان

موقع ولاية الفقيه
في نظرية الحكم والإدارة في الإسلام

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد..

فإنني كنت قد كتبت حول موضوع «ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة» وتعرضت في المقدمة إلى موضوع ولاية الفقيه في دليلها العقلي والفطري. ولكن ما كتب هناك لم يكن مستوفياً لجميع جوانب البحث، لأنه كان يهدف إليطرح المسألة من زاوية معينة، تنسجم مع طبيعة ما اعتبرت مقدمة له، فأحببت طرح البحث هنا من جانب آخر، مع التأكيد على ضرورة مراجعة ما كتب هناك، لأن كلاً منهما متمم لآخر، ومع الإشارة إلى أن ثمة جوانب أخرى لا تزال بحاجة إلى البحث والتمحيص،

ولعلّنا نوفق لذلك في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى.

بداية:

قال الله تعالى في كتابة الكريم: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] صدق الله العلي العظيم.

لقد تعرضت هذه الآية الكريمة لولاية الله ورسوله، وبعض المؤمنين الذين لهم مواصفات معينة من بعده – ولايتهم – على الناس، وحكومتهم عليهم.

ولا نريد البحث في هذه الآية من ناحية تأريخية، أو سياسية، ولا من ناحية عقائدية وكلامية، ولا من ناحية تفسيرية وإنما نريد أن نتعرف على موقع هذه الآية من النظرة الإسلامية فيما يتعلّق بالنظام والحكم الذي يجب أن يهيمن على كل شؤون، ومجمل سلوك وحركات، ويوجه مواقف الأمة، في حياتها، وفي مسيرتها باتجاه الهدف، الذي يهتم الإسلام بالتوجيه إليه، ثم الوصول والحصول عليه.

ولا يهمنا كثيراً هنا التعرض للنظريات والطروحات المختلفة حول ماهية وشكل نظام الحكم..

تلك النظريات التي جادت بها قرائح العلماء والمفكرين، أو رضيها الناس لأنفسهم في فترة أو بأخرى، أو فرضتها ظروف معينة، مرت بها الأمم في العصور المختلفة.. كالنظام الديمقراطي، أي حكومة الشعب – كما يدعون – أو كحكومة العمال المزعومة، أو كحكومة دكتاتورية الأقوى، أو غير ذلك، مما كان ولا يزال في أحيان كثيرة يستخدم كشعار يرخي إلى إغواء الناس، وجرهم وراء أولئك الطامحين والمستغلّين، أو كان أحياناً أخرى عن قناعة واقعية، لا تخفى وراءها أيّاً من المقاصد التي تدخل في هذا الاتجاه.

بل ربما نرى البعض يحاول أن يدعي: أنه ليس ثمة من حاجة لحكومة على الإطلاق.

لا، لا نريد التعرض لكل ذلك، ولا لسواه بالبحث والنقد والتمحيص، وإنما نريد فقط أن نبذل محاولة للترّف على رأي الإسلام في الحكم، وفي الحاكم، ولنرى، إن كان يلتقي مع أي من هذه النظريات المطروحة، أو مع سواها مما عرفته الأمم، أم أن له أطروحة جديدة ومتميزة في هذا المجال.

الحكم ضرورة فطريّة:

هذا.. ولأجل أن نقترب قليلاً من موضوع البحث، فإننا لا بد أن نشير إلى: أن الإسلام يرى حتميّة وجود حاكم مهيمن، يعمل على فرض النظام، ومنع الفوضى، وهو في رأيه هذا منسجم مع الواقع، ومتوافق مع قضاء الفطرة، الذي لا يمكن إنكاره، ولا المماراة فيه.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام «الإمامة نظام الأمّة»[٢].

وعنه عليه السلام: «لا بد من إمارة، ورزق للأمير.. إلخ»[٣].

وعنه عليه السلام: «لا بد للناس من أمير، بر، أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلّغ الله فيه الأجل ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر»[٤].

وعنه عليه السلام: «أسد حطوم، خير من سلطان ظلوم، سلطان ظلوم، خير من فتن تدوم»[٥].

وعن الإمام الرضا عليه السلام، وهو يذكر علل جعل أولى الأمر والأمر بطاعتهم: «ومنها: أنّا لا نجد فرقة من الفرق، ولا ملّة من الملل، بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس لما لا بد لهم منه في أمر الدين، فلم يجز في حكمة الحكيم: أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا

بد لهم منه، ولا قوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوهم، ويقسمون به فيئهم، ويقيمون به جمعتهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم.»[٦].

فإنهم عليهم السلام إنما يخبرون بهذه الكلمات عن حكم الفطرة، وقضاء الطبيعة والواقع بالحاجة إلى حاكم، وليسوا في مقام جعل شرعي هنا، فان حكومة الفاجر مرفوضة في الإسلام جملة وتفصيلاً، كما أن كلمات الإمام الرضا عليه السلام، وكذلك كلمات الإمام علي عليه السلام التي يفضل فيها الأسد الحطوم على الوالي الغشوم تشير إلى ما ذكرناه بشكل واضح.

وبعد هذا.. فلا مجال للإصغاء لقول من يقول: إنه لا حاجة إلى حاكم، ولا داعي إلى نظام، فان ذلك قول لا يستند إلى ما يبرره، لا على مستوى النظرية، ولا على صعيد الواقع الخارجي.

هذا كلّه بالنسبة إلى قضاء الإسلام والفطرة بضرورة وجود حاكم.

في مقدمات البحث:

وبعد ما تقدم، فإننا نقول: إن نظرة الإسلام لطبيعة الحكم الذي يفترض فيه أن يهيمن على مسيرة الأمّة نحو الهدف المنشود، منسجمة تماماً مع الفطرة أيضاً، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وليست بعيدة إدراك الإنسان، ولاعن تصوراته وطموحاته، ولأجل ذلك فان المراجعة إلى الفطرة تصير أمراً ضرورياً وحتميّاً لمن يريد التعرف على رأي الإسلام في هذا المجال.

وقبل أن ندخل في بيان ما نرمي إليه، فإننا نشير إلى أنه لا بد أولاً وقبل كل شيء من أن نتذكر:

١- إنه لا بد أولاً من بذل المحاولة للتعرف على ذلكالهدف الأسمى، الذي يوجه الإسلام مسيرة الأمّة إليه، ويهتم في العمل في سبيل الوصول والحصول عليه.

٢- إنه لا بد من التعرف على نظرة

الإسلام للكون وللحياة، وأنه هل يعتبر الدنيا هي كل شيء؟ أم أن للحياة إمتداداً أبدياً، وخلوداً وبقاءاً مستقبلياً يتجاوز حدود هذه الحياة، إلى ما هو أوسع منها، وأكمل، وأتم؟

٣- إنه على أساس طبيعة ذلك الهدف، ووفق تلك النظرة للكون وللحياة تتحدد طبيعة النظام الذي يفترض فيه أن يهيمن على مسيرة الأمّة، ويحكم كل حركاتها ومواقفها.

أمّا بالنسبة للأمر الأول: فإننا لا نتردد في التأكيد على أن الهدف هو إيصال هذا الإنسان، كفرد، وكأمّة إلى السعادة التامة والشاملة والحقيقية، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، هذه السعادة التي لا تنتهي بانتهاء حياته في هذه الدنيا.. وإنما تمتد وتمتد عبر الأزمان والأحقاب لتكون سعادة دائمة، وخالدة، وأبدية.

وبالنسبة للأمر الثاني: فان الإسلام يعتبر الدنيا مرحلة إعداد وتهيّؤ للحياة الحقيقية، حيث ينتقل الإنسان منها إلى مرحلة أخرى أكبر وأوسع، تتجسد فيها إنسانية الإنسان، ويعيش وأصالته بحيوية وواقعية وعمق، وذلك هو ما تؤكده الكثير من الآيات والنصوص القطعية، وهو من بديهيات الإسلام الأولية، بحيث لا يحتاج إلى إقامة البراهين، ولا إلى إيراد الشواهد.

ومن هنا: فان الأمر الثالث يصبح أكثر وضوحا من وجهة نظر إسلامية، حيث إنه يرى: أن النظام الذي يفترض فيه أن يهيمن على حياة الإنسان، وعلى علاقاته كلها، لا بد وأن يتجه بالإنسان نحو ذلك الهدف الأسمى، وأن يعتمد في صميم تشريعاته ربط الإنسان بالله سبحانه، ليعيش باستمرار في ظل الرعاية الإلهية، ويستفيد ما أمكنه من عطاء التربية الربانية، المتمثلة في الطاعة الطلقة له سبحانه وتعالى، والإخلاص في عبادته.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٧]

وبعد هذا: فان من الطبيعي أن تكون أطروحة الإسلام لنظام الحكم منسجمة مع نظرته للكون، وللحياة، للإنسان، وأن يقيم علاقات الإنسان بالدنيا، وبكل ما يحيط به تقييماً صحيحاً، ويعطيها حجمها الطبيعي الذي ينسجم مع حجمالدور الذي يفترض فيها أن تؤديه في مسيرة الإنسان في الحياة الباقية نحو هدفه الأسمى، الذي يشدّه إليه بواسطة ربطه، وكل مواقفه وأعماله بالله تعالى، ومحض القربة له سبحانه.

عناصر ضرورية:

وطبيعي: أن حكومة كهذه - بل كل حكومة - تحتاج من أجل تأمين ذلك إلى العناصر التالية:

١- الإحاطة بكل ما من شأنه أن يكفل تحقيق ذلك الهدف، أو يساعد على الوصول إليه.

ويدخل في ذلك: العلم لكل ما يحيط بحياة المجتمع الذي يحكمه - صغيراً كان أو كبيراً - من ظروف وأحوال لها تأثير مباشر، أو غير مباشر في تكامله وفي حركته.

٢- أن يأمن من الخطأ، في مجال فهمه لحقيقة الظروف والأحوال، ومعرفته بما يصلح مما يفسد، وكذلك في مجال التطبيق والتنفيذ، وأن يملك الحصانة الكافية للمنع من أيحيف، أو تجن، أو استغلال، انطلاقا من أغراض شخصية أو غيرها، مما لا يعود بالنفع على أولئك الذين يفترض فيه أن يرعى شؤونهم، ويشرف على مصالحهم.

٣- أن يملك الدافع الذي يضمن قوة الحركة واستمرارها في الاتجاه الصحيح، والاستعداد لتحمل المصاعب والمتاعب، التي ربما تفرضها طبيعة المهمة التي يفترض فيه أن يتحمل مسؤوليات الاضطلاع بها.

هذا كله.. عدا عن الشرائط العامة التي ينبغي توفرها - ولو الحد الأدنى منها - في الشخصية القيادية، حتى بالنسبة لمجتمع صغير قليل المؤونة، محدود العدد. من قبيل العقل، والشجاعة، والقدرة، وغير ذلك.

أوليّات فطريه:

إننا إذا لاحظنا الإنسان[٨] حينما يولد، فيعيش مرحلة الطفولة، حيث يكون غير قادر على تلبية حاجاته بنفسه، أو غير قادر على اختيار الأصلح - فإنه يكون خاضعاً لحكم وسلطان أبويه، يدبران أمره، ويشرفان على شؤونه، ويوجهان كل حركاته وسكناته، نحو ما يريان أنه الأصلح له، والأوفق بحياته الحاضرة، وفي المستقبل، حيث أنهما هما الأعرف بأحواله، وبالظروف المحيطة به عادة.

بل إن الأسرة التي تكون أكثر سعادة، وأبعد عن الاضطرابات والمشاكل، هي تلك الأسرة التي يحكمها ويهيمن عليها، ويشرف على شؤونها شخص واحد وواحد فقط وطبيعي أن يكون هو الأب ولأنه هو الأقوى، والأجدر بتأمين احتياجاتها، ولا سيما الفرد الأضعف فيها، كما أنه هو الأقدر على حمايته مما يمكن أن يتعرض له من اعتداء من قبل الآخرين، أو حمايته من المتغيرات الطبيعية التي ربما يكون فيها شيء من القسوة، حتى في الحالات العادية على هذا الموجود الضعيف.

وأيضاً فان الأب حينما يعمل حكومته على هذا المجتمع الصغير، فإنما ينطلق في مواقفه وأحكامه وإجراءاته من روح العطف والحنان، ورعاية المصلحة، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ويهتم بشكل تلقائي وطبيعي بالحفاظ على الوجود المتنامي للأسرة، بحيث تتمكن من السير على طريق التكامل، والوصول إلى أهدافها المنشودة في المستقبل.

وبعبارة أخرى: لو فرضنا أسرة تتشكل من أب وأم وأطفال، فإنها تسعى - طبيعياً - نحو تحقيق هدف ما في هذه الحياة، وليكن هو الراحة، والاطمينان، والسكون والسعادة، أو هو أعمار الكون، أو فليكن الهدف هو كل ذلك، أو سواه.

وهذا الهدف يحتاج إلى حركة باتجاهه من أجل الوصولإليه، ولا يمكن أن تكون حركة عشوائية لأن الحركة العشوائية لا توصل إلى هدف، إلا في حساب الملايين من الاحتمالات، ولا يمكن للعقلاء أن يبنوا حياتهم على أمر كهذا.

وعليه فلا بد من نظام يحكم هذه الحركة، وينظمها، ويوجهها، ويوازن بين رغبات هذا، ورغبات ذاك، وحركات هذا وسكنات ذاك، ويحفظها من أن يصطدم مع حركات ومواقف الآخرين، ومع سائر الموجودات الكونية المحيطة بها، ولو كان هذا النظام مما توصل إليه عقل الإنسان، وحكمته، وتدبيره.

وهذا بطبيعة الحال يحتم وجود من يشرف على هذه الحركة، وعلى تطبيق ذلك النظام عليها، ويكون هو المهيمن على المسيرة، والمرجع للفصل في أمورها ومشكلاتها، والمعين لها للتغلب على ما يواجهها من عقبات، ويحميها من العوادي الطبيعية، أو غير الطبيعية.

والأب هو الأليق والأجدر بالتصدي لمهمة كهذه، لأنه يملك قدرة تمكنه من ذلك من جهة، كما أنه يملك الحكمة، والتعقل، والاتزان، بالإضافة إلى قدر كاف من العاطفة التيمن شأنها أن تحفظ مصالح هذه الأسرة، كما أنها تمثل ضمانة من الوقوع في الحيف والتعدي، ومن التساهل والتفريط، أو اللامبالاة بأمورها، ومشاكلها.

وهكذا.. يتضح: أن الأب يملك

عادة حداً مقبولاً من العناصر التي أشرنا إليها فيما سبق، يساعده بشكل فعال في مجال تسييره لشؤون ذلك المجتمع الصغير، الذي يقع تحت سيطرته، حتى إذا فقد بعضها، فان الحكم الشرعي وحتى العقلاء يلغون حقه في الحكم والسيطرة على تلك الأسرة.

أما حينما يصير للأب أولاد كثيرون، ثم أولاد أولاد، فان قدرته على السيطرة على الأمور، بل وعلى استيعاب كثير من الظروف والأحوال المؤثرة سلباً أو إيجاباً في ما يقع في منطقة نفوذه، ويخضع لرعايته - هذه القدرة - ستضعف بالقياس إلى الأسرة الصغيرة، كما وستضعف العاطفة التي تمثل قوة الدفع والحركة، كلما كثرت الفروع، وتشعبت وتعددت الوسائط النسبية، الأمر الذي يؤدي إلى إحداث وهن في قوة الربط التي تشدّه إليهم، وتشد هم إليه، أو على الأقل إلى البعض منهم، حينما يجد في البعض الآخر ما يغنيه عاطفياً، ونفسياً، أو حينما يجد في بعضهم صدوداً أو عقوقاً، يصرفه عن الاهتمامبشؤونه، ثم تقديم مصلحة غيره من إخوانه على مصلحته، كما يحدث في أحيان كثيرة، وبالتالي فان نوازعه الشخصية يمكن أن تطغى على كثير من مواقفه، وسيواجه كثيراً من القضايا بالوهن، والضعف، واللامبالاة، حينما تنصرف اهتماماته إلى تقديم راحة نفسه على مصلحة كل أو بعض من هم تحت تكلفة ورعايته - كما نراه في المجتمعات الغربية اليوم - وليس ثمة أية ضمانات أخرى تمنع من حدوث ذلك، أو تقلل من أخطاره، وآثاره، وقد رأينا بعض الآباء لو صدر من ولده مخالفة ما فإنه لا يكتفي بضربه لتأديبه، بل يتعدى ذلك للتشفي منه في كثير من الأحيان.

وأما حينما تصير الأسرة في مستوى العشيرة، ثم حينما تصير العشيرة في مستوى بلد، فان ذلك الضعف

سيزداد نسبياً، وسيصبح أكثر فعالية في إحداث الضعف والتخلخل في البنية الاجتماعية في منطقة نفوذه، وستجد المفاسد، التي تستتبع المصاعب والآلام الفرصة المناسبة للتسرب إلى حياة ذلك المجتمع، وتؤثر سلبياً على واقع أولئك الناس، ثم على مستقبلهم.

أما حينما تكون هيمنته، ومنطقة نفوذه في مستوى مقاطعة، أو دولة، فان هذا الضعف، وذلك الفساد سيصبح أكثر وضوحاً، وأبعد أثراً، مع أن ملاحظة حجم منطقة النفوذ يعطي ضرورة مضاعفة قوة الدفع، وزيادة القدرات الذاتية لديه لمواجهة الحاجات الكبيرة، والمشكلات الكثيرة، التي ربما تواجههم، وكذلك تؤكد ضرورة تعميق وترسيخ الملكات النفسية التي تمثل حصانة أكبر عن الوقوع في الخطأ، أو عن الحيف على الآخرين، ثم من طغيان النوازع النفسية وغيرها عليه، هذا كلّه، فضلاً عن تأكد الحاجة لمزيد من الاطلاع والمعرفة فيما يرتبط بظروف وأحوال من يقعون داخل نطاق عمله، ومنطقة حركته.

فطرية حكومة الأنبياء والأوصياء:

ونحن إذا نظرنا إلى حكومة الأنبياء الذين يتحملون مهمة قيادة ومسيرة البشرية جمعاء، وكذلك أوصيائهم، فإننا نجدها لا تخرج عن هذا السنن الفطري، والصراط الطبيعي، ولكن مهمة الأنبياء أعظم، لأنها تمس حياة شعوب بأسرها، وحياة الأجيال التي ستأتي تعد، فينبغي أن يكون توفي تلك العناصر فيهم بنحو أو في وأتم، ولا سيما إذا كانت رسالتهم عالمية، ويريدون مواجهة الأمم كلّها على اختلافها بالحق، وهدايتها ورعايتها، وذلك بالقيام بعملية هدم وبناء شاملة، للبنية الاجتماعية، والنفسية، والفكرية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها. ولأجل ذلك نجد: أن

الأنبياء وأوصياءهم «عليهم الصلاة والسلام» ونخص بالذكر منهم هنا نبينا الأعظم محمداً ﷺ والأئمة من ولده عليهم السلام[9] قد وصلوا إلى درجة العصمة، فيما يرتبط بضمان أن يكون عملهم على وفق الحكمة، التي لا بد وأن تهيمن على كل العلاقات والروابط، وأيضاً ضمان عدم وقوعهم في الخطأ، أو الحيف أو التعدي، أو التفريط في المهمة المناطة بهم «وهو ما ربما يقع فيه الأب أحياناً» وذلك لأن كل خطأ، أو تعد، أو تفريط، مهما كان صغيراً، سيكون له من الاتساع والشمولية بحيث يستغرق العالم كلّه، وسيكون له من الامتداد ما يجعله ينعكس على حياة الناس، أمّة بعد أمّة، وجيلاً بعد جيل. وإلى ما شاء الله.

وإذا كان الأب قد يكون مستوعباً لكل الظروف الموضوعية المحيطة بالأسرة، فإننا نجد الأنبياء يملكون الوعي الكامل والشامل، والمعرفة بما يصلح مما يفسد، لأنهم يرتبطونبالغيب، ويستمدون من الوحي الإلهي في هذا المجال.

وبالنسبة لسائر القدرات الذاتية، فإنهم يملكون الكفاءات العالية، والخصائص الفريدة والكافية لجعلهم قادرين على وعي كل الظروف والأحوال، وعلى تحمل أعباء القيادة الهادية إلى طريق السعادة المنشود.

وبعد هذا.. وبالنسبة لقوة الدفع واستمراريتها، فان هذا النبي، وذلك الإمام يملك رصيداً هائلاً من الحب والعطف على الأمة، كل الأمة، حتى على أولئك الذين يحاربونه، ويحاولون القضاء عليه، وعلى دعوته، حتى لقد كانت نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) تذهب عليهم حسرات. وإن تأريخ الأنبياء والأئمة، وما تحملون من مصائب ومصاعب في سبيل هداية أممهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور لخير شاهد على ما نقول.

وقد حكى لنا القرآن الكريم بعض

ما لاقاه نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ولوط، وغيرهم من الأنبياء من أممهم وشعوبهم، أما نبينا محمد ﷺ، فقد واجه من المصاعب والمتاعب ما لم يواجهه أي من الأنبياء قبله، حتى لقد قال - حسب ما روي: «ما أوذي أحد ما أوذيت».[١٠]

وقد بلغ نبينا الأكرم ﷺ في حنانه وعطفه على الأمة، وحبه لها، وتفانيه في سبيلها، الغاية، وأوفى على النهاية، حتى لعد قال تعالى في بيان ذلك - وهي من مواصفاته القيادية في الحقيقة، وليست مواصفات شخصية - قال: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١١]

وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ[١٢] عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[١٣]

ويقول: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١٤]

وثمة آيات أخرى تذكر حرص النبي ﷺ على هداية قومه، لا مجال لاستقصائها.[١٥]

أما أمير المؤمنين عليه السلام فقد ملؤا قلبه قيحاً، مع أن خلافتهم لم تكن تساوي عنده نعلاً بالية، إلا أن يقيم حقاً، أو يبطل باطلاً، وكانت دنياهم أهون عنده من عفطة عنز على حسب تصريحاته.

وإنما كان يتحمل المشاق العسيرة، والمتاعب الكبيرة من الناس، من أجل الناس، فهو معهم على حد قول الشاعر:

أريد حياته ويريد قتلي * عذيرك من خليلك من مراد

أنا وعلي أبوا هذه الأمة:

وبعد كل ما تقدم.. فإننا نفهم بعمق ما يرمي إليه قوله ﷺ لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا وعلي أبوا هذه الأمّة»[١٦].

فهو المدبر، وهو المسيطر، ولكن من منطلق الحكمة التي تفرض نفسها على مواقفه، وبدافع من العاطفة التي تجعله يبادر إلى التضحية في سبيلهم، ويتحمل كل أنواع التعب والعناء والألم والبلاء من أجلهم.

ونعرف كذلك مغزى الأوامر الإلهية الكثيرة في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام بين هذين الوالدين وحبهما، فعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾[١٧].

قال الرسول ﷺ: «أحد الوالدين، فقال له محمد بن عجلان: فمن الآخر؟ قال: علي»[١٨].

وعن النبي ﷺ: «حق علي بن أبي طالب على هذه الأمة (وفي لفظ: على كل مسلم) كحق الوالد على ولده»[١٩].

وبهذا المعنى نصوص كثيرة لا مجال لإيرادها فلتراجع في مظانها[٢٠].

وبعد كل ما تقدم.. فإننا نشير إلى أن ما كان يلقاه الأنبياء والأوصياء من أذى، ومن مصائب وبلايا، في سبيل دعوتهم إلى الله سبحانه، هو في الحقيقة من أقسى ما يمكن أن يواجهه الإنسان في حياته العاطفية، بل هو أشد عليه من ضرب السيوف، وورود الحتوف، إذ أن من أشد الأمور وأصعبها على الإنسان أن يكون هو يذوب حباً وحناناً، ويبذل كل غال ونفيس، ويكابد المكارة، ويعاني الآلام من أجل حياة إنسان وإسعاده ثم يجد: أن ذلك الإنسان بالذات يقتله الحقد عليه، ويبذل كل ما يملك من أجل التخلص منه، وإلحاق الأذى به، ولو حتى بقتله، واستئصال شأفته، وكل من يلوذ به، ويرضى طريقته، لا لشيء إلا لأنه يريد أن يهبه الحياة والسعادة، ويبعد عنه كل بلاء وشقاء، نعم، وهذا هو المحك الحقيقي للإخلاص والحب حيث لا يكون ثمة أية مصلحة شخصية، أو منفعة مادية، أو معنوية

تعود إليه، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(٢١).

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم:

وبعد كل ما تقدم.. وبعد أن تأكد لدينا توفر العناصر الرئيسة الآنفة الذكر في الأنبياء وفي الأوصياء، وبعد أن كانت محبتهم وعواطفهم تجاه أممهم هي الأقوى والأعمق من كل عاطفة ومحبة، وبعد أن كانت ليست عواطف هوجاء، ولا أحاسيس غامضة، وإنما هي عواطف صادقة وأصيلة، تقوم على أساس الإحساس بالمسؤولية، وامتلاك الرؤية الواقعية الكاملة، والشاملة المستندة إلى القدرات الذاتية الفريدة، والى الوحي.

وكذلك بعد أن كانت هذه الرؤية مستندة إلى التسديد الإلهي، وتمتلك العصمة عن الخطأ، والسهو والنسيان، وعنكل حيف أو تفريط، كضمانة حقيقية وثابتة.. إلى غير ذلك مما تقدم.

بعد كل ذلك: فإن من الطبيعي أن يكون للنبي صلى الله عليه وآله وللامام عليه السلام الولاية - بمفهومها الأوسع والأدق - على الناس، كل الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(٢٢).

بل إن الإنسان إذا كان في مجال قيمومته على نفسه غير مأمون عليها، فضلاً عن أن يكون مأموناً على غيره، إذ قد تطغي عليه نوازعه الذاتية، وينساق وراء شهواته وغرائزه، ومصالحه، حينما تغمر العقل المشحون بالعاطفة، وتحد من فاعليته، أو تطغي العاطفة نفسها على العقل.

أضف إلي ذلك: أنه قد يخطئ في كثير من تقديراته، لأنه لا يملك الرؤية الواقعية للكثير من الأشياء،

لعدم اطلاعه على الغيب، والوحي محجوب عنه، إلى غير ذلك مما يمكن أنيتعرض له هذا الإنسان، الموجود الضعيف والمحدود - إذا كان كذلك - فان من الطبيعي أن يكون النبي ﷺ أولى بالمؤمنين حتى من أنفسهم، فضلاً عن أولويته بهم من آبائهم.. وكل ذلك يفسر لنا قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[٢٣].

بل إن حصر الولاية بالله تعالى، وبالنبي ﷺ، والإمام عليه السلام في آية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢٤].

يعطينا: أن ولاية من ذكروا في هذه الآية الكريمة تلغي كل ولاية في قبالها، لأنها هي الولاية الحقيقة والواقعية، وكل ما عداها، فإنما هو منبثق عنها، فلا يكون له مكان إلا في الحدود التي لا يكون له تعارض ولا تصادم معها.

ومن خلال جميع ما تقدم، وبملاحظة شعور الأمة بأن هذه الحكومة والولاية إلهية، فالله هو المبدأ وإليه المنتهى، ومن خلال شعورهم بأنه يهبهم - بذلك - الحياة والكرامة والسعادة - من خلال ذلك كله، وبملاحظته - يتأكد ارتباطهم به، وانشدادهم إليه، بعقولهم، وقلوبهم وعواطفهم، وبكل وجودهم، ويكون الحب، وتكون التضحية في سبيله، وقد وردت نصوص قرآنية، ونبوية، عن الأئمة عليهم السلام، تؤكد على هذا الحب لله، ولرسوله، وللأئمة عليهم السلام لا مجال لإيرادها هنا[٢٥].

ولاية الفقيه الجامع للشرائط:

بقي أن نشير هنا: إلى أنه حينما لا يمكن للإمام المعصوم أن يمارس دوره الكامل في قيادة الأمة وهدايتها ورعايتها، بسبب عروض بعض الموانع القاهرة، كما هو الحال بالنسبة لإمامنا الحجة المنتظر عجل الله فرجه، وجعلنا من أنصاره وأعوانه، والمستشهدين بين يديه..

وحيث لا بدّ للأمة من قائد ورائد، يحكم مسيرتها، ويشرف على شؤونها، وعلى تطبيق أحكام القانون فيها.

وحيث لا بدّ وأن تناط هذه المهمة بواحد فقط من أفراد الأمة نفسها، لا أكثر، إذ قد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما لكم والرياسات! إنما للمسلمين رأس واحد»[٢٦].

كما أن «الشركة في الملك تؤدي إلى الاضطراب»، كما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام[٢٧].

فإننا نجد الإسلام في مجال اختياره لهذا الفرد منسجماً مع الفطرة أيضاً، فنجده يختار الأعلم بالأطروحة الإلهية، التي يفترض فيه أن يعمل على تطبيقها على النحو الأفضل والأشمل، والأعرف بواقع الأمة وظروفها، ومن يملك الحد الأعلى من القدرات والكفاءات، التي تؤثر في المهمة التي يتصدى لإنجازها - كما أن درجة العصمة وإن لم تكن متوفرة في غير المعصوم عادة، لكم ملكة العدالة والتقوى تكون بمثابة الضمانة الطبيعية، التي تكفل أن يكون كل ما يصدر عنه يقع في الخط الصحيح، ووفق مصلحة الأمة[٢٨].

أضف إلى ذلك: أن إحساسه المتنامي بالمسؤولية الشرعية لا يبقي له مجالاً للتراخي أو التفريط في أداء المهمة الموكولة إليه.

فالعناصر الآنفة الذكر متوفرة أيضاً في الولي الفقيه على النحو الذي يحفظ للأمة سلامة المسيرة، وتكاملها الطبيعي في ظل التربية الإلهية.

نصوص مأثورة:

وقد أشير إلى بعض ما تقدم في ضن النصوص التالية:

عن علي عليه السلام في خطبة له: «ذلك بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الخ...»[٢٩].

عن علي عليه السلام: «يحتاج الإمام إلى قلب عقول، ولسان قؤول، وجنان على إقامة الحق صؤول»[٣٠].

وعنه عليه السلام: «اللهم لا ينبغي أن يكون الوالي على الدماء، والفروج، والمغانم، والأحكام، ومعالم الحلال والحرام،، إمامة المسلمين (وأمور المؤمنين)؛ البخيل، لان نهمته في جمع الأموال، ولا الجاهل، فيدلهم بجهله على الضلال، ولا الجافي، فينفرهم بجفائه ولا الخائف، فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ولا المعطل للسنن، فيؤدي إلى الفجور، ولا الباغي فيدحض الحق، ولا الفاسق، فيشين الشرع»[٣١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي، حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»[٣٢].

وجاء في صحيحة عيص بن القاسم عن الصادق عليه السلام:

«عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وانظروا لأنفسكم، فوالله إن الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي هو فيها، يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها... إلخ»[٣٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه»[٣٤].

وثمة روايات أخرى فيما يرتبط بالمعرفة بالزمان وأهله لا مجال لتتبعها.

ونقول أيضاً:

كما أن ثمة نصوص كثيرة حول كون الأحق بالأمر هو الأعلم، أو فقل: هو ذلك الرجل الذي يكون في المستوى الأعلى من العلم والمعرفة بأحكام الله تعالى[٣٥]، وهي وإن كانت بحسب الظاهر ناظرة إلى مواصفات

الإمام والخليفة بعد النبي ﷺ، ولكن كونها في مقام الرد على خصوم أهل البيت عليهم السلام يعطي: أنها في مقام الاستدلال بحكم العقل والفطرة الإنسانية، كما هو ظاهر.

كما أن من الطبيعي: أن يكون الأعلم، والأعرف بزمانه، والأقدر هو الأقرب والأجدر بتحقيق الأهداف الإلهية، فيما يرتبط بتطبيق أحكام الإسلام، وتنفيذ تعاليمه على صعيد الحكم، ومع وجود تلك الصفات بدرجات متفاوتة في عدة أشخاص، فلا بد وأن تراعي مصلحة الأمة، فتكون الولاية لمن يكون منهم أقدر على إدارة شؤونها، وحفظ مصالحها.

في نهايات البحث:

ولأجل كل ما تقدم، فان ولاية الفقيه، الجامع للشرائط الذي هو نائب الإمام، تشبه إلى حد كبير ولاية من ينوب عنه، فيكون أولى من الأب، وأحق بالتصرف منه، فيما يتعلق بولده، فلو حكم الولي الفقيه على الولد بالذهاب للجهاد مثلاً، فان منع الوالد له - والحالة هذه - لا يكون مؤثراً، بل ينفذ حكم الولي الفقيه، دون حكم الوالد.

وما ذلك إلا لأن هذا الولي أكثر إطلاعاً على ظروف ومصالح الأمة، وعلى الأحكام الشرعية التي لا بد وأن تهيمن على سلوكها من جهة، كما أنه لا يريد في حكمهه هذا جلب مصلحة لنفسه، ولا هو نتيجة اندفاع عاطفي ضيق الأفق، وغير مسؤول، كما قد يحدث لكثير من الآباء في أحيان كثيرة.

إذن فحكومة الولي الفقه كحكومة النبي والإمام حكومة أبوية، قاهرة ومفروضة، ترتبط بالله سبحانه، وتنتهي إليه، وإن إحساسه بالمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتقه، وكون ولايته قد جاءت عن طريق الجعل

الشرعي الإلهي. إن ذلك من شأنه أن يعطي عمله قوة دفع أعظم، ويجعل الارتباط به أعمق وأقوي، لأن طاعته طاعة الإمام ثم النبي، ثم الله سبحانه، وكذلك الحال في عصيانه.

كما أن ملكة العدالة التي يتمتع بها يعتبر ضمانة حقيقية، تؤهله لأن يحتفظ بسلامة الخط، وبرسالية الموقف، وتؤكد على ارتباط الناس به، وشدهم إليه، وثقتهم به وبمواقفه، حيث لا يبقى ثمة مجال لأن يراود نفوسهم أي شك أو ريب في سلامة المواقف التي يتخذها، أو الأوامر التي يصدرها.

وليكن ذلك كله.. واحداً من الأدلة على أن الإسلام دين الفطرة، والحقيقة، وعلى واقعيته في التعامل مع الأمور.

وفقنا الله للسير على هدى الإسلام.

والحمد لله، وصلاته وسلامه على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين.

قم المقدّسة جعفر مرتضى العاملي

الهوامش:

[١] الآية ٥٥ من سورة المائدة.

[٢] غرر الحكم (مطبوع مع الترجمة الفارسية) ج ١ ص ٣٦ ولكن في نهج البلاغة الحكمة رقم ٢٥٢ وفي غرر الحكم ج ٢ ص ٥٢٥ الأمانة، والأمانات.

[٣] دعائم الإسلام ج ٢ ص ٥٣٨.

[٤] نهج البلاغة (بشرح عبده) الخطبة رقم ٣٩، وراجع: أنساب الأشراف (بتحقيق المحمودي) ج ٢ ص ٣٧٧ و ٣٥٢ وتأريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٠٩ والبحار ج ٧٥ ص ٣٥٢ وكنز العمال ج ١١ ص ٣٠٩ و ٢٨٦ وج ٥ ص ٤٤٨ ورمز له ب -: ق وهب، وعبد الرزاق، وابن جرير، وخشيش في الإستقامة ونقله في مصادر نهج البلاغة ج ١ ص ٤٤٠ عن قوت القلوب ج ١ ص ٥٣٠ وعن غيره.

[٥] البحار ج ٧٥ ص ٣٥٩ عن كنز الفوائد للكراجكي، وراجع: دستور معالم الحكم ص ١٧٠ وغرر الحكم ودرر الكلم ج ١ ص ٤٣٧ وج ٢ ص ٧٨٤.

[٦] عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٠١ وعلل الشرايع (ط سنة ١٣٨٥ ه -) ج ١ ص ٢٥٣ وتفسير نور الثقلين ج ١ ص ٤١٢ و ٤١٣ وراجع: المكاسب للشيخ الأنصاري ص ١٥٣.

[٧] الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

[٨] بل كل مولود، حتى الحيوان.

[٩] بفارق واحد، وهو: أن الأنبياء عليهم السلام يستقون معارفهم عن طريق الوحي، فيتصلون بالله سبحانه، عن طريق الملك، أما الأئمة فإنما يستقون معارفهم عن طريق الأنبياء عليهم السلام.

[١٠] كنوز الحقائق (بهامش الجامع الصغير) ج ٢ ص ٨٣ و ٨٢ والجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٤.

[١١] الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

[١٢] البخوع: بلوغ الجهد، وبخع نفسه: قتلها من وجد أو غيظ. (أقرب الموارد ج ١ ص ٣٢).

[١٣] الآية ٦ من سورة الكهف.

[١٤] الآية ٨ من سورة فاطر.

[١٥] راجع على سبيل المثال: الآية ٣٧ من سورة النحل، والآية ١٠٣ من سورة يوسف.

[١٦] تفسير البرهان ج ١ ص ٣٦٩ عن ابن شهرآشوب، وعن الفائق للزمخشري، وتفسير الميزان ج ٤ ص ٣٥٧ عنه، وعن العياشي، والبحار ج ١٦ ص ٩٥ وج ٤٠ ص ٤٥ ومعاني الأخبار ص ٥٢ وعيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٨٥ وعلل الشرايع ص ١٢٧.

[١٧] الآية ٨ من سورة العنكبوت.

[١٨] لسان الميزان ج ٢ ص ٤٠.

[١٩] فرائد السمطين ج ١ ص ٣٩٧ ولسان الميزان ج ٤ ص ٣٩٩ وميزان الإعتدال ج ٣ ص ٣١٦ وأمالي الشيخ الطوسي ج ٢ ص ٢٧٧ ومناقب الإمام علي عليه السلام لابن المغازلي ص ٤٨ والمناقب للخوارزمي ص ٢١٩ و ٢٣٠ وترجمة الإمام علي عليه السلام لابن عساكر (بتحقيق المحمودي) ج ٢ ص ٢٧٢ و ٢٧١ ونقله المحمودي عن غاية المرام ص ٥٤٤.

[٢٠] راجع على سبيل المثال: تفسير البرهان ج ٣ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٩٤ والبحار ج ٧٥ ص ٣٥٦.

[٢١] الآية ١٧ من سورة الحجرات.

[٢٢] الآية ٥٥ من سورة المائدة.

[٢٣] الآية ٦ من سورة الأحزاب.

[٢٤] الآية ٥٥ من سورة المائدة.

[٢٥] قد ذكرنا بعضاً من تلك النصوص في مقالنا: (الحب في التشريع الإسلامي)، في كتابنا: (دراسات وبحوث في التأريخ

والإسلام)، أول الجزء الثاني، فراجع.

[٢٦] إختيار معرفة الرجال ص ٢٩٣ وقصار الجمل ج ١ ص ٢٦٢ عن مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٣٢٢.

[٢٧] غرر الحكم ودرر الكلم (مطبوع مع الترجمة الفارسية) ج ١ ص ٨٣.

[٢٨] ويلاحظ: أن العدالة ليست في من أعطى حق الأشراف على شؤون الأسرة وإدارتها.

[٢٩] المعيار والموازنة ص ١٧٦ وراجع: تحف العقول.

[٣٠] المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧٣.

[٣١] تذكرة الخواص ص ١٢٠ و ١٢١ والبحار ج ٧٧ ص ٢٩٧ ودعائم الإسلام ج ٢ ص ٥٣١ ونهج البلاغة (بشرح عبده) الخطبة رقم ١٢٧ ج ٢ ص ١٩.

[٣٢] أصول الكافي ج ١ ص ٣٣٦ باب ما يجب من حق الإمام على الرعية، وحق الرعية على الإمام.

[٣٣] الكافي ج ٨ ص ٤٦٤ والوسائل ج ١١ ص ٢٥ كتاب الجهاد، باب ١٣ والرواية طويلة، وذكر قسماً منها في ج ١١ ص ٣٨ عن علل الشرايع ص ١٩٢.

[٣٤] نهج البلاغة (بشرح عبده) الخطبة رقم ١٦٨ ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥.

[٣٥] راجع كتابنا: ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة ص ٥٣ و ٥٤ و ٧١ - ٧٣ للاطلاع على هذه الأحاديث ومصادرها.

حجة الاسلام الشيخ أسامة الخزرجي
باحث واستاذ في الحوزة العلمية. العراق

بحوث في ولاية الفقيه

المقدمة

والصلاة والسلام على رسوله الأكرم أبي القاسم محمد لله وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد...

لم يعد يخفى على أحد أهمية مباحث ولاية الفقيه، وقد تأكدت هذه الأهمية في السنوات الأخيرة لما أفرزته هذه النظرية من ردود فعل وإشكالات استوجبت الموضوعية في مناقشتها ومعالجتها.

ولئن كان يكفينا في الزمن الماضي البحث حول أدلة ولاية الفقيه، فإن هذا المقدار من البحث لم يعد كافياً في الآونة الأخيرة، حيث طرأت بحوث أخرى احتاجت إلى دراسة فكرية استدلالية بعيداً عن أي تعصب أو هوى.

والعناوين التي لا بد من التعرض لها أصبحت كثيرة، ولا زلنا في بداية الطريق، وربما تستجد عناوين أخرى لاحقاً تحتاج إلى من يتصدى لها.

ولقد كنتُ قد كتبتُ في هذا الموضوع كتاباً حاولت أن أستقصي ما أمكن من بحوث حول ولاية الفقيه، وقمت بتدريس بعضه إلى أن ارتأت

الوحدة الثقافية المركزية اختيار مجموعة دروس تتناسب مع الغرض المتوخى في الدورات التدريسية.

وعلى هذا الأساس تم اختيار ما يقرب من عشرين درسا تناسب المستوى الثاني المقرر في الدورات الثقافية، وبقيت الكثير من البحوث المهمة لم يمكن إدراجها في هذا الكتاب، وإنما اقتصرنا على اختيار أهم البحوث مع تلخيص وإيجاز، بمعنى أن الدرس الموجود هنا موجود في الكتاب الكبير لكن بشكل أكثر تفصيلاً ومناقشة، ولذا فإنا ننصح المدرّسين ومن يبغي التعمق أكثر، أن يراجع ذلك الكتاب.

هذا ونسأله تعالى التوفيق لما فيه رضاه، مع أمل إرشادنا إلى أي نصح، وكلنا استعداد لتقبل أي ملاحظة وأي مناقشة فيما ورد في هذا الكتاب.

معنى الولاية

حتى نعرف المقصود من عنوان ولاية الفقيه، لا بد أولاً من إطلالة سريعة على أقسام الولاية، لنحدد في أي قسم من هذه الأقسام تدخل ولاية الفقيه.

أقسام الولاية:

الولاية على قسمين:

١_ الولاية التكوينية:

ونعني بها: حق الطاعة في مجال التكوين، وتسخير الأشياء والموجودات، لإرادة صاحب هذه الولاية يتمكن بسببها من التصرف في الموجودات الخارجية، دون أن يعني هذا الكلام أن تناقضاً سيقع مع مبدأ العلية الجاري في الكون، أو مبدأ التوحيد الذي ينص على أن كل شيء في الكون معلول لإرادة الله تعالى، لأن مبدأ العلية في الكون لا ينحصر بالأسباب الطبيعية الحسية، بل هناك من الأسباب الغيبية ما يفوق الأسباب الحسية، لكن لم ولن يطلع عليها إلا ذو حظ عظيم، كما أن مبدأ التوحيد لا

يتنافى مع إذن[1] الله تعالى لبعض عباده بالتصرف في الموجودات تصرفا لم تألفه الحواس ولا ينكره العقل.

١ـ مراتب الولاية التكوينية وهذه الولاية ذات مراتب، وأضعفها مرتبة ما نشهده عند كل الناس كولاية الإنسان على أعضائه وعضلاته فيحركها مثلما يشاء بمقدار ما يتمكن بإذن الله تعالى، لكنها مرتبة غير ملفتة، باعتبار تآلف الناس معها وتعودهم عليها، وإلا فإنه من الناحية الفكرية لا فرق في مبدأ هذه التصرفات بين مرتبة ومرتبة من مراتب الولاية التكوينية، وإن كان هناك فرق في أهمية هذه المراتب وسموها.

وهذه المرتبة من الولاية قد تبقى وقد تسلب بحادث أو بولادة ونحو ذلك أو بسبب غير طبيعي، كما أنه قد تسلب عنه دائماً، وقد تسلب في أوقات محددة، وقد تسلب للحظة أو لحظات، وقد لا تسلب أبداً، كل ذلك وفق مشيئته تعالى.

وهناك مرتبة هي أسمى من المرتبة السابقة، يكون الإنسان بسببها قادراً على التصرف في مجال أوسع من ذلك، كأن يحرك الحجر من مكانه بدون أن يلمسه، بل بمجرد أن يأمر الحجر بالتحرك، وكأن يحرك الشجر من مكانه من دون أن يقلعها أو أن يمسها، وكأن ينفجر نبع ماء تحت يد الإنسان، وهذه سلطة وولاية على بعض الموجودات، لكنها لا تستند إلى الطرق المألوفة في التأثير والإيجاد.

وهناك مرتبة أسمى قد يملك الإنسان معها قدرة التأثير في دائرة أوسع.

وليس هناك عدد محدد لمراتب هذه الولاية، لأنك تستطيع أن تحصي مراتب كثيرة، لكنك لن تتمكن من حصرها، لأن مفردات الوجود الكوني فوق قدرة البشر، كل ذلك لا يأبى عنه العقل، وإن كان هناك نقاش مستفيض في تحقق بعض المراتب لدى بعض الخلق.

الولاية التكوينية في القرآن

لكن هذه الولاية التكوينية على اختلاف مراتبها، لا تكون إلا بإذنه تعالى، ولا يمكن لأي مخلوق مهما علا شأنه أن يستقل عن الله تعالى في التصرف، بل كل ما في هذا الوجود من حوادث وتغيرات، لا بد أن يستند في نهاية الأمر إلى إرادته تعالى إرادة فعلية، وما من أحد يملك قدرة مستقلة عنه تعالى مهما اختلفت مراتب التصرفات والقدرات.

ولذا نجد القرآن الكريم عندما ينسب إلى أحد أنبيائه وأوليائه قدرة تكوينية ما فإنه غالباً ما ينبه على أن هذا بإذن الله تعالى لئلا يبتلى المرء بالشرك كما ابتلي بذلك قوم من أهل الكتاب عندما رأوا القدرات الهائلة عند نبي الله عيسى عليه السلام.

وللتأكد مما نقول انظر إلى قوله تعالى: في قصة النبي عيسى عليه السلام ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾[٢].

فتأمل في هذا التكرار في كلمة بإذن الله، وهذا يدل على أنه ليس هناك إذن واحد عام سابق يشبه التوكيل والتفويض، بل هو في كل حركة من حركاته، يطلب إذن الله تعالى، وفي الحقيقة فإنه لا يمكن أن يكون هناك إذن سابق يصير بموجبه المأذون قادراً على الإستقلال بالتصرف، مستغنياً عن أي إذنٍ لاحق، إن هذا المعنى غير متعقل في علاقة الله تعالى بعباده، لأنهم الفقراء إليه وحقيقتهم الفقر، ومن كان هذه حقيقته، لا يمكن أن يستقل عن ربه ولو للحظة، ومن مقتضيات الفقر الإحتياج المستمر لفيض الله تعالى، حتى يستمر الفقير في وجوده وفي تأثيره، فالحاجة للإذن مقوم لوجودنا شعرنا بذلك أم لم نشعر.

ونحن شيعة أهل البيت عليهم السلام نعتقد أن الله تعالى قد أكرم أنبياءه وأوصياء

الأنبياء، ومنهم أئمتنا عليهم السلام، بكرامة الولاية التكوينية بمراتبها السامية المناسبة لمقام المخلوقين المربوبين وبإذن الله تعالى، وإن كنا غير قادرين على رسم حدودها.

كما أننا نعتقد أن هذه الكرامة لا تعطى بغير سبب وحكمة وكفاءة، بل يرتبط فيضها على العبد بمقدار قرب العبد من الله تعالى، ولذا نجد بعض هذه الكرامة عند الأولياء من غير الأئمة والأنبياء عليهم السلام، فليس بمقدور كل أحدٍ أن يتصرف، وليس بمقدور كل شخص أن ينال إذن الله تعالى، بل هذا من مختصات النفوس القدسية والأرواح الربانية التي سمت وحلقت في أجواء القدس والنور، وسبحت في جوهر التوحيد، وتجلت فيها حقيقة العبودية، وبمقدار ما تثبت هذه الصفة بمقدار ما يفاض على الإنسان من كرم الله تعالى.

٢_ الولاية التشريعية:

وهي قسمان:

الأول: حق التشريع

فقد تطلق الولاية التشريعية ويراد بها أن النبي لله أو الإمام عليه السلام يملكان حق التشريع، والمقصود أنهم يملكون وحدهم القدرة على بيان الحكم الشرعي الواقعي الذي يريده الله تعالى والمعرفة الصحيحة لأحكام الله.

وبعبارة أوضح، نحن نعتقد بأن الرسول لله والأئمة عليهم السلام من ولده يملكون علماً ربانياً، وحياً أو إلهاماً، أو نحو ذلك، يمكّنهم من خلاله معرفة حقائق الأشياء، ومعرفة ماذا يريد الله تعالى، وبالتالي معرفة ما هو الحكم الشرعي المناسب، وهذا في الحقيقة عبارة عن قدرة على استكشاف مراد الله تعالى، ونحوٍ من أنحاء الإخبار عن الله تعالى، وليس تشريعاً مستقلاً عن إرادة الله تعالى.

الثاني: حق الأمر والنهي

وقد تطلق الولاية التشريعية، ويراد بها أن للولي أن يأمر وينهى،

وعلى الآخرين أن يطيعوه ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه.

معنى ولاية الفقيه

والمقصود بولاية الفقيه هنا، هو الولاية التشريعية التي نعني بها، حق الأمر وحق الطاعة، وأما سائر أقسام الولاية فلا علاقة لها بولاية الفقيه.

أما الولاية التشريعية بالمعنى الأول، فهي ليست للفقيه، ولم يقل أحد بثبوتها له، بل هو كغيره من المكلفين لا يستغني عن الأنبياء والأئمة عليهم السلام لمعرفة أحكام الله تعالى، ولذا تجده يُتعب نفسه بالبحث والإجتهاد في الأدلة لاستنباط الأحكام الشرعية.

أما الولاية التكوينية، فهي خارجة عن بحثنا، وهي نعمة من الله تعالى يكرم بها بعض عباده بحسب قربهم منه تعالى، سواء كانوا فقهاء أم لم يكونوا، وهذا أمر لا يعرفه إلا الله تعالى، أو من شاء الله أن نعرفه من خلال الآثار والأدلة الواقعية.

ضرورة تشكيل حكومة إسلامية

يعتبر الإمام الخميني قدس سره أن هناك مجموعة عوامل ساهمت في غربة المجتمع الإسلامي عن نظرية الإسلام في الحكم، وعن أن له حكومة يمكنها أن ترعى شؤونه في كل زمان ومكان.

ولأهمية ما ذكره الإمام قدس سره نذكر هنا أهم العوامل التي أشار اليها[٣] بحسب ما فهمناه من كلامه.

العامل الأول:

اليهود الذين ابتليت بهم الأمة الإسلامية منذ بداية وجودها، والذين عملوا جاهدين على تشويه سمعة الإسلام في نظر أبناء المسلمين، والإفتراء عليه، ولا زال هذا دأبهم حتى الآن.

العامل الثاني:

النشاط الإستعماري الذي يعود تاريخه إلى زمن طويل نسبياً، فقد لاحظوا أن العائق الكبير أمام خططهم هو

الإسلام بأحكامه وعقائده وإيمان الناس به، فتحاملوا عليه وكادوا له وجندوا لذلك المبشرين والمستشرقين ووسائل الإعلام، بهدف تحريف حقائق الإسلام، ليصير الناس عامة والمثقفين خاصة بعيدين عن الإسلام، واستغلوا في سبيل نشر ذلك، التطور العلمي للغرب، والثورة الفرنسية، ونقل تجربة الحكم الكنسي في العصور الوسطى، وزعموا أن المشكلة ليست مختصة بهذا الحكم، بل هذا هو حال كل حكم ديني.

العامل الثالث:

ومن العوامل التي ساهمت في ذلك وإن كان تأثيرها غير مباشر وغير مقصود، كتبنا الفقهية والفكرية الإسلامية المطروحة للناس في العهود السابقة، التي خلت من إبراز المفاهيم والحقائق المرتبطة بهذا المبدأ إلا القليل القليل، علماً أنك لو اطلعت على القرآن الكريم وكتب الحديث وهما من أهم مصادر التشريع، لوجدت أنهما مختلفان من حيث المضمون عن الكتب التي كتبها الفقهاء اختلافاً شديداً.

العامل الرابع:

ومن جملة العوامل التي أدت إلى تركيز تلك الفكرة، بعض علماء السوء ووعاظ السلاطين الذين نراهم يسوّقون لأفكار أجنبية عن الإسلام، وقد يشكلون أحياناً غطاءً لبعض الأفكار المنحرفة المتعلقة بالإسلام عامة، وبالحكومة الإسلامية خاصة، وربما أعطوا لأفكارهم لبوس الإسلام.

العامل الخامس:

سوء التطبيق الذي عايشه الناس للأنظمة التي تدعي أنها تحكم باسم الإسلام، يواكبه تضخيم متعمد من قبل الأجهزة المعادية للإسلام لهذا التطبيق السيء، من أجل بيان أن الإسلام وعلماء الإسلام، غير قادرين على حكم وإدارة ومواكبة المجتمعات المعاصرة المتطورة، وأنه كالحكم الكنسي في العصور الوسطى.

أدلة ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية

وعلى كل حال فإن لدينا من العقل والنقل ما يكفي من الأدلة الدالة على ضرورة تشكيل حكومة إسلامية في عصر الغيبة ولنا هنا ثلاثة أدلة:

الدليل الأول: أحكام الإسلام

فمن نظر إجمالاً إلى أحكام الإسلام، وجدها شاملة لجميع شؤون المجتمع:

ففيها الأحكام العبادية.

وفيها القوانين الإقتصادية والحقوقية والإجتماعية، وهي أحكام لا تتحقق إلا بحكومة إسلامية عادلة، وهذا يعني أن الإسلام جاء ومن أهم أهدافه هو ذلك.

وهذه الأحكام الإلهية على اختلافها لم تنسخ بعد وفاة رسول الله ﷺ باتفاق الجميع، بل هي باقية إلى يوم القيامة، وبقاء تلك الأحكام يقضي ببقاء ضرورة تشكيل حكومة إسلامية تتضمن سيادة القانون الإلهي وتتكفل بإجرائه، إذ لا يمكن تحقيق ذلك بغير حكومة إسلامية.

كما أن الضرورة التي دعت الرسول ﷺ لتشكيل حكومة إسلامية لا تزال موجودة في هذا العصر، ولن تزول في أي عصر من العصور، ولذا لم يكن الرسول ﷺ مجرد مبلغ للرسالة، إذ كان يكفيه أن يخبر الناس بما يريده الله تعالى وينتهي الأمر، بل له دور أعظم على مستوى هداية الأمة وإرشادها، والأخذ بيدها، ونشر العدل بينها، وحمايتها في وجه الأعداء تربوياً وفكرياً عسكرياً وسياسياً.

الدليل الثاني: حفظ النظام

قد تسالم الفقهاء والعقلاء على أن حفظ النظام من الواجبات التي لا يمكن التساهل بشأنها، وأن اختلال أمور الناس من الأمور المبغوضة عند الله والناس.

كما أن حفظ ثغور المسلمين وحمايتهم وحماية أوطانهم وممتلكاتهم

وأعراضهم من غزو المعتدين واجب عقلاً وشرعاً، ووجوبه بديهي لا يحتاج إلى دليل، ولا يمكن ذلك إلا بتشكيل حكومة إسلامية عادلة.

فمن كل هذا نتيقن أن المشرع الحكيم قد جعل لنا سبيلاً ما، وكل ما علينا فعله هو أن نفتش عن هذا السبيل.

الدليل الثالث: الروايات

فقد نقل الإمام الخميني ﷺ عن كتب الحديث وخاصة من كتاب الوافي للفيض الكاشاني جملة من الأحاديث الدالة على ضرورة تشكيل حكومة اسلامية، ننقل هنا بعضها، وهي على قسمين:

القسم الأول: ما دل على أن كل ما يحتاج إليه العباد قد شرع الله فيه تشريعاً.

كصحيحة محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام: أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى بينت للأمة جميع ما تحتاج إليه»[٤].

قال الإمام الخميني ﷺ: «أي حاجة كالحاجة إلى تعيين من يدير أمر الأمة، ويحفظ نظام بلاد المسلمين طيلة الزمان ومدى الدهر في عصر الغيبة، مع بقاء أحكام الإسلام التي لا يمكن بسطها إلا بيد والي المسلمين وسائس الأمة والعباد».

القسم الثاني: ما دل على ضرورة الإمامة في حياة الناس من حيث حفظ النظام ورفع الإختلاف، وأن هذه الضرورة لا تنحصر بزمان دون زمان. كالرواية التي رواها الشيخ الصدوق في علل الشرائع، بسنده عن الفضل بن شاذان، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث أنه قال: «فإن قال قائلٍ فلم جُعل أولي الأمر وأمر بطاعتهم؟.

قيل: لعلل كثيرة.

منها: أن الخلق لما وقفوا على حد محدود وأمروا أن لا يتعدوا ذلك الحد

لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيه أميناً، يمنعهم من التعدي والدخول فيما حظر عليهم، لأنه إن لم يكن ذلك كذلك، لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيّماً يمنعهم من الفساد، ويقيم فيهم الحدود والأحكام.

ومنها: أنا لا نجد فرقة من الفرق، ولا ملة من الملل، بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس لما لا بد لهم من أمر الدين والدنيا، فلم يجز في حكمة الحكيم أن يترك الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه ولا قوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوهم، ويقسمون به فيأهم، ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم.

ومنها: أنه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملة، وذهب الدين، وغيرت السنّة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبّهوا ذلك على المسلمين، لأنا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين مع اختلافهم واختلاف اهوائهم وتشتت انحائهم، فلو لم يجعل لهم قيماً حافظاً لما جاء به الرسول لفسدوا على نحو ما بيّنا، وغيرت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان، وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين».

ودلالة هذه الرواية على مقصودنا واضحة.

صفات الولي وشروطه

لا ريب عندنا في أن الولاية هي في الأساس مشروطة بالعصمة، وتحتاج إلى إرشاد خاص من قبل الله تعالى إلى المتصف بها، وكان من المفترض أن يتولّى المعصومون عليهم السلام ولاية الأمر في المجتمع الإسلامي على مر العصور لولا الإنحرافات الخطيرة التي أصابت الأمة الإسلامية، والتي كان من تفاعلاتها غياب الحجة رحمه الله.

وحيث إن الغيبة قد وقعت، ولا

يعلم إلا الله تعالى متى الفرج منها، كان لا بد أن يتوجه السؤال المهم حول كيفية إدارة شؤون الأمة في عصر الغيبة، بعدما ثبت أن مبدأ الحكومة الإسلامية لم يزل بغيبة الإمام عليه السلام فصرنا بحاجة إلى بدل إضطراري إلى أن يظهر المعصوم عليه السلام، فكان لا بد من النظر في الأدلة العقلية والنقلية لنرى مدى إمكانية استكشاف وتحديد المواصفات المطلوبة لمقام الوالي والحاكم.

ويمكن تقسيم الأدلة الدالة على المواصفات والشروط المطلوبة في الحاكم من حيث الإجمال والتفصيل إلى قسمين:

الاول: الدليل الاجمالي.

الثاني: الدليل التفصيلي.

الدليل الإجمالي

وخلاصة: أن الحكومة الإسلامية حكومة تعتمد على قانون محدد هو القانون الإلهي بهدف بسط العدالة الإلهية بين الناس، وهذا يعني بكل بساطة ووضوح، ضرورة أن يكون الوالي متمكنا من صفتين مهمتين هما أساس الحكومة القانونية الإلهية ولا يعقل تحققها إلا بهما:

إحداهما: العلم بالقانون.

وثانيتهما: العدالة و الكفاءة.

ونعني بالعدالة هنا: الحرص على الإلتزام الشخصي والتام بجميع الأحكام الإسلامية الإلزامية والقوانين الإلهية، لا يحيد عنها قيد أنملة، سواء على المستوى الشخصي، أم في علاقاته مع الآخرين.

ونعني بالكفاءة: القدرة على إدارة شؤون الأمة وقيادتها نحو المواقف السليمة، وبهذا المعنى تكون الكفاءة مزيجاً من وعي بشؤون الساعة، وشؤون السياسة، وما يدور في الأمم، وقدرة على فهم الأحداث، وحكمة في تقييم الظرف والواقع، وحدس صائب في اتخاذ الموقف المناسب، وحلم يساعد على تقبل الملاحظات

والنصائح.

ومن البديهي أن الجاهل والظالم والفاسق وغير القادر على إدارة شؤون الأمة وقيادتها واتخاذ القرارات المناسبة، لا يعقل أن يرضى به الله تعالى والياً على المسلمين وعلى مقدراتهم وأموالهم ونفوسهم وأعراضهم، وهذا من البديهيات التي يدركها كل عاقل وكل مسلم، خاصة بعدما علمنا شدة اهتمام المشرّع الأقدس بهذه الأمور واحتياطه الشديد تجاهها.

كما أن هذا المقام لا يليق بغير العادل وإن كان موثوقاً، إذ كيف يمكن أن نفترض أن الله تعالى رضي بمن يرتكب المحرمات ويترك الواجبات ويستهتر بها أو ببعضها، قيّماً على شؤون المسلمين، لمجرد أنه شخص أمين لا يكذب؟! بل كيف يكون أميناً على تطبيق أحكام الإسلام في المجتمع بكل أبعادها ما لم يكن هو نفسه من الملتزمين بها؟! بل ومن المبتعدين عن الدنيا والزاهدين فيها.

وكذلك اشتراط الكفاءة في إدارة الشؤون وقيادة الأمة، فإن هذا الشرط مما يدركه العقل ويعترف به جميع العقلاء، بل هو في الواقع من شروط صلاحية الشخص للولاية، وفاقد هذا الشرط فاقد للأهلية، فيكون سلب الولاية عنه من السالبة بانتفاء الموضوع، ولذا لو فرضنا خلو النصوص عن هذا الشرط، واقتصرت الأدلة على عنوان الفقيه العدل، فإن هذا لا يعني أن غير الكفوء يحق له أن يتولى شؤون الأمة، علماً أن الأدلة اللفظية دلت على اشتراط الكفاءة في الولي، مثلما دلت على اعتبار شرطي العدالة والفقاهة.

وعلى ضوء ما تقدم يظهر أن أمر الولاية في الحكومة الإسلامية في زمن الغيبة الكبرى مرجعه إلى العالم بالقانون الإلهي العادل الكفوء.

وقد رأيت أننا تمكنا من الوصول إلى هذه النتيجة بكل بساطة، بعيداً عن التعقيدات الفقهية، وإن كان يحتاج إلى

بعض التتميم على مستوى اشتراط كون الولي فقيهاً، لأن الإنصاف يقتضي الإعتراف منا بأن هذا الدليل الإجمالي لا يكفي لإثبات شرطية الإجتهاد فلا بد من تتميمه ببحث أكثر تفصيلاً.

الدليل التفصيلي

وأما الدليل التفصيلي فإن الأدلة التفصيلية الدالة على ضرورة توافر صفات معينة في الولي على نوعين:

١ـ الدليل الروائي.

٢ـ الدليل العقلي.

الدليل الروائي

أما الدليل الروائي أي النصوص فقد دلت على أنه ينبغي أن يتوافر في شخصية الولي الشروط التالية:

١ـ شرط الفقاهة:

وقد دلت على ذلك روايات كثيرة نذكر منها:

١ـ موثقة السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا. قيل: يا رسول الله وما دخولهم في الدنيا؟ قال: إتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[٥].

والفقرة التي يتعلق بها الإستدلال هي قوله لله: «أمناء الرسل».

فقد وصفت هذه الرواية الفقهاء بأنهم أمناء لجميع الرسل بمن فيهم رسول الإسلام لله، لأنها لم تخصص الكلام برسول محدد، فيكون هذا العنوان شاملاً لرسول الله صلى الله عليه وآله. وحيث إنه لم يتحدد مورد الأمانة بمورد خاص، فهذا يعني شمولها لجميع الشؤون المتعلقة برسالته وهدفه ودوره، وأوضح هذه الشؤون قيادة الأمة وبسط العدالة الاجتماعية وما لها من المقدمات والأسباب واللوازم، فأمين الرسول صلى الله عليه وآله أمين في جميع شؤونه، وليس شأن رسول الله صلى الله عليه وآله

ذكر الأحكام فقط حتى يكون الفقيه أمينا فيه فقط، بل من شؤونه أيضاً إجراء الأحكام، ومقتضى الأمانة فيها، ان يجريها الفقيه على ما هي عليها في الشرع الإسلامي، وأين تكون الأمانة لو ضاع الهدف من الرسالات والتي هي إجراء الأحكام وإقامة العدل بين الناس وهدايتهم إلى الحق.

٢ـ التوقيع المبارك المنسوب إلى صاحب الأمر روحي فداه الذي نقله الشيخ الصدوق، عن الشيخ الكليني، عن محمد بن عصام الكليني، عن إسحاق بن يعقوب قال: «سألت محمد بن عثمان أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ، فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان عليه السلام: أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك... إلى أن قال: وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[٦].

وأما دلالة هذا التوقيع على المطلوب ففي فقرتين:

إحداهما: قوله عليه السلام: «أما الحوادث الواقعة..» الخ.

وتقريب الإستدلال بها: أن الإمام عليه السلام أمر بالرجوع في نفس الحوادث والمستجدات والوقائع الخارجية إلى رواة الحديث بكل ما تتطلبه تلك الحوادث من رجوع، والحوادث تارة تحتاج إلى مرجعية لمعرفة حكمها الشرعي الكلي، وتارة تحتاج إلى مرجعية تحدد الموقف الشرعي في الساحة العملية، وذلك في الوقائع المرتبطة بالشأن الإجتماعي والسياسي[٧]، وكلا الأمرين كانا من مختصات الإمام المعصوم عليه السلام لو كان ظاهراً، والإمام عليه السلام أمر بالرجوع في كل ذلك إلى رواة الحديث.

فالسائل أراد بسؤاله عن الحوادث الواقعة، الإستفسار عن تكليفه او تكليف الأمة في الحوادث الواقعة لهم، لأن حاجتهم لم تنقطع بغيبة الإمام عليه السلام فكان لا بد من الجواب عن مثل هذا

السؤال، والذي يظهر من الجواب أن الحوادث بكلا قسميها يكون المرجع فيها الرواة والمراد بهم الفقهاء.

والفقرة الثانية: من ناحية التعليل بأنهم «حجتي عليكم وأنا حجة الله».

وتقريب الإستدلال بها، بأن كون المعصوم حجة الله ليس معناه انه مبين الأحكام فقط، بل المراد أن الله تعالى أمر العباد بمتابعته في جميع شؤونهم، وأن لا عذر للناس في التخلف عنه، وهذا من بديهيات المذهب الشيعي صانه الله تعالى ورعاه.

وعليه: فيستفاد من قوله ﷺ: «هم حجتي عليكم وأنا حجة الله» أن المعنى الثابت لكونه رحمه الله حجة الله على العباد قد أثبته رحمه الله أيضا للرواة، فالفقهاء ولاة لأن هذا المعنى من مصاديق الحجية هنا.

٢_ شرط العدالة:

وما يلائمها، كالإسلام والإيمان وحمل هم الرسالة ونحو ذلك.

وقد دلت على هذا المعنى آيات من القرآن الكريم وروايات من السنة:

أما الآيات فكثيرة، نذكر هنا نماذج منها:

منها: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[٨].

فقد دلت هذه الآية على أنه لا تجوز طاعة من يتبع هواه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[٩].

حيث دلت على أنه لا يجوز أن يكون ولي الأمة الإسلامية من القوم الكافرين مهما كان انتماؤهم العقائدي، وهو ما أردنا استفادته من الآية الكريمة.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُوا اللهَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

حيث دلت هذه الآية المباركة على أنه لا يجوز لنا أن نتولى من يتخذ ديننا لهواً ولعباً.

والآية وإن تحدثت عن الذين أوتوا الكتاب، لكن عدم جواز اتخاذهم أولياء استند إلى كونهم من الذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً، فلا يجوز لنا تولي من هذه صفته، وإن انتسب إلى الإسلام أو الشيعة، ولا تسليم النفس له ليفعل بها ما يشاء كما يفعل بعض الضالة الجهلة.

وأما الروايات فكثيرة أيضا نذكر جملة منها:

الرواية الأولى: ما في نهج البلاغة: «ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولا وعباده حولا والصالحين حربا والفاسقين حزباً».

الرواية الثانية: ما رواه الكليني بسنده عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم أو «حتى يكون للرعية كالأب الرحيم»[10].

٣_ شرط الكفاءة:

وقد وردت عدة نصوص تدل على اعتبار الكفاءة نذكر منها عدة روايات:

منها: قوله عليه السلام في نهج البلاغة: «أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغب استعتب، فإن أبى قوتل».

ومعنى أقواهم عليه: أكفأهم لتولي الأمر وقيادة الأمة.

٤_ شروط أخرى:

منها: ما في النهج عن أمير

المؤمنين عليه السلام «إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره».

وهذا الشرط ليس مختصاً بالمعصوم، بل يشمل كل من تصدى من أئمة العدل لإمامة المسلمين وقيادتهم، والتعبير بالفرض يدل على الوجوب.

ومنها: ما في نهج البلاغة أيضاً: «ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله».

ومنها: إجتناب البخل والجبن والحرص، وأن لا يصانع على حساب الحق، وأن يكون حليماً بالرعية ناصحاً لها.

وفي نهج البلاغة رواية جامعة لهذه الشروط والمواصفات وهي قوله عليه السلام: «لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة».

هذا كله في الأدلة اللفظية الدالة على ثبوت الولاية للفقيه العدل الكفوء.

وأما الدليل العقلي فيأتي في الدرس التالي إن شاء الله.

الدليل العقلي (الفقاهة خاصة)

الدليل العقلي: هو الدليل المسمى بدليل الحسبة، الذي نعتقد أنه لم ينكره أحد من العلماء كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

ويتألف هذا الدليل من مجموعة مقدمات هي:

المقدمة الأولى: أن الحكومة

الإسلامية ضرورة شرعية وعقلية كما تقدم.

المقدمة الثانية: أنه لا بد من ولي لهذه الحكومة سواء كان شخصاً واحداً أو مجموعة أشخاص، وهذا من لوازم المقدمة الأولى.

المقدمة الثالثة: نفترض أن كل الروايات التي تقدمت غير دالة على ثبوت الولاية للفقيه، لكن لا يوجد دليل ينفي الولاية عنه أو يثبتها للأعم من الفقيه وغير الفقيه.

المقدمة الرابعة: ومقتضى المقدمة الثالثة أننا نشك في اشتراط الإجتهاد في الولي، وهذا يعني أن المسألة أمام احتمالين لا ثالث لهما وهما: الإشتراط، وعدم الإشتراط.

ورعاية الإحتمال الأول تقتضي أن يكون الولي فقيهاً زيادة على الشروط الأخرى التي ثبت اعتبارها في الولي، ومقتضى رعاية الإحتمال الثاني أنه يمكن للفقيه وغير الفقيه أن يكون وليا إن توفرت فيه باقي الشروط.

ولا مجال لاحتمال ثالث أعني احتمال اشتراط أن يكون الولي غير فقيه وانحصار الولاية بغير الفقيه، لأن غير الفقيه لن يتميز عن الفقيه بشيء يتطلبه منصب الولاية، وأي صفة تفرض في غير الفقيه من الصفات اللازمة للولي يمكن فرضها في الفقيه أيضاً، ولا يعقل أن يكون الفقه والإجتهاد منقصة تجعل غير الفقيه أرجح من الفقيه لمجرد أن هذا فقيه، بل العكس هو الصحيح، لأن العلم بالقانون من شؤون هذا المنصب، والفقه والإجتهاد أسمى من التقليد، فالميزة للفقيه، ولذا احتملنا الإشتراط وانحصار الولاية به.

وعند دوران الأمر بين الإحتمالين المشار إليهما، يتدخل العقل لصالح الإحتمال الأول، لأن الترديد بين الإحتمالين يستلزم الترديد بين تعين الولاية بالفقيه وبين التخيير بينه وبين غير الفقيه، ودائماً مع فرض توفر

الشروط الأخرى، والقاعدة عند العقل في مثل هذه الأحوال هو الأخذ بالتعيين.

والسبب في ذلك: أن هنا أصلاً عقلائياً وعقلياً وشرعياً وهو أن لا ولاية لأحد على أحد، وهذه القاعدة لا يمكن استثناء أي مورد منها إلا بدليل تام، ولا دليل على حق الولاية لغير الفقيه، بل هو مجرد احتمال، بينما صلاحية الفقيه للولاية أمر متيقن على كل حال، وهذا يعني أن الفقيه ثبتت ولايته، وأما غيره فيبقى تحت النفي المدلول عليه بالأصل، فلا تكون له ولاية على أحد.

شرط الأكفئية

ولو وجد فقيهان، وكان أحدهما أكفأ من الآخر، فالمتعين تقديم الأكفأ، ومعنى أن يكون أحدهما أكفأ من الآخر، أن يكون أقدر على قيادة الأمة بما يتطلب ذلك من أعرفية بالواقع وأفضلية في الإدارة وأقدرية على تحديد الموقف ونحو ذلك.

والذي يدل على ترجيح الأكفئية: ما علمناه من مجمل النصوص القرآنية والروائية من أن شأن الأمة الإسلامية من الشؤون التي اهتم بها الإسلام ولم يرض بالتساهل به، والواجب رعاية حقوق الأمة قدر الإمكان، وهذا الأمر ينبغي عده من البديهيات الإسلامية، ولذا جرت السنة الإلهية على اختيار الأفضل في كل عصر وزمان لمقام النبوة والإمامة، ورعاية هذا الحق حق الرعاية، لا يكون الا باختيار الأفضل الأقدر على إيصال الأمة إلى حقوقها وتحقيق مصالحها وتجنيبها الأخطاء والمفاسد، فلو تركناه إلى الأقل فضلاً نكون قد عرضنا بعض المصالح المرتبطة بالأمة للضياع أو إيقاعها في بعض المفاسد، وهذا الإحتمال ينبغي رعايته نظرا لأهمية المحتمل.

أدلة عدم جواز تولي المرأة للقيادة

لو تأملنا في ما ورد لدينا من

نصوص وفيما قاله علماؤنا يظهر أنه لا يوجد دليل شرعي قوي يمكن الإحتجاج به في مقام المحاورة يمنع بشكل جازم المرأة من تولي هذا الموقع، دون أن يعني هذا أنه لا يوجد دليل أصلاً. ولتفسير هذا الكلام علينا النظر فيما ذكروه من أدلة على النفي مقتصرين على أهم ما ذكر في هذا المجال ثم نبيّن أخيراً الدليل المعتمد.

الدليل الأول: مجموعة روايات رُويت بِصيغ متعددة عن رسول الله لله في بعضها، وعن الأئمة عليهم السلام في بعضها الآخر، والذي مضمونه أن المرأة لا تولّى، وهي على نحوين:

النحو الأول: ما روي عن رسول الله لله في كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: «أن المرأة لا تُولى القضاء»[11].

النحو الثاني: ما كان مطلقا غير مقيد بالقضاء، نحو ما روي عن النبي لله ونقل بصيغ متعددة: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» و «لا يقدس الله امة قادتهم امرأة»[12].

ولكن ليس هناك طريق معتبر لأي من هذه الروايات، فلا قيمة لهذا الدليل على مستوى الحجية.

الدليل الثاني: وهو الإستدلال بآية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾[13].

لكن الظاهر ان الآية مختصة بالحياة الزوجية ولا تشمل الحياة الإجتماعية، فلا منافاة بين هذه الآية وبين ثبوت الولاية لها، غايته أنها في الحياة الزوجية يجب أن تكون مطيعة للرجل فيما هو حق للرجل في ان يأمرها به، كما أن ثبوت حق الطاعة للوالد على ولده لا يمنع الولد من أن يكون ولياً على الأمة بما فيها أبوه.

الدليل الثالث: قد ذكرنا سابقا في مباحث أدلة ولاية الفقيه، أن ثبوت الولاية لشخص يحتاج إلى دليل، ولا

يكفي عدم الدليل على النفي لنثبت أنه يجوز للمرأة تولي القضاء والإمارة، لأن الإثبات أيضاً محتاج إلى دليل.

لذا يجب البحث عما إذا كان في الأدلة ما يثبت ذلك، ولو ثبت مثل هذا الدليل، تصبح المرأة كالرجل طرفاً من أطراف المقارنة عند البحث عن الأفضل، فإن كانت هي الأفضل من حيث الصفات المعتبرة في الولي كانت الولاية لها، وإن كان غيرها الأفضل فالولاية له.

والمعروف بين العلماء أنه لا وجود لمثل هذا الإطلاق، لأن الروايات الواردة في أدلة ولاية الفقيه وإن لم تقيد الأمر بالرجل، لكن كثرة الروايات التي تقدم ذكر بعضها الدال على عدم جواز تولي المرأة القضاء والولاية تجعل الإطلاق بعيداً.

فإننا وإن لم نقبل بالإستدلال بهذه الأخبار، لكن هذا لا يعني أن نمر عليها مرور الكرام بعدما كانت كثيرة أوجدت ارتكازا في أذهان المسلمين عموما والفقهاء خصوصاً، مما يدعو إلى العثور على رواية واضحة وصريحة في الدلالة على حق المرأة بتولي القضاء أو الولاية حتى يمكننا تبني هذا الرأي.

ونتيجة ما تقدم أن نصير في شك في أنه هل يجوز للمرأة أن تتولى القضاء والولاية في الحكومة الإسلامية أم لا؟ ومع هذا الشك تكون النتيجة القهرية أنه لا يحق لها هذا المنصب بناء على الأصل المشار إليه سابقاً.

الهوامش:

[١] ونقصد بالإذن معناه العام الذي يشمل السماح للفعل بأن يقع، فإذا أردت أن تقوم بعمل وسمح الله تعالى لهذا العمل أن يقع، فهو إذن منه تعالى، لكنه إذن كانت على أساسه سنن الإبتلاء والإختبار.

[٢] آل عمران: ٤٩.

[٣] راجع كتاب الحكومة الإسلامية للإمام الخميني ﷺ.

[٤] الوافي، ج١، ص ٢٦ حجرية.

[٥] أصول الكافي، ج١، ص ٦٤.

[٦] وسائل الشيعة، ج٨١، باب ١١ من أبواب صفات القاضي نقلاً عن كتاب إكمال الدين وإتمام النعمة للشيخ الصدوق وعن كتاب الغيبة للشيخ الطوسي.

[٧] أما الوقائع المرتبطة بالشأن الشخصي فأمر تشخيصها للمكلف نفسه كما لو شك أن هذا الماء الذي أمامه طاهر أو نجس وليس شأنها أن يسأل عنها الإمام المعصوم عليه السلام.

[٨] الكهف: ٢٨.

[٩] النساء: ١٤١.

[١٠] الكافي، ج١، كتاب الحجة باب ما يجب من حق الإمام على الرعية.

[١١] راجع وسائل الشيعة، ج ١٨ الباب الثاني من ابواب صفات القاضي. وج١٤، باب ٢٣ من أبواب مقدمات النكاح. وسنن البيهقي ج١٠، ص ١١٨.

[١٢] كنز العمال، ج٦، ص ٤٠، الباب ١ من كتاب الامارة من قسم الأقوال.

[١٣] النساء: ٣٤.

أ. د جواد كاظم منشد النصر الله
م. م شهيد كريم محمد الكعبى
استاذان وباحثان اكاديميان من العراق

الثورة الحسينية
في الرواية التاريخية والقراءة الاستشراقية

ليس من المبالغة القول: إن الاستشراق اهتم ولا زال بتاريخ الإسلام والمسلمين بما يقرب أو يوازي اهتمام المسلمين أنفسهم بل أحيانا يزيد؛ إذ تشير التقديرات إلى أن عدد الكتب التي كتبت عن الشرق الأدنى بلغ نحو (٦٠٠٠٠ كتاب) ما بين عامي (١٨٠٠ و١٩٥٠م)[١]. وكان لتاريخ الإسلام والمسلمين الحظ الأوفر من هذه الكتب والبحوث والدراسات، بل إن عناية الاستشراق بالتراث العربي الإسلامي وحضارته فاقت كل الجهود التي قدمها الاستشراق لاختراق أفق الشرق الفكري[٢]. وليس هذا من المستغرب إذا علمنا أنه يوجد في أمريكا وحدها حوالي (٥٠ مركز) متخصص بالعالم الإسلامي، وأن المستشرقين يصدرون (٣٠٠ مجلة) متنوعة بمختلف اللغات، وعقدوا (٣٠ مؤتمر دولي)

فضلاً عن عشرات المؤتمرات والندوات الإقليمية خلال قرن واحد، ومنذ (١٥٠ سنة) وحتى الوقت الحاضر، يصدر في أوربا بلغاتها المختلفة كتاب واحد يومياً ـ على الأقل ـ عن الإسلام والمسلمين[٣].

وقد اتفقت هذه الكمية الهائلة من البحوث والدراسات واختلفت في مواضيع وجزئيات شتى؛ بحسب متبنيات كل مستشرق ودوافعه وتوجّهه وآرائه وتفسيراته وتوفّر مصادره. ومنهجيته وموضوعيته ومتبنّياته.

وكان ميدان المذاهب والفرق الإسلامية، من الميادين الخصبة للاستشراق؛ لما يترتب عليه من سبر لأغوار وكنه تلك المذاهب والفرق، للوقوف على جذور ما بقي منها حاضراً ومتجسداً؛ لربط الماضي بالحاضر وصياغة تاريخ متسلسل لهذا المذهب أو تلك الفرقة؛ لما قد تحتاجه مسائل تقييمية، أو رصدية، وحتى سياسية في الوقت الحاضر. أو لأن المستشرقين في الأعم الأغلب إنما كانوا يهدفون ـ من خلال تلك الدراسات ـ لتعميق وتوسيع وتكريس حدة الخلافات وتوسيعها وتكريسها بين المذاهب والفرق الإسلامية، وإبراز حالات الانقسام والتباين والتجزئة بين صفوف المسلمين سياسياً وفكرياً ودينياً. فضلاً عن أسباب أخرى من بينها حكم التخصص في التاريخ الإسلامي الذي لا مندوحة من أنه يجر للخوض في هذا الميدان، أو أن محاولة تقصي الرواية التاريخية ونقدها، وتخليصها من شوائب الأهواء والتوجهات الدينية والمذهبية، هي من تقود للتعرض لتفاصيل مشابهة. أو غير ذلك من الأسباب.

وبمقتضى ما توخاه الاستشراق من الخوض في هذا الميدان؛ كان للتشيع والشيعة وسير الأئمة: نصيبٌ وافرٌ من الجهد والاهتمام

الاستشراقي[٤]، ما يكاد معه يقارن بما كتب عن السيرة النبوية، ويرجح على الاهتمام بالكتابة عن الفرق والمذاهب الأخرى، أو سير الشخصيات المنتمية لها. فحاول الاستشراق تفحص كل خيوط النسيج الفكري والعقائدي الشيعي، واندفع المستشرقون، من شتى الجنسيات الأوربية والأمريكية وغيرها، على سبر أغوار الحركة الشيعية، والنفوذ إلى عمقها الضارب والقديم قدم الإسلام نفسه[٥] لدراسته والتعرف حتى على الشعائر والطقوس والممارسات العزائية، فسافروا إلى المدن الشيعية المقدسة، ومكثوا فيها شهوراً وسنين، وبطبيعة الحال بذلوا جهوداً لا تنكر، وتحملوا مخاطر وظروفاً لا يمكن التكهن بها؛ لرؤية تلك الممارسات، وتفحصها عن كثب وقرب، والكتابة عنها[٦].

ولكن مما يؤسف له أن الأعم الأغلب من تلك الدراسات كانت تحتوي على استنتاجات وتفسيرات خاطئة وغير منصفة، ولعلها حاقدة؛ لما كانوا يعملون عليه من تعميق الخلاف بين المذاهب الإسلامية، أو لأنهم استمدوا موادهم من مصادر أولية وأساسية إلا أنها كانت لمؤلفين داروا في فلك السلطة، أو انتفعوا منها مادياً ومعنوياً، فجافوا الحقيقة التاريخية وجانبوها تماماً وشوهوا صورة التشيع والشيعة لما يمثلونه من جانب معارضة دائم للسلطة السنية. أو أنها لمؤلفين حاولوا ازدراء مذهب التشيع واتهامه بما ليس فيه، بل حتى تكفير معتنقيه، لأنه يتقاطع مع مذاهبهم التي ينتمون إليها!!

وبصورة عامة كانت مؤلفات مدرسة الخلفاء، تحاول قمع رواية المدرسة الشيعية وتغييبها واتّهامها وتشويهها وتسويفها وتكذيبها وتضعيفها... إلخ، بما ركنت إليه تلك المصادر من روايات أموية وعباسية ضعيفة أو معدلة أو محرفة أو موضوعة من قبل رواتها. وهي ما كانت سلاحاً

بيد مدعي الموضوعية من المستشرقين ـ فضلاً عمن لا يتصف بهذه الصفة ـ لأن يدلوا بتفسيرات خاطئة وغير موضوعية البتة[٧].

أما عن سبب هذا الاهتمام المطرد بمذهب التشيع، فقد تقدم أن قلنا: إنّهم يحاولون تهويل حدة الخلافات بين المذاهب والفرق الإسلامية سيما بين السنة والشيعة، باعتبارهما القطبين الذين يتمحور حولهما الإسلام اليوم، خصوصاً وإن المذهب السني كان ولا يزال يمسك بزمام السلطة في الدول الإسلامية ـ حتى في بلدان غالبيتها من الشيعة ـ أكثر من المذهب الشيعي، أي: إن المعارضة والتنافر الخافت لا يزال مستمراً، ومن السهل إشعال فتيله أو تأجيجه في أي وقت، من خلال بيان الفروق بينهما، وتعظيمها وتوسيعها، بل ومحاولة القذف ببعض آراء هذا المذهب أو ذاك في أحضان المسيحية كما يفعل المبشرون، أو أحضان التوراتية كما يفعل اليهود. إلا أن هذا لا يبدو سببا كافياً، لمتابعات استشراقية دقيقة للفقه الإمامي الإثني عشري، أو دراسة متقصية لعقيدة الغيبة والإمام المنتظر، أو دراسات عن واقعة كربلاء، وما أحدثته من هزة في الوجدان والشعور الإسلامي والإنساني، أو تقصّ ودراسة للحركة الفكرية والعلمية متمثلة بالإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أو دراسة عن دور المجتهد ومرجع التقليد،.. إلى غيرها من الدراسات المرتبطة بمذهب التشيع. ولذلك تبرز للعيان أسباب أخرى منها:

التكفير عن، أو محاولة تصحيح أخطاء مكتسبة عن الماضي، أو محاولة استعمال مصادر أكثر حيادية، أو أنها تنتمي لمدرسة التشيع نفسها. فقد كان المستشرقون القدامى ـ سيما الجيل الأول منهم ـ قد أقصوا عقيدة التشيع، والحركات الشيعية، والديناميكية الفعالة لمذهب التشيع من أحداث التاريخ الإسلامي؛ اعتماداً

على التوجهات التي سطرتها مرويات كتب مدرسة الخلفاء، ككتاب (مقالات الإسلاميين للأشعري ت٣٣٠هـ)[٨]، وكتاب (الفرق بين الفرق للبغدادي ت٤٢٩هـ)[٩]، وكتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري ت٤٥٦هـ)[١٠]، وكتاب (الملل والنحل للشهرستاني ت٥٤٨ هـ)[١١].

فعلى سبيل المثال نجد كتاب الفصل (لابن حزم) الذي حقق وترجم وطبع منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر، واعتمده كثير من المستشرقين في السنوات الأولى من القرن العشرين[١٢]. ولربما راج هذا الكتاب؛ لما يتصف به مؤلفه من تعسف وغلو في التحامل على مذهب التشيع، والمذاهب الأخرى ممن يخالفونه في الرأي، إذ كان «كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه فنفرت عنه القلوب واستهدف فقهاء وقته فتمالؤوا على بغضه وردّوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه فأقصته الملوك وشردته عن بلاده.. كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقين وإنما قال ذلك لكثرة وقوعه في الأئمة»[١٣]. فلم يأل (ابن حزم)[١٤] جهداً في تشويه صورة الشيعة والمذهب الشيعي؛ لأنه يخالفهم في المذهب من جانب، ولأن جديه (سفيان) وأبيه (يزيد) كانا موالي لـ (يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي)[١٥]. فنراه يلصق بالشيعة ومذهب التشيع أكاذيب وافتراءات لا تجد لها عينا ولا أثراً، كاتهامهم أنهم يقولون بتحريف القرآن، وأنهم يجيزون نكاح تسعة نساء[١٦]، وإمامة المرأة والحمل في بطن أمه، وأن مذهبهم مأخوذ من عبد الله بن سبأ[١٧] الذي أحرق الإمام

علي عليه السلام عدداً من أصحابه[١٨]. بل أكثر من ذلك كله، إذ يدعي أن الروافض[١٩] ليسوا من المسلمين! ويقصد بهم أتباع مدرسة أهل البيت: [٢٠]، ولذلك تصور، بل تيقن عدد من المستشرقين القدامى أن حركة التشيع ما هي إلا حركة منعزلة، وذات تأثير ضئيل في التاريخ الإسلامي.

إلا أنه وبمرور الزمن، وعندما شرع المستشرقون بدراسة مذهب التشيع، من مصادره ومنابعه الأساسية، عرفوا مقدار الإنزلاقات التي سطروها في بحوثهم ودراساتهم، ووقفوا على كمية هائلة من المعلومات التي جافت الواقع وجانبت الصحة والدقة. فعرفوا أنها حركة مقصاة تعمداً، وأن لها ثقلها في التاريخ والحاضر الإسلاميين. وعلى الرغم من أنّهم لم يكونوا يتوخون الدقة والموضوعية في الحكم، إلا أنهم كانوا بحاجة لرصد وإحصاءات دقيقة وصحيحة؛ لما يترتب على ذلك من رسم لمشاريع سياسية، وأخرى اقتصادية وفكرية وثقافية، ولما يتطلبه عنصر المواجهة مع الخصم. فشرعوا حين ذاك يبحثون في التشيع بالاعتماد على مؤلفات علمائه ومؤرخيه، وسافر بعضهم إلى إيران والعراق وغيرها بحثاً عن المخطوطات والكتب القديمة فدرسوها وترجموها؛ للوقوف على حقيقة هذه الطائفة، كالمستشرق (D. M. Donaldson) دوايت م. دونلدسن[٢١] الذي يعد في مقدمة من اهتموا بهذا المجال، ومن أهم مؤلفاته كتابه (عقيدة الشيعة)[٢٢] الذي يظهر انه جاء استجابة ملحة لرغبة استشراقية للتعرف عن التشيع إذ كتب يقول: (كتب الأستاذ براون[٢٣] سنة ١٩٢٤م قائلا: ما زلنا نفتقر إلى مؤلف شامل معتبر عن عقيدة الشيعة بأية لغة غربية)[٢٤].

وكان من نتيجة هذا الاطلاع، أن تبين للمستشرقين أن العقيدة أو

المذهب الشيعي، هو مذهب متحرك وتطوري فكرياً وحضارياً؛ لأنه يعتمد التجديد والعقل والاجتهاد، ولا يعاني الجمود والتكرار. بمعنى أن حرية الفكر الشيعي وانفتاحه وتطوره، وتلبيته لاحتياجات العصر، يجعل من الإسلام قادراً على استيعاب الفلسفات والأفكار الحديثة وامتصاصها، وقولبتها وصياغتها صياغة إسلامية شرعية، مما يجعله منافساً للفلسفات والأفكار والنظم الأوربية الحديثة. ولعل هذا ما ساق الغربيين للبحث في مسائل الغيبة والنيابة والاجتهاد والمرجعية الدينية. وفي هذا يقول (Bernard Lewis)[٢٥]: «لم تلاق كل الأفكار المستوردة من الغرب، سواء من طريق الغربيين الدخلاء أو وكلائهم المتغربنين، الرفض، بل إن بعض هذه الأفكار حظيت بالقبول حتى من قبل أشد الناس تطرفاً.. إحدى هذه الأفكار: الحرية السياسية.. وعمليات التمثيل البرلمانية، والانتخابات والحكومات الدستورية، حتى الجمهورية الإسلامية الإيرانية لها الآن دستور مكتوب، ومجلس نواب منتخب، بالإضافة إلى هيئة دينية حاكمة، وليس شيء من ذلك كله كان وارداً في التعاليم الإسلامية في الماضي»[٢٦].

ويقول (Louis Massignon)[٢٧]: «وأما فكرة الشيعة عن الإمامة، تلك الفكرة التي كانت قوية جداً في المغرب، فالظاهر أنها اختفت مورثة فكرة المهدي، التي تنطوي دائماً رغم كمونها على حركة باطنية شديدة، والتي تترقب بفارغ الصبر ظهور المهدي الذي سيسترد حقوق الإسلام بحد السيف»[٢٨].

لقد حاول هؤلاء ربط التشيع بالإرهاب، من خلال الوقوف على دراسة بعض حركات الغلو المنزلقة عن مذهب التشيع، ولعل أبرز مثال على ذلك ما توخاه المستشرق البريطاني المعاصر (Tucker) في بحثه

(أبومنصور العجلي وفرقة المنصورية. دراسة في إرهاب العصور الوسطى)، وما سعى إليه المستشرق (Lewis Bernard) في دراسته للحشاشين الإسماعيلية[٢٩]، إذ اختار عنوان (القتلة). من تصنيف الشيعة إلى معتدلين ومتطرفين، ومحاولة إبراز، والربط بين الأخيرين وبين عقيدة الفدائية والانتحارية في قتل الأعداء، لتلك الحركات وبعض الشيعة في الوقت الحاضر[٣٠]. في حين نجده في كتابه (الإسلام الأصولي) يقول: «الحركة التي تدعى هذه الأيام بالأصولية ليست هي النموذج الإسلامي الوحيد. هناك نماذج أخرى متنورة ومتسامحة يمكن أن تساعد على إلهام الانجازات العظيمة للحضارة الإسلامية في الماضي. ونحن نأمل أن هذه النماذج سوف تنتصر مع مرور الوقت. من جانبنا ينبغي علينا أن نتخذ كل الاحتياطات لتجنب خطر عهد جديد من الحروب الدينية، مترفعين عن إثارة الخلافات أو إحياء الأحقاد القديمة»[٣١].

إنّ دخول الشيعة واختراقهم ووعي قطاع عريض من أوساط الرأي العام؛ على أثر انتصار الثورة الإسلامية في إيران (١٩٧٩م)، ودخولهم في نزاع مع الغرب. أدّى إلى ظهور كتب مثل (سطوع نجم الشيعة. للصحفي والمستشرق الألماني Gerhard Konzelmann جرهارد كونسلمان) و (في الإسلام الإيراني جوانب روحية) و (فلسفة الشيعة الإثنا عشرية)، و (مشاهد روحية وفلسفية للإسلام في الإطار الإيراني) للمستشرق والفيلسوف الفرنسي Henry Corbin هنري كوربان) و (التشيع والتحول في العصر الصفوي) للمستشرق البريطاني Colin Turner كولن تيرنر) و (الإسلام الشيعي عقائد وأيدلوجيات للمستشرق الفرنسي يان ريشار) و (يقظة أو نهوض أو انبعاث الشيعة. للأمريكي Valy Nasr فالي ناسر)

وغيرها. كما كان لانخراط الشيعة في الحرب الأهلية في لبنان بصورة تدخل عسكري بعد الغزو الإسرائيلي (١٩٨٢م)، والحرب الأهلية في أفغانستان ومشاركة الشيعة فيها، والتنازع بين الأرمن والآذربيجانيين على جبل (قره باغ) ومشاركة الشيعة من الطرفين في هذا النزاع، وثورات الشيعة في جنوب العراق ووسطه بعد حرب الخليج (١٩٩١م) و (١٩٩٩م)، ومن ثم بعد سقوط صدام (٢٠٠٣م) اتضح فجأة ـ للغربيين طبعاً ـ أن الشيعة يشكلون أكثرية سكان العراق، وأنه من حقهم المطالبة، وأخذ زمام المبادرة في تولي السلطة. كل هذه الأحداث أثرت تأثيراً بارزاً في دفع الاستشراق للتوغل في ميدان الشيعة والتشيع، وبرَّزت الوجه الحقيقي للشيعة كقوة سياسية فاعلة[٣٢].

وبطبيعة الحال كان بين تلك الدراسات القديمة والكلاسيكية، وبين هذه الدراسات، التي برزت وطفت على السطح الاستشراقي، نتيجة للأسباب أعلاه تباين كبير في الرؤى والتفسيرات، حتى على مستوى المسائل التاريخية، كمسألة الثورة في كربلاء التضحية والصمود والوفاء. فبينما كان أكثر المستشرقين والمفكرين الغربيين الكلاسيكيين متأثراً بالرواية التاريخية السنية أو السلطوية غير المبرأة من الأهواء الحزبية والمذهبية والسياسية، نجد عدداً من مستشرقي الجيل اللاحق والوقت الحاضر ومفكريهم قد نأوا بأنفسهم عن المتابعة، والأخذ عن والسير في فلك تلك الروايات والنصوص، وفضلوا إما المشاهدة الحية لما يجري على أرض الواقع وربطه بالأثر أو الجذر التاريخي أي: سحب الحاضر ليلاصق الماضي، أو اعتماد ذلك الأثر ورسم خط بياني بينه وبين الممارسة والواقع الحالي. أي: سحب الماضي على الحاضر، وفي كلا الحالين فضلوا استعمال المصادر الشيعية قدر الإمكان، إلا أن هذا لا يعني غياب النظرة السلبية

وانقشاعها تماماً، فما زال هناك من يكتب وهو بين قضبان الرواية الأموية والعباسية السلطوية، أو بين انغلاقات أو توجيهات وتجاذبات المصلحة السياسية أوالأيديولوجية. فالحال في الكتابة عن التشيع شبيهة أو هي ذاتها في الكتابة عن الإسلام والسيرة النبوية، إذ بدأت دائرة في فلك الكنيسة والتوجيه التبشيري المسيحي الطائفي المسيء والحاقد، ثم أخذت تدريجياً تجلو صدأ تلك الحقبة الكنسية المتعصبة وترسباتها، التي أضحت ممجوجة وغير مرحب بها من قبل المستشرقين ــ الموضوعيين والمعتدلين طبعاً ـ أنفسهم. أطلق عليها (حقبة الجهل أو حقبة جهل الخيال الظافر أو المنتصر)[٣٣]. وسمي ما بعدها بـ(حقبة التعقل والأمل، (ومن ثم) حقبة لحظة الرؤيا[٣٤]، أو نمو وذبول رؤية أقل سجالية أو عدائية للإسلام، (ومن ثم) حقبة التعايش المقارب، ومن التعايش إلى الموضوعية، أو التعايش السلمي والتقارب، (ومن ثم) من التعايش السلمي إلى الموضوعية)[٣٥].

وهكذا الحال بالنسبة للكتابة عن الشيعة والتشيع، وفي كلا الحالتين بقيت رواسب كثيرة من ظلال الحقبة السابقة. وسنحاول في هذه العجالة تتبع ورصد شريحة من الأعمال الاستشراقية المنتمية للحقبتين، بخصوص ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وتضحيته في كربلاء الشهادة.

نبتدئ هذه المقاربة مع (Julius Wellhausen يوليوس فلهوزن)[٣٦]. فقد كان في كتابيه احزاب المعارضة والدولة العربية وسقوطها اعتمد فيه بشكل أساس على (تاريخ الطبري)، فحاول استخلاص أرجح الروايات، ومقابلتها مع الروايات الواردة عند (ابن الأثير في الكامل)، وهو في هذا الكتاب كان أول من أراد الدفاع أو إنصاف بني أمية ـ حسب اعتقاده أنهم ظلموا ـ من عصبية المؤرخين التي أملتها ــ حسب تقديره ــ العصبية الشيعية وغير الشيعية[٣٧]. كما «انصب

إعجابه على الخوارج الذين خرجوا على كل أشكال الاستبداد السياسي باسم الدين، أو باسم تأويل معين للدين. وبهذا المعنى للبيوريتانية (الطهورية) فقد عد فلهاوزن آراء الخوارج ونضالهم، مواجهة منهم لآراء الشيعة (قدسية أهل البيت) كما هي مواجهة مع الأمويين المستبدين دونما اعتبار لتوجهاتهم الدينية. فالخوارج عند فلهاوزن هم بروتستانت الإسلام، وقد أثبتوا ذلك ليس في ثوراتهم فقط، بل في الدول التي أنشؤوها بعمان والمغرب. وفي حين كان من المنتظر أن يتطور التشيع من معارضة سياسية إلى «لاهوت»؛ فإن التطور اللاهوتي الذي شهدته الإباضية (إحدى فرق المحكمة) إنما حصل بسبب هزيمة الفكر الجمهوري لديهم، لصالح مؤسسة الخلافة وإمبراطوريتها الضخمة»[٣٨]. وهو في كتابه هذا يعدّ (اليعقوبي) ممثلاً لرأي المدرسة الشيعية ـ وشتان بين تشيع الشيعة وتشيع اليعقوبي ـ ولذلك اعتمد رواية (أبي مخنف) الواردة عند الطبري، ورجحها على غيرها، كما اعتمدها ميزاناً لمقابلة الروايات الأخرى.

فكان ما نقله عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام وشهادته قوله: «... رفض أن يبايع يزيداً، وحتى يخلص من سلطانه فر من المدينة.. فدعاه أهل الكوفة إليهم للخروج تحت قيادته على سلطان بني أمية.. ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة التي وجهها كثيرون.. وظنّ أنّه سيستقبل في الكوفة استقبالاً حافلاً، ولم يكن يعلم شيئاً عن نهاية مسلم بن عقيل الأليمة.. وكان يود أن يعود أدراجه لولا أن إخوة القتيل طالبوا بالمضي في الأمر لينتقموا لمقتل أخيهم.. أما حفيد النبي فلم يجسر أحد على قتله، إلى أن قام شمر فقضى على هذا التردد. لقد كان قائد الهجوم، إن صح الحديث عن قيادة هنا فأفلح

أولاً في أن يبعد الحسين من معسكر النسوة والأطفال، وهو معسكر لم يكن لأحد أن يمسه بأذى.. ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه حتى أن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها.. ولم يتوقف النهب إلا لما جاء عمر بن سعد.. ودفن شهداء كربلاء في الغاضرية، أما رؤوسهم فقد أُحتزت وأخذت.. إلى الخليفة يزيد في دمشق فسر بما حدث كل السرور، ولذ له أن يمسك بقضيب وينكت به في ثغر الحسين. أمّا السبايا والأطفال فقد عاملهم يزيد بشهامة وعطف، وأظهر الصداقة لعلي بن الحسين.. مما جعل علياً يعترف له بالجميل. وأذن لأسرة الحسين بالعودة إلى المدينة، في صحبة رجل أبدى من الرقة والاحترام نحو النسوة، ما جعلهن يقدمن له أساورهن شكراً له على صنيعه معهن.. وما كان للمرء أن يستفيد كثيراً من المعلومات المهمة ــ من شيعي متحمس مثل اليعقوبي عن حادث له عند أصحاب مذهبه أهمية قصوى.. وأبو مخنف هو الحجة الكبرى، وبوصفه كذلك اعتمد على اسمه المزيفون فيما بعد فنسبوا إليه الأسطورة المتأخرة المتعلقة بمقتل الحسين.. ولم يكن أبو مخنف أول من جمع هذه الأخبار كلها، بل هو يذكر أسلافاً له وزملاء، فعلوا ذلك قبله، فتكون عن ذلك نوع من الإجماع.. على أنه لا يفصله غير جيل واحد عن أولئك الذين عاشوا هذه الأحداث.. وشهود العيان على نوعين: فمنهم من كان في صفّ الحسين من عبيد أو هاربين، وكانوا قلّة، ومنهم ــ وهم الغالبية ــ كانوا في صف أعداء الحسين. ولكنهم بوصفهم رواة لم تكن ميولهم مع الموقف الذي وقفوه، بل كانوا نادمين على موقفهم القديم. ولذا كانوا يحاولون التقليل من أهمية اشتراكهم، أو يقلّلون من نصيبهم في الجريمة، أو يستدروا العطف عليهم

بتصويرهم القتال ضد الحسين في صورة فيها تمجيد لشأن الحسين.. أما أبغض الناس إلى أبي مخنف فهو عبيد الله بن زياد.. نعم قد يؤخذ عليه أنه في أثناء غضبه صفع هانئاً على وجهه. والخساسة التي ارتكبت بشأن رأس الحسين لم يرتكبها هو، بل يزيد بن معاوية. وربما كانت الروايات قد عاملت يزيد بن معاوية برفق أكبر جداً مما يستحق. فإنه إذا كان مقتل الحسين جريمة فالمجرم الأكبر فيها يزيد، لأنه هو الذي بعث عبيد الله للقيام بإجراءات قاسية. وكانت النتيجة مرضية جداً ليزيد، واغتبط لها أيما اغتباط، فإن كان قد غضب على خادمه عبيد الله من بعيد، فما كان ذلك إلا تطبيقاً لامتياز الحاكم الأعلى، أعني أن يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التي اصطنعها لنفسه في جريمته. حقاً أن المودة التي أبداها نحو من بقي من آل الحسين ليست مما يعيبه، وإن كانت مودة تنطوي على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص.. لقد مضى الحسين كما مضى المسيح في طريق مرسوم، ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام، ومد يده كالطفل ليأخذ القمر. ادعى أعرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئاً في سبيل تحقيق أدناها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء. وفي الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة، إنما قدم القوم رؤوسهم يائسين، ولم يكن يصطدم بأول مقاومة حتى انهار، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخراً، فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة. لقد كان مقتل عثمان مأساة (تراجيديا) أما مقتل الحسين فكان قطعة مسرحية انفعالية (ميلودراما). ولكن عيوب الحسين الشخصية تختفي أمام هذه الواقعة، وهي أن دم النبي يجري في عروقه وأنه من أهل البيت. فلم يكن عليه أن يجهد نفسه، لأن ولاية الأمر فيه بطبعه. وافتقاره إلى

الصفات المعنوية تعوض عنه ـ وتزيد ـ القداسة الكائنة في لحمه ودمه. وهذا ما أعطى لشخصه أهميته، ولتأريخه طابع التاريخ الإسلامي الانفعالي. فلقد فتح استشهاده عصراً جديداً لدى الشيعة، بل نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد أبيه، لأن أباه لم يكن ابن بنت النبي»[٣٩].

من الواضح جداً أن (فلهوزن) تحدث عن الإمام الحسين عليه السلام، وثورته وشهادته مجردةً عن البعد الروحي والديني، أو أنه ـ نتيجة لقصده توخي الموضوعية والحيادية أو عدم موضوعيته ـ انتزع من الحدث جوهره وأساسه؛ فتناوله على أنه حدث تاريخي له أسبابه المادية لا غير. ومن الواضح أيضاً أنه على الرغم من محاولته الهروب، أو تحاشي الوقوع تحت تأثير الرواية الموجهة أو السلطوية، نجد أنها فرضت تأثيرها عليه. لذا يمكن القول:

أولاً ـ اعتمد فلهاوزن رواية (أبو مخنف) فقال: «وأبو مخنف هو الحجة الكبرى»[٤٠]. لأنه ـ حسب اعتقاده ـ وإن كان شيعياً إلا أنه أقل حماسةً من (اليعقوبي) الذي استبعد رواياته؛ لحماسته التي قد تحيد به عن الوصف والنقل الدقيق والصحيح فقال: «وما كان للمرء أن يستفيد كثيراً من المعلومات المهمة من شيعي متحمس مثل اليعقوبي عن حادث له عند أصحاب مذهبه أهمية قصوى»[٤١]. وفات (فلهوزن) أن كلاً من (اليعقوبي) و (أبي مخنف) ليس شيعياً بالمعنى الخاص، أي: شيعياً إمامياً ـ يقول بإمامة الأئمة بالنص ـ إنما هما من شيعة العباسيين. فأبو مخنف «من المحدثين وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها»[٤٢]. وقال عنه رجال التراجم الشيعة: «شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة ووجههم، وكان يسكن إلى ما يرويه»[٤٣]. أي:

إنّهم لم يذكروا تشيعه الإمامي، وقد ناقش السيد (الخوئي) أقوال العلماء فيه، وانتهى إلى القول: «وكيف كان فهو ثقة مسكون إلى روايته»[٤٤] ـ على اعتبار أنها رواية تاريخية لا تتعلق بحكم فقهي ـ. وإن مما يدل على عدم إماميته وتشيعه، أنه لم يرو أحداث كربلاء عن الإمام السجاد عليه السلام أو الإمام الباقر عليه السلام، بل إنه عاصر أربعة من الأئمة (السجاد، الباقر، الصادق، الكاظم:) ولم يرو عن أحدٍ منهم بشكل مباشر، نعم روى عن أصحابهم بعض الروايات[٤٥].

وقد أكّد المفيد (ت٤١٣هـ) عدم تشيعه في كتابه (الجمل) إذ أورد عنه عدداً من الروايات، وقال في نهاية كتابه: «فهذه جملة من أخبار البصرة وسبب فتنتها ومقالات أصحاب الآراء في حكم الفتنة بها قد أوردناها على سبيل الاختصار وأثبتنا ما أثبتنا من الأخبار عن رجال العامة دون الخاصة ولم نثبت في ذلك ما روته الشيعة»[٤٦]. وقال في إحدى تلك الروايات: «روى الواقدي وأبو مخنف عن أصحابهما والمدايني وابن دأب عن مشايخهما بالأسانيد التي اختصرنا القول بإسقاطها واعتمدنا فيها على ثبوتها في مصنفات القوم وكتبهم»[٤٧].

ثانياً ـ كما أن (فلهوزن) تصرف ببعض الكلمات، وزاد بحسب تبسيطه وعرضه للحادثة، أو أنه أعطى من خلال عرضه للأحداث، إيحاءً مغايراً حتى لما قاله (أبومخنف) ومن ذلك قوله: «رفض أن يبايع يزيداً، وحتى يخلص من سلطانه فر من المدينة»[٤٨]. ولم يرد عند الطبري ولا غير الطبري كلمة (فر من المدينة) بل يقولون (خرج من المدينة) وشتان بين المعنيين. وإذا كان يريد صياغة الحادثة حسب لغته أو فهمه وتبسيطه، فإن صفة الهروب أو الفرار تنطبق على خروج عبد الله بن الزبير لا خروج الإمام الحسين عليه السلام، فقد ذكر الطبري أنه بعد

موت معاوية طلبت البيعة من أهل المدينة، سيما الإمام الحسين عليه السلام وعبدالله بن الزبير، فقال الأخير: «.. فما تريد أن تصنع قال أجمع فتياني الساعة ثم أمشي إليه فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ثم دخلت عليه قال فإني أخافه عليك... فقام فجمع إليه مواليه وأهل بيته ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب الوليد، وقال لأصحابه: إني داخل فان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا عليّ بأجمعكم وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم... إن مثلي لا يعطى بيعته سرّاً... فقال له مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه، فوثب عند ذلك الحسين فقال: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو! كذبت والله وأثمت.. [وألح الوليد بطلب عبد الله بن الزبير فبعث له أخاه جعفراً] فقال: رحمك الله كف عن عبد الله، فإنك قد أفزعته وذعرته بكثرة رسلك وهو آتيك غدا إن شاء الله، فمر رسلك فلينصرفوا عنا، فبعث إليهم فانصرفوا وخرج ابن الزبير من تحت الليل، فأخذ طريق الفرع هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث، وتجنب الطريق الأعظم مخافة الطلب.. فتشاغلوا عن حسين بطلب عبد الله يومهم ذلك حتى أمسوا ثم بعث الرجال إلى حسين عند المساء، فقال: أصبحوا ثم ترون ونرى، فكفوا عنه تلك الليلة، ولم يلحوا عليه، فخرج حسين من تحت ليلته وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب سنة ٦٠هـ بنيه وإخوته وبني أخيه وجل أهل بيته»[٤٩]. فهب أن الوالي غفل عن مراقبة دار الإمام عليه السلام والعلويين، فما بال مروان بن الحكم، وقد دخل بمشادة مع الإمام عليه السلام، ثم هل تحرك أكثر من (٢٠ رجل مع النساء والأطفال) وسلوكهم الطريق العادية

يسمى فراراً، أم خروج اثنين وتجنبهما الطريق العامة، والسير في طريق فرعية؟

ثالثاً ـ جعل السبب الأساسي لثورة الإمام عليه السلام، هو إلحاح أهل الكوفة. فقال: «فدعاه أهل الكوفة إليهم للخروج تحت قيادته على سلطان بني أمية.. ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة التي وجهها الكثيرون»[٥٠].

في حين أن الإمام عليه السلام، قد أعلن عن سبب خروجه قائلاً: «وإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما، وإنما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمة جدي. أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد»[٥١]. لكن الطبري وأبا مخنف لم يذكرا هذا!؟. في حين يروي الطبري هذا النص عن (يزيد بن الوليد) حين خروجه على ابن عمه (الوليد بن يزيد)، ولأحد الخوارج!!.

رابعاً ـ هو يدعي ـ حسب قراءته للحادثة ـ أن الإمام عليه السلام: «ظن أنه سيستقبل في الكوفة استقبالاً حافلاً»[٥٢]. وهذا ما يرده قول الإمام عليه السلام في إحدى خطبه في مكة: «.. خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى اسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخير لي مصرع انا لاقيه كأني وأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن منى أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خط بالقلم رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين..»[٥٣].

خامساً ـ هو يدعي أن الإمام عليه السلام إنما قاتل لأن أخوة مسلم بن عقيل أصروا على القتال: «وكان يود أن يعود أدراجه لولا أن إخوة القتيل طالبوا بالمضي في الأمر لينتقموا لمقتل أخيهم»[٥٤]. وهو عين ما قاله الطبري[٥٥]: «قال أبو مخنف:

حدثني... عن داود بن علي بن عبدالله بن عباس أن بني عقيل قالوا: لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا». إذن الرواية منقولة عن أحد العباسيين، الذي بالتأكيد كان يتوخى إخراج العباسيين ـ خصوصاً عبد الله بن عباس وولده علي والد الراوي ــ من دائرة الحرج بمخالفتهم واجبهم التكليفي بمناصرة الإمام المفترض الطاعة، أو على الأقل الخليفة الشرعي ــ بحسب الشرط المعقود بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية ـ. ومن ثَمّ فإن إفراغ الثورة من محتواها العقائدي والتشريعي، وعزوها لقضية ثأر وعناد من آل عقيل، أو من الإمام نفسه، إذ نصحه عبد الله بن عباس وغيره فلم يستجب لهم؛ يخلي ذمة العباسيين ــ ومن يقدسهم الطبري وأمثاله ــ ويخرجهم من دائرة المسؤولية الشرعية والدينية.

وإلا فمسلم بن عقيل وإخوته وجل صحابة الإمام الحسين عليه السلام ـ بل وجل المسلمين من الصحابة وغيرهم بحسب إخبارات النبي صلى الله عليه وآله وأحاديثه ـ على علم بأن الإمام سيقتل في كربلاء، أو على الأقل أن الإمام أخبرهم مراراً وتكراراً في خطبه طيلة بقائه في مكة (شعبان ــ رمضان ــ شوال ــ ذي القعدة ـ ٨ أيام من ذي الحجة) بأنه سيخرج لقتال بني أمية للدفاع عن الدين والسنة والإسلام المحمدي، وأنه سيقتل لا محالة، كما بيّن لهم واجبهم بأن ينصروه. ومن ذلك قوله مذكراً إياهم بقول النبي صلى الله عليه وآله: «من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من

غيري»[٥٦]. وقوله: «ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين الا برماً»[٥٧].

ونقل أبو مخنف أن: «الحسين بن علي وهو بمكة وهو واقف مع عبد الله بن الزبير، فقال له ابن الزبير: إليّ يا ابن فاطمة، فأصغى إليه فسارّه [حدثه سراً]. قال: ثم التفت إلينا الحسين فقال: أتدرون ما يقول ابن الزبير؟ فقلنا: لا ندري جعلنا الله فداك. فقال: قال أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس. ثم قال الحسين: والله لان أقتل خارجا منها بشبر أحبّ إليّ من أن أقتل داخلاً منها بشبر، وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم ووالله ليعتدن عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت»[٥٨].

ولو تنزلنا فرضاً ـ مع هكذا تفسير ـ وقلنا إنّ الحرب قامت بسبب إصرار بني عقيل عليها، فما كانت الفائدة المرجوة من القتال وهم يعلمون جيداً ـ وبحسابات الحرب الطبيعية ــ أنهم سيقتلون جميعاً إذ لم يكن هناك تكافؤ بين المعسكرين لا من حيث العدة ولا من حيث العدد، فأي ثأرٍ هذا الذي سيدركونه، ولِمَ يدخل الأنصار ـ من غير الهاشمين ـ هذه المغامرة الثأرية، ولم لم ترجع النساء أو لم جلبت من الأساس إن كانت المسألة مسألة ثأر وملك، ولِمَ لم يطلب قتلة مسلم مقابل إعلان البيعة ليزيد، فيكونوا أخذوا ثأرهم وحقنوا دمائهم، ولِمَ يطلب منهم الإمام عليه السلام الانصراف ويخبرهم أنه المطلوب الوحيد بينهم، وإن قتلوه لا حاجة لهم بقتل الباقين، بل إن جواب بني عقيل كان واضحاً كل الوضوح «... فقال له إخوته وأبناؤه وأبناء إخوته وأبناء عبد الله بن جعفر: لِمَ نفعل ذلك؟ هذا لنبقي بعدك! لا أرانا الله ذلك أبداً! فقال

الحسين: يا بني عقيل! حسبكم من القتل بمسلم اذهبوا، فقد أذنت لكم. قالوا: وما نقول للناس نقول تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب بسيف ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل وإنا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك!» [٥٩].

إذن آل عقيل وكذلك باقي الأنصار من الهاشميين وغيرهم، إنما قدموا أنفسهم فداءً للإمام؛ لأنه إنما يمثل الدين والإسلام وشخص رسول الله ﷺ. وهوما يعترف به (فلهوزن)[٦٠] نفسه إذ يقول: «وفي أثناء الليل ترك الحسين في هدوء، ولم يحاول أحد ممن كان معه أن يهتبل الفرصة للفرار، على الرغم من أنه حرضهم على الفرار؛ لأن القوم لا يريدون إلا الحسين».

نعم غاية ما في الأمر أن آل عقيل وكل أنصار الإمام عليه السلام أنهم تحمسوا، ورغبوا وأصروا على الشهادة واللحوق بمسلم. عندما أخبرهم الإمام عليه السلام بمقتل مسلم، عن طريق المسافر الذي جاء من الكوفة. فلما رأى منهم الإمام عليه السلام ذلك قال: «لا خير في العيش بعد هؤلاء»[٦١]. وكأن الإمام عليه السلام إنما أراد إحاطة أصحابه بما جرى، وعلى اعتبار أن شهيد الثورة الأول كان من آل عقيل، فلابدّ من أن يوجه لهم السؤال أو الاستفسار عن نياتهم أولاً، وهو عين ما فعله فيما بعد كما في النص أعلاه. وهو نظير لما فعله النبي ﷺ في معركة بدر خصوصاً، عندما استعلم نية أصحابه، فقال له جماعة: «إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت والله ما آمنت منذ كفرت والله لا تسلم عزها أبدا، ولتقاتلنك، فاتهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته»[٦٢].

فما كان من الطبري ومن سبقه من

مؤرخي السلطة، إلا أن يحاول تجميل صورتهم ــ لأنهم ممن يعتقدون بقدسيتهم أو لأنهم من السائرين في ركاب السلطة ــ فيقولون: قالا فأحسنا[٦٣]. وقال آخرون: «يا رسول الله امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه... قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال سيروا على بركة الله وأبشر»[٦٤].

فهل إن النبي ﷺ قاتل المشركين بسبب قول المقداد وسعد بن معاذ السابقين وإصرارهما!!؟

سادساً ــ أمّا ما نقله ــ الطبري وأخذ به فلهوزن ـ من أخبارٍ للتقليل من قباحة صورة يزيد وقتلة الإمام الحسين عليه السلام من قبيل أنه: «لم يتوقف النهب إلا لما جاء عمر بن سعد.. ودفن شهداء كربلاء في الغاضرية... أما السبايا والأطفال فقد عاملهم يزيد بشهامة وعطف، وأظهر الصداقة لعلي بن الحسين.. مما جعل علياً يعترف له بالجميل. وأذن لأسرة الحسين بالعودة إلى المدينة، في صحبة رجل أبدى من الرقة والاحترام نحو النسوة، ما جعلهن يقدمن له أساورهن شكراً له على صنيعه معهن»[٦٥].

هذا تهافت واضح فقد شك

(فلهوزن) في القسم الموجه منه أو المخصص ليزيد إذ يقول: «وربما كانت الروايات قد عاملت يزيد بن معاوية برفق أكبر جداً مما يستحق. فإنه إذا كان مقتل الحسين جريمة فالمجرم الأكبر فيها يزيد، لأنه هو الذي بعث عبيد الله للقيام بإجراءات قاسية. وكانت النتيجة مرضية جداً ليزيد، واغتبط لها أيما اغتباط، فإن كان قد غضب على خادمه عبيد الله من بعيد، فما كان ذلك إلا تطبيقاً لامتياز الحاكم الأعلى، أعني أن يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التي اصطنعها لنفسه في جريمته. حقاً أن المودة التي أبداها نحو من بقي من آل الحسين[إن كانت هناك مودة] ليست مما يعيبه، وإن كانت مودة تنطوي على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص»[٦٦]. فلماذا تكون الروايات التي عاملت يزيد برفق أكثر مما يستحق مشكوك فيها، والروايات التي عاملت عمر بن سعد، والآخرين برفق أكبر مما يستحقون غير مشكوك فيها!!؟. ألم يخطر ببال (فلهوزن) أن عمر بن سعد عومل برفق أكبر لأنه ابن سعد بن أبي وقاص!!. وعومل الآخرون برفق أكبر لأنهم يعدون إما من الصحابة أو من التابعين المخلصين للإسلام الذين لا يصدر عنهم الخطأ وهم كلهم عدول، وما شئت فعلق من أوسمة على صدور أولئك!. ألم يبع عمر بن سعد دينه مقابل ملك الري؟، ألم يقتل خيرة المسلمين؟، بل وحتى الأطفال، ويسبي النساء لأجل المال؟. ألم يمثل بالأجساد ويقطع الرؤوس ويطوف بها لأجل المال؟، كم كان الفرق شاسعاً بين خسيس نذل جبان مثل عمر بن سعد، وبطل شهم شجاع مثل الحر الرياحي، فماذا كان يضير عمر لو لم يطبق أوامر الدعي ابن الدعي، وينسحب من المعركة. لم يكن أحدٌ من أولئك مجبراً على خوض المعركة، فلماذا يعتذر لهم بأنهم كانوا يطبقون أوامر سيدهم، هم

قاتلوا لأجل المال والسلطة لا أكثر. ألم يقل قائلهم:

أوقر ركابي فضة وذهبا إني قتلت السيد المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

قال عمر بن سعد: أشهد أنك مجنون، أدخلوه علي. فلما دخل حذفه بالقضيب وقال: يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام؟ والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك!»[٦٧]. ألم يستوقف (فلهوزن) قول عمر هذا؟ لماذا تضرب عنق القائل؟ أليس لأنه بيَّن حقيقة قتال هؤلاء للإمام عليه السلام؟ أليس لأن قوله يعني: أن يزيد ومعسكره يمثل جدّه أباسفيان ومعسكره في الجاهلية، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام ومعسكره يمثّل جده رسول الله صلى الله عليه وآله ومجاهدي الإسلام الأوائل!!؟

ثم متى أوقف عمر بن سعد سلب الخيام، وهو من أباح لجنده ذلك!!؟ ومتى دفنت الأجساد وقد تركت ثلاثاً على رمضاء كربلاء، وهل من المعقول إن من يقطع رأس خصمه ويطوف به في البلدان ويمثل بجثته، يحترم تلك الجثة فيدفنها، أي منطق هذا؟!، ربما كان منطق من يدعون الموضوعية والقدرة على التحليل من أمثال (فلهوزن)!!؟

ثم ألم يكن عمر بن سعد من «نادى في أصحابه من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه فانتدب عشرة.. فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره»[٦٨] بحوافر الخيول.

سابعاً ــ خلص (فلهوزن) من قراءته لثورة كربلاء الى القول: «لقد مضى الحسين كما مضى المسيح في طريق مرسوم، ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام، ومد يده كالطفل ليأخذ القمر. ادعى أعرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئاً في سبيل تحقيق أدناها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل

شيء. وفي الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة، إنما قدم القوم رؤوسهم يائسين، ولم يكن يصطدم بأول مقاومة حتى انهار، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخراً، فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة. لقد كان مقتل عثمان مأساة (تراجيديا) أما مقتل الحسين فكان قطعة مسرحية انفعالية (ميلودراما). ولكن عيوب الحسين الشخصية تختفي أمام هذه الواقعة، وهي أن دم النبي يجري في عروقه وأنه من أهل البيت. فلم يكن عليه أن يجهد نفسه لأن ولاية الأمر فيه بطبعه. وافتقاره إلى الصفات المعنوية تعوض عنه ـ وتزيد ـ القداسة الكائنة في لحمه ودمه. وهذا ما أعطى لشخصه أهميته، ولتأريخه طابع التاريخ الإسلامي الانفعالي. فلقد فتح استشهاده عصراً جديداً لدى الشيعة، بل نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد أبيه، لأن أباه لم يكن ابن بنت النبي»[٦٩].

ابسط ما يقال عن هذه الخلاصة أنها غير منطقية، ومتهافتة، ولا تستند لأي دليل تاريخي. فمن يضع ملكوت الدنيا تحت قدميه، لا يدعي شيئاً لأجل الدنيا، ولا يبخل بنفسه عن تقديمها فداءً لما يعتقد. ثم هل بعد بذل الإمام الحسين عليه السلام بذل في الوجود؟. نعم مقياس (فلهوزن) هو مقدار المنفعة المادية المتحصلة، وهي لم تكن في حسابات ثوار كربلاء، وإلا كان بإمكانهم المساومة والحصول على كل ما قاتل من أجله غيرهم!!. إن حجم تضحية الإمام الحسين عليه السلام ووزنها لا تستوعبها موازين أو مقاييس، وعقلية (فلهوزن)!! أما كونه لم يقدم شيئاً وترك الآخرين يقدمون لأجله كل شيء وراح ينظر إليهم وهم يقتلون. فهي مقولات من لم يفهم ما جرى في كربلاء أو لم يرد أن يفهم. وإلا فالإمام قدم حتى رضيعه

فداءً للدين، وقدم أخوته وبني عمومته، وأنصاره، وحتى نساءه، أمّا هم فقد فعلوا ذلك لأنهم كانوا يرون في الإمام الحسين عليه السلام قرآناً وديناً ونبياً وحرية وكرامة، وكل فضائل الإنسانية المتجسدة على الأرض. وكأنه يريد هنا الإلماح لما يعتقده المسيحيون من تضحية وفداء عيسى عليه السلام. وإذا لم يكن أحد يوليه ثقة فكيف قدموا نفوسهم من أجله. نعم لم يكن يوليه ثقة من وقف مع معسكر الجاهلية، أو وقف متفرجاً، ومن الخطأ أن يقاس مقدار الثقة بشخص من خلال من يتقاطعون معه في الفكر والدين. أما أن أصحابه قدموا رؤوسهم يائسين فهو قول لا يستحق أن يرد عليه، وإلا فكل واحد منهم كان يرهب جيش الجاهلية بأكمله، ويكفي في هذا قول عمرو بن الحجاج من معسكر عمر بن سعد: «فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: يا حمقى! أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر قوما مستميتين لا يبرزن لهم منكم أحد فإنهم قليل وقل ما يبقون والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم، فقال عمر بن سعد: صدقت الرأي ما رأيت! وأرسل إلى الناس يعزم عليهم ألا يبارز رجل منكم رجلا منهم»[٧٠].

أي: إنّ جند يزيد لم يجرؤوا على مقاتلة صحابة الإمام عليه السلام وكان قانون الحرب أن يتقاتلوا رجلاً لرجل. لكن جيش يزيد لجبنهم كانوا يهجمون على شكل جماعات على رجل واحد، ومع ذلك لم يجرؤوا على مقاتلته بالسيف فيرموه بالحجارة، فأي شجاعة هذه التي أعجب بها (فلهوزن)؟!

أما أنه عليه السلام أبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة، فذلك لأن أنصاره كانوا يتسابقون على الموت بين يديه، فهل ولد التاريخ قائداً فداه صحابته كالإمام الحسين عليه السلام؟؟ أما أن الإمام انكسر وانهار بمجرد اصطدامه بأول مقاومة. فهو ما يكذبه الطبري نفسه حيث يقول: «.. فو الله ما رأيت

مكسوراً [وفي لفظ غيره مكثوراً] قط، قد قُتل ولده وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشاً، ولا أمضى جناناً منه، ولا أجرأ مقدماً، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب»[٧١].

ثمّ ما هي عيوب الإمام الشخصية التي يدّعيها (فلهوزن). نعم عيبه الوحيد أنه عصيٌّ على فهم عقول بائسة، كعقله، وعيون لا تنظر أبعد من محطّ قدمي صاحبها كعينيه. نعم عيب الإمام عليه السلام الوحيد كما قال المستشرق (Sedillot سيديو ١٨٠٨ ــ ١٨٧٥م)[٧٢]. أنه «عرف كيف يحفظ كرامته حتى في زمن الضعة، والأمر الوحيد الذي كان عاطلاً منه، هو ما اتصف به بنو أمية من روح الكيد والدسيسة»[٧٣]. وقد عاد (فلهوزن) لتكرار فكرته عن الثورة الحسينية، في كتابه الآخر (تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية)[٧٤].

ومما تقدم يتبين وقوع (فلهوزن) تحت تأثير الرواية التاريخية. وكانت قراءة وتفسير (فلهوزن) وتفسيره السابق لثورة كربلاء بمثابة قالب صبّت فيه أغلب الأعمال الاستشراقية التي تلته، متحدثة عن الموضوع. فقد تطرق إليه (Ignaz Goldziher اجنتس جولد تسيهر ١٨٥٠ ــ ١٩٢١م) في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) الذي صدر عام (١٩١٠م). وهو مستشرق مجري، يهودي الديانة. ولد في (٢٢ / يونيو/ ١٨٥٠م) في بودابست، ودرس فيها وفي برلين وليبستك والنمسا، ورحل إلى مصر وسوريا وفلسطين. أصبح عام (١٨٧٢م) مدرساً مساعداً في جامعة بودابست، ومن ثم أستاذا للغات السامية عام (١٨٩٤م) وهناك قدم أكثر دراساته وكتبه وبحوثه حتى وفاته في (١٣/ نوفمبر/ ١٩٢١م). من أشهر كتبه كتاب (محاضرات في

الإسلام= العقيدة والشريعة في الإسلام ١٩١٠م) وكتاب (اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين ١٩٢٠م)[٧٥]. وهو يعد من المستشرقين المتعصبين وغير المنصفين[٧٦].

كان مما قاله (جولد تسيهر)[٧٧] عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام أنه: «... سنحت لشيعة علي في عهد يزيد بن معاوية، فرصة دلّ اختيارهم فيها على الطيش وقصر النظر، وأشركوا الحسين في نزاع دام مع الغاصب الأموي، وقد زودت ساحة كربلاء (سنة ٦٨٠م) الشيعة بعدد كبير من الشهداء، اكتسب الحداد عليهم حتى اليوم مظهراً عاطفياً في العقائد الشيعية».

واضح أن (جولد تسيهر) تأثّر أو أنه لم يخالف آراء سابقه (فلهوزن) الذي تعرض لموضوعة كربلاء قبل (٩سنوات) ولابد أنه قد اطلع على كتابه. فجاءت آراؤه مطابقة تماماً لسابقه الألماني، غير أن الفرق بين الاثنين، أن (فلهوزن) انطلق من واقع الرواية والحدث التاريخي لتقييم الواقعة وتفسيرها، في حين انطلق (جولد تسيهر) من واقعه الحاضر ـ في وقته ـ لتقييم الحدث التاريخي الماضي، أو لنقل إنه انطلق من أثر الحادثة أو نتائجها ـ وإن كانت البعيدة أو التي على المدى الطويل ـ لتقييم الحادثة نفسها وقراءتها. فنجده يقول:

«في الأدب الشيعي موضوع لا ينضب معينه، ولا يمل كتاب الشيعة من ترديده، وهو موضوع (محن آل البيت). وقد نسبوا للنبي أحاديث تنبأ فيها بالقدر السيئ الذي سوف تنكب به ذريته، كما وردت نبوءات كهذه في الروايات المأثورة عن علي.. إذ يعرف الشيعة الحقيقيون بأجسامهم الضاوية التي برحت بها صنوف المشقة والحرمان، والشفاه التي جففها الصدى، والأعين التي لا تكف عن

تذارف الدموع، والشيعي الصحيح بائس شقي ألف العناء والاضطهاد كالأسرة التي يدافع عن حقها، ويعاني الآلام من أجلها.. صوّر الشيعة تاريخ آل البيت تصويراً أخاذاً نزعوا فيه نزعة مسرحية، ونجد أن تاريخهم منذ كارثة كربلاء، عبارة عن سلسلة لا تنقطع من التعذيب والاضطهاد، وروى الشيعة أخبارها شعراً ونثراً في مؤلفات كثيرة زاخرة بتراجم هؤلاء الشهداء، وكُتُب المقاتل هذه هي إحدى خصائص الشيعة. وقد جعلوا من روايتها واسطة عقد اجتماعاتهم في الثلث الأول من شهر المحرم الذي خصصوا اليوم العاشر منه ـ عاشوراء ـ للاحتفال بالذكرى السنوية لمأساة كربلاء. وجمعوا إلى الذكرى الرهيبة لحوادث هذا اليوم المفجعة أنهم يمثلونها تمثيلاً مسرحياً يسمونه (تعزية)... ولا يستطيع المناصر آل البيت الصادق في إخلاصه لهم أن يكف عن سكب العبرات، وتصعيد الزفرات، وبث الشكوى، وإظهار الحداد، على ما ينزل بالأسرة العلوية من محنة وبلاء وتعذيب واضطهاد، كما أنه لا يستطيع أن يغالب البكاء على من يسقط من أفرادها شهيداً، حتى ضرب المثل برقة هذه الدموع: «أرقّ من دمعة شيعية تبكي على علي بن أبي طالب».

ولا يقلّ شيعة العصر الحاضر، ممن نالوا حظاً من الثقافة، عن الشيعي الساذج في الشعور بالحنق والسخط على الأمويين. وقد وجدوا في هذه النزعة الحزينة التي يتميز بها مذهبهم، فضائل دينية عظيمة القدر، بل رأوا فيها مادة لعاطفة نبيلة رقيقة وروح إنسانية عالية تناقض أحكام الشريعة الجامدة. واعتبروا هذه الروح النبيلة الجانب الإنساني الرفيع في الديانة الإسلامية، بل أنفس تعاليمها وأسماها.. يقول أحد الشيعة الهنود المعاصرين:... إن في بكاء الحسين لما يجعل لحياتنا معنى، ولأرواحنا قيمة،

ولو كففنا عن هذه العبرات لغدونا أعظم الناس جحوداً، وإنكاراً للجميل، وسوف نرتدي في الجنة ثياب الحداد على الحسين، وإن هذا الحداد هو شرط الحياة الإسلامية وأساس وجودها، ويقول أيضاً: إن الحزن على الحسين لهو العلامة الصحيحة الدالة على الإسلام، ومن المحال إلّا يذرف الشيعي الدموع لأنه جعل من قلبه قبراً حياً ومثوىً حقيقياً للإمام الشهيد الذي احتزّ رأسه»[٧٨].

بداية يعدّ (جولد تسيهر) من أوائل المستشرقين الذين شككوا بصحة الأحاديث النبوية عموماً[٧٩]. فمن الطبيعي أنه ينكر الأحاديث الخاصة بكربلاء، والإمام الحسين عليه السلام. ومن الواضح أنه ركز على الممارسات والشعائر العزائية للشيعة؛ ربما لتلاؤمها ـ حسب ما يعتقد ـ مع ما توخاه من كتابه (العقيدة والشريعة)، ولكنه جانب الصواب كثيراً. إذ سوّف ما أمكنه التسويف، لتحويل العقيدة، أو الاعتقاد الشيعي في الإمام الحسين وثورته في كربلاء، إلى مجرد حادثة أو ذكرى حزينة وأليمة، يقام لذكراها المناسبات والاحتفالات، ويبالغ في الحزن والبكاء، بسذاجة لا تتفق وروح المدنية والتحضر. فعلى هذا الأساس لا يبقى للشعائر العبادية لدى الشعوب أي معنى غير كونها تقليداً أجوف، لا يمس روح العقيدة بشيء، وإذاً فإن بني جلدته اليهود هم في غاية السذاجة، عندما يقاتلون الدنيا للاحتفاظ بالقدس؛ لأنها لا تعدو كونها تضم (هيكل سليمان) المزعوم. وهم في غاية السذاجة عندما يستقبلون الحائط، ويترنحون بتأثر عاطفي كبير، ويرددون عبارات من التوراة، وهم في غاية السذاجة عندما يعتمرون القبعات والطاقيات السوداء، كما أن المسيحيين في غاية السذاجة، عندما يقدسون عيسى المسيح ويعتقدون أنه سيخلصهم من خطاياهم، وأنه ضحى بنفسه

لأجلهم، وهم في غاية السذاجة عندما يحضرون القداس ويتلون الصلوات ويجتمعون في الكنائس، ويقيمون احتفالات عيد الميلاد. كما أن أحبار اليهود ورهبان المسيح، كانوا في غاية السذاجة، عندما أرادوا التأسي بأنبيائهم، وعاشوا حالات من التقشف والزهد وترويض النفس. هذا فضلاً عن ممارساتهم وعقائدهم ـ كما يقول Valy Naser في كتابه يقظة أو نهوض الشيعة ــ في يوم (التكفير عن الذنوب) أو ما يسمونه (يوم الفداء) وغفران الخطايا، وربما بنفس طريقة (الندب والتفجع وجلد الذات) وهو ما يمكن مشاهدته فعلاً في طقوس الطوائف المسيحية، في يوم صلب السيد المسيح ــ حسب اعتقادهم ــ إذ يخرجون زرافات ووحدانا وهم يحملون الصليب، ويضربون بمقامع مزروعة بدبابيس على صدورهم، حتى تنزف الدماء من أجسادهم، في مواساة عفوية للسيد المسيح. وتعزية للنفس بمصيبته، وكيف أنه بموته ــ كما يعتقدون ــ افتدى الناس، ودفع ـ بآلامه ومعاناته وصلبه من قبل اليهود ــ ضريبة الالتزام بالقيم ورسالة السماء[٨٠]. فهل المسيحيون سذّج في كلّ هذا.

على هذا الأساس تكون عادات الشعوب والديانات الأخرى وتقاليدهم، كلّها ــ حسب مقياس (جولد تسيهر) ــ مجرد سذاجة لا أكثر!! فماذا يبقى يا ترى من تراث الإنسانية لتحتفي به وتخلده. إذا كان كل ذلك سذاجة، فلماذا يلعن اليهود ـ حتى اللحظة ـ هتلر والنازيين.

لا شكّ أنّ المستشرقين عموماً عندما يهاجمون الشخصيات الإسلامية، ويحاولون التقليل من شأنها، أنهم يهدفون إلى توسيع هوة الخلاف والفرقة بين المسلمين من جانب، وسلب المسلمين الرمز أو الشخصية المثالية والقدوة التي

يفترض أنهم يقتدون ويتأسون، ويحتفلون ويتفاخرون بها، ويحيون ذكرها. وإلا فإن المستشرقين لم يهاجموا الحسين لو لم يكن الحسين. لو لم يكن ثورة ضد الظلم والطغيان، لو لم يكن صرخة بوجه الظلم والاستبداد في كل زمان ومكان، لو لم يكن رمزاً للكرامة والعزة والحرية، لو لم يكن رفضاً لتحكم الأقوى، لو لم يكن رفضاً للعبودية، لو لم يكن دعوة للسلام والمحبة.

وجاء ثالث القوم نافجاً حضنيه بين حقده وعصبيته، المستشرق البلجيكي الأصل والولادة، الفرنسي الجنسية والانتماء، اللبناني الإقامة والوفاة، القس (Henri Lammens ١٨٦٢ ــ ١٩٣٧م) وهو من أشد المستشرقين تعصباً، وحقداً على الإسلام وآل البيت:. قال عنه مواطنه (Etienne Dinet١٨٦١ ــــــ ١٩٢٩م)[٨١]: «إن مثل لامنس في الاستشراق كمثل بطرس الناسك في الحروب الصليبية، وإنه ليقوم من الناحية العلمية بما كان يقوم به بطرس في ناحية الدعاية الحربية. وقد ضاق ذرعاً برؤية الإسلام ينتشر ويبسط ظله على أفريقيا وآسيا، فإذا به يسخط على القدر نفسه، ويقول: لماذا جاء القرآن فجأة، ليقضي على التأثير اللطيف الذي كان الإنجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية»[٨٢].

كان هنري لامنس من أبرز مستشرقي الرهبان اليسوعيين، وخريجي وأساتذة جامعة القديس يوسف. ولد في مدينة (خنت Gent) البلجيكية في أول يوليو عام (١٨٦٢م)[٨٣]. من أب مدمن على الخمر. وبعمر الخامسة عشر غادر إلى لبنان، وتحديداً في مارس عام (١٨٧٧م)[٨٤]. وبدأ حياة الرهبنة في السنة التالية في دير لليسوعيين في قرية غزير في جبل لبنان. خلال المدة (١٨٩٧ ـ ١٩٠٧م) قام مثل العديد من المستشرقين المعاصرين برحلات

عديدة إلى سوريا ولبنان وفلسطين، وينشر مقالات عن تلك الرحلات يبين فيها تاريخ سكان المناطق التي زارها وآثارها ودياناتها، كما يتعمق بالبحث ألآثاري عن المسيحيين الأوائل في بلاد الشام ومناطق تواجدهم، ويبحث عن مواقع التاريخ الصليبي. عرف (لامنس) كعضو مرتبط بادعاء فرنسا الطويل المدى، فيظهر كمحامي ومدافع قوي ـ في الإمبراطورية العثمانية ـ عن الطموحات الفرنسية الاستعمارية؛ إذ أنّه انتقد بشدّة أعمال منافسي فرنسا الأوربيون، وقد أكد على عدم نزاهته من خلال تورطه مع مدير متحف بروكسل المدعو (فرانز) وبمساعدة من الحكومة البلجيكية بتهريب مجموعة من المصنوعات اليدوية الآثارية من سوريا إلى بلجيكا[٨٥]. وأثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى، انتقل (لامنس) من روما إلى المدرسة اليسوعية في مصر، وبقي هناك حتى عام (١٩١٩م) حيث عاد إلى لبنان للتدريس في جامعة القديس يوسف وليشارك من هناك في دعم المشروع الاستعماري الفرنسي لسوريا ولبنان (على سبيل المثال: في المقال الذي نشره في مجلة المشرق عام (١٩٢١م العدد الأول، ٤٩ ـــ ٥٥) تحت عنوان: العلائق الأولى بين فرنسة وسورية: فقد حاول تخفيف حدة وطأة التواجد الاستعماري الفرنسي في سوريا من خلال البحث عن إشارات تاريخية متناثرة لنفوذ متبادل بين الطرفين وتضخيمها، وتقديمها بشكل مسلمات تاريخية) وكذلك في كتابه (تاريخ سوريا)[٨٦] وعلى العموم قدم لامنس معلومات كثيرة لفرنسا من خلال أعماله وجهوده الاستشراقية[٨٧]. وغدا المدافع عن سياستها في بلاد الشام عموماً بين الحربين العالميتين الأولى والثانية[٨٨]. وفي بدايات الثلاثينات من القرن العشرين أصيب (لامنس) بمرض

الشلل وبقي يصارعه حتى وفاته في ٢٣أبريل١٩٣٧م[٨٩].

خص (لامنس) الإمام الحسين عليه السلام كما باقي الأئمة، بدراسة في أكثر من موضع من مؤلفاته، إذ كتب عنه مقالة في (دائرة المعارف الإسلامية/ الطبعة القديمة ١٩١٣ ــ ١٩٣٤م في المجلد الثالث ٣٣٩. وفي الطبعة المترجمة للعربية في المجلد السابع ٤٢٧ ــ ٤٢٩) وتحدث عنه في كتابه (دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول ١٩٠٧م)، وفي كتابه (فاطمة وبنات محمد ١٩١٢م)، وخصص له مساحة كبيرة من كتابه (خلافة يزيد الأول ١٩٢١م)، وفي كتابه (دراسات في عصر الأمويين ١٩٣٠م). وكان حريصاً على ترديد آراء (فلهوزن وجولد تسيهر) وبالجملة كانت آراؤه متشابهة ومكررة، إلا أنها تختلف من حيث الإطالة والتوسع في التفاصيل، بحسب مادة الكتاب.

نعم ما يتميز به عن (فلهوزن وجولد تسيهر) أنه كان يبالغ في التمجيد بالأمويين واتباعهم، ويهاجم وبعنف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام، وخيار الصحابة والمسلمين ــ كما قلنا لسلب المسلمين قدوتهم ــ. قال عنه (د. عبد الحليم محمود) أنه: «إذا تحدث عن أعداء الإسلام، كأبي جهل وأبي لهب.. عن المنافقين.. عن يزيد قاتل الحسين، أو عن بني أمية ــ على وجه العموم ـ فإنه يشيد ما شاء له هواه، ويمدح ما أمكنه المدح، ويطري كلما أتيح له الإطراء، ويلبسهم من الفضيلة ثوباً لامعاً خلاباً، ولقد بلغت به الحماسة في كتابه عن بني أمية، حداً أثار نفور المسيو (كازنوفا)[٩٠] الأستاذ في (كليج دي فرانس ـ المعهد البابوي في فرنسا) ــ فقال: كانت نفسية الأمويين في مجموعها مركبة من الطمع في الغنى إلى حد الجشع، ومن حب الفتح من أجل النهب، ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بملذات

الدنيا، لذلك يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب (لامانس) يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة.. ساخراً من.. علي الذي مكروا به.. وانها لغريبة حقاً هذه المباحث التي يبدي فيها هذا المؤلف ــ المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعاً حرياً بالاعجاب ــ تشيعه للأمويين ضد بني هاشم..»[٩١]. وانتقادات المستشرقين والباحثين كثيرة جداً لهذا المستشرق المبشر، لا مجال لذكرها هنا.

قال لامنس في (دائرة المعارف)[٩٢]: «.. تصور الروايات الحسين كما تصور أخاه الحسن غارقاً في فيض من حنان جده لأمه.. ورث عن أبيه الصفتين اللتين كانتا سبباً في هلاك أبيه: التردّد وقلّة الفطنة. وظل الحسين خامل الذكر خلال خلافة علي المضطربة.. رجاه أتباعه في العراق.. غادر الحسين مكة، وكان قد التجأ إليها بعد إذ رفض مبايعة يزيد بالخلافة.. والتقى الحرس الضعيف من الأقارب والأتباع المخلصين الذين كانوا في ركاب الحسين بكتيبة.. فصاحبهم فرسان عبيد الله عن كثب، وبلغ الطرفان كربلاء، وهي التي قدّر أن يستشهد فيها الحسين بعد عشرة أيام. وفي هذه الأيام العشرة أخذ ضعف هذا المطالب بالخلافة يتجلى شيئاً فشيئاً، وعاوده تردده، وأطبقت عليه الحلقة الفولاذية التي ضربها حوله جند عبيد الله. وأراد الوالي الأموي أن يقنعه بالتسليم أو يكرهه عليه، فحال بينه وبين بلوغ الفرات راجياً أن يحمله العطش على التسليم، ولكن الحسين ظل على عناده فقد كان مقتنعاً بأن شخصه مصون، وكان يأمل أن يتبدل شعور جند الكوفة فينحازوا إليه، وبزغت شمس اليوم العاشر من المحرم.. وكان عمر بن سعد.. دعا الحسين إلى التسليم مختاراً، ولما لم يتلق ابن أبي وقاص رداً على إنذاره النهائي قام بحركة التفاف قصد

بهـا الإطبـاق عـلى الحسـين، وحـاول مشـايعوه المقاومـة، لكـن الحسـين لم يحرك ساكناً، ولم يقم بعمل واحد مـن أعـمال البطولـة التـي أغـرم الشـيعة بـالتغني بهـا. وانتهـى الأمـر بنشـوب معركة جرح فيها الحسين في أكثـر مـن موضع، وسـلبت مضـاربه... وحـزن الخليفة لهذه النهاية، فما كـان يحـب أن يقتل الحسين، كما أنـه لم يـأمر بـذلك، وإنـما كانـت أوامـره أن يقبضـوا عـلى الحسين وان يكفوه عن الإمعان في فتنة تنذر بالخطر، وعامل الخليفة العلـويين الذين بقوا بعـد نكبـة كـربلاء معاملـة كريمة، وسخا في الوفاء بحاجاتهم».

وقـال في كتابـه (خلافـة يزيـد الأول)[٩٣]: إنّ شخصـية الحسـين وكـربلاء نسـجت حولهـا أسـاطير كبيرة.. وإن حذف الغلو والتناقضات يسهل إبداء آراء مسؤولة، ويعيد حدثاً إلى حجمه الحقيقـي، بعـد أن ضـخمه الخيـال الشـيعي بـإفراط.. المسـؤولية الرئيسية يتحملها الحسـين. إذ كـان في حياته الخاصة، وفي موقفه غير اللائـق من الأمـويين أكثـر تميـزاً مـن شـقيقه الحسـن، فإنـه في الأيـام الأخـيرة مـن حياته بدا طائشـاً، مـتردداً وأحمقـاً. في تلك الساعة الحرجة، لم يبد حزمـاً ولا شجاعةً أكبر من الحسن.. غادر كما لو كان ذاهبـاً إلى باديـة مـع جميـع نسـائه وأطفاله، مع أقاربـه، شـباب خنثـتهم ملـذات المدينـة، ولم يسـبق لهـم أن استخدموا السلاح أبداً، واهنـاً مؤمنـاً بالرؤى والفأل.. بعض البدو من كبار السـن كـانوا قـد عـابوا عليـه هـذا الضـعف الـذي لا يليـق بقائـد، كـان يسـير بخطـى رجـل يجهـل مفاجـآت القدر، مستسلماً للفأل والنذر».

وهكـذا راح لامـنس يسـطر مـن ترهاتـه مـا سـولت لـه نفسـه دون أن يـبرهن عـلى مـا يدعيـه ولـو بـدليل واحـد!!. وهـو لا يفعـل ذلـك حبـاً بالأمويين!! فهو قس مسيحي، ويكره كـل مـن ينتمـي للإسـلام مهـما كـان وضيعاً وحقيراً!!، إنما هو يريد تقـديم

الإسلام من خلال الأمويين، أي: إنّه يريد أن يذم من حيث يمدح، أي: إنّه يقدم الأمويين على أنهم هم من يمثلون الإسلام الأصيل، والإمام الحسين، وأهل البيت:، ومن ثار على الأمويين، هم العنصر المشاغب والشاذ واللاإسلامي، وهو إنما استوحى هذه الفكرة من كتب التاريخ التي طالما سايرت ركاب السلطة، وحكمت على معارضيها بأنهم شواذ ومخربين، وخارجين على أئمة زمانهم، ومخالفين لأحكام الإسلام، هذا من جانب. ومن جانب آخر، هو مجّد الأمويين لأنه يعد دولتهم الامتداد الطبيعي للدولة البيزنطية، والنظام البيزنطي في بلاد الشام؛ لأنهم تمثلوا كثيراً من أنظمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وأساليبها وقوانينها، كما أنه يحاول في بحوثه مسخ الهوية العربية لسوريا ولبنان، على اعتبار كونهما مواطن مسيحية أصيلة.

فبداية الإفراط والمبالغة والتناقض عنده: هو ما ذكره المؤرخون من خساسة يزيد وعمر بن سعد الذين حاربوا الإمام الحسين عليه السلام، وما قام به بنو أمية وجيوشهم من جرائم يندى لها جبين كل من له ذرة من وجدان وغيرة وإنسانية.

ثم انه اعتمد في كتاباته عن التاريخ الإسلامي (منهج العكس): وهو أن ينظر الباحث في النصوص والوثائق والروايات، فإذا قالت شيئاً لا يخدم توجهه وغايته البحثية، يحاول جعل الصواب هو عكس النص تماما. وهو غير المنهج المعكوس أو المقلوب الذي توضع فيه النتائج أولاً، ومن ثم البحث عن الأدلة والنصوص التي تؤيدها[٩٤]. قال المستشرق الفرنسي (Etienne Dinet ١٨٦١ ـــــ ١٩٢٩م)[٩٥]: إن منهج العكس، هو ذلك المنهج الذي يأتي إلى أوثق الأخبار، وأصدق الأنباء فيقلبها متعمداً عكسها، وكلما كانت الأخبار

أوثق بدت ـ قوية جامحة ـ الرغبة في البراعة من ذلك الذي ينهج هذا المنهج. ولما كان ينبغي أن يستند إلى دعامة ما، فقد تبنى أصحاب هذا المنهج الفكرة التي تقول: البشر يعملون غالباً على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها. ويضيف: إنّ (Lammens) أكثر المستشرقين اعتماداً عليه كمنهج أساس(٩٦).

وبالجملة فإنّ أفكار (لامنس) وآراءه هذه مخالفة للواقع التاريخي المتفق عليه والمتواتر، فحتى أعداء الإمام الحسين عليه السلام لم يشكوا أو يشككوا يوماً بحب جده له، وكتب الفريقين تروي الأحاديث الصادرة في ذلك، وهو يعترف بذلك ويقول: «تصوره الروايات كما تصور أخاه الحسن، غارقاً في فيض من حنان جده لأمه». إذن هناك روايات وأحاديث تعكس هذه الصورة، فما هو المسوغ للشك بها؟ وهي لا تنتمي لمدرسة حديثية دون أخرى، أي: إنّ السنة والشيعة يروونها!! نعم هي مشكوك بها في أماني (لامنس) لا أكثر، وهو لو كان يمتلك أدنى دليل لإسناد شكه، لما توانى عن تضخيمه وتطويره، والاستشهاد به. وإلا فهذه المصادر السنية تروي: «.. خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى طعام دعوا له، قال: فاستمثل رسول الله صلى الله عليه وآله. قال عفان، قال وهيب: فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله ان يأخذه. قال: فطفق الصبي ههنا مرة وههنا مرة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يضاحكه حتى أخذه، قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه فوضع فاه على فيه فقبله. وقال: حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»(٩٧). وتروي أنه عليه السلام قال: «الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا»(٩٨).

وكتب التاريخ تروي أنه كان في غاية الشجاعة والإقدام: «.. فو الله ما

رأيت مكسوراً [وفي لفظ غيره مكثوراً] قط، قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه، أربط جأشا ولا أمضى جنانا منه ولا أجرأ مقدما، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب»[٩٩].

وأنّه ما قام بما قام به إلا لأجل الدين والعزة والكرامة، وأن صحابته كانوا غاية في الشجاعة والبسالة والإقدام، بحيث أن جيوش عمر بن سعد وهم ألوف يتحامون عن قتالهم رجلاً لرجل، بشهادة قادة عمر بن سعد أنفسهم: «... فصاح عمرو بن الحجاج بالناس، يا حمقى أتدرون من تقاتلون؟ فرسان المصر قوما مستميتين لا يبرزن لهم منكم أحد فإنهم قليل وقل ما يبقون والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم. فقال عمر بن سعد: صدقت الرأي ما رأيت، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم ألا يبارز رجل منكم رجلا منهم»[١٠٠].

ثم ما هي المسؤولية الرئيسية التي يتحملها الإمام الحسين عليه السلام هل هو مذنبٌ بوصفه حراً أبياً، هل هو مذنب بوصفه يرفض العبودية للبشر، وكل أنواع الظلم والطغيان، أم لأنه قال: «.. لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد، عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب». أم لأنه قال: «ألا وان الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين: السلّة والذلة وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[١٠١]. أم لأنه قاتل «.. طواغيت الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، وغضبة الآثام، وبقية الشيطان، ومحرفي الكلام ومطفئي السنن وملحقي العهرة بالنسب... الذين جعلوا القرآن

عضين»[١٠٢]. أم لأنه قال: «أيها الناس إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله مخالفا لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله»[١٠٣]. أم لأنّه استجاب لصرخات المظلومين، وأنات الفقراء والمعذبين في سجون الطغيان الأموي، ألم يدعي (لامنس) وصاحباه، أنّه استجاب لدعوات العراقيين! أم أن هذه الدعوات كانت موجهة من فراغ وبطر؟! نعم التزامهم بوعودهم وبيعتهم شيء آخر.

وليت القس العبقري دلنا على مقياس (التردد وقلة الفطنة) الذين وصم بهما الإمام الحسين ﷺ، وقال: إنّه ورثهما عن أبيه، بالتأكيد إن المقياس عنده هو: الغدر، الفجور، الكذب، النفاق، الخسة والنذالة، وعدم التورع عن فعل أي شيء مهما كان دنيئاً لتحقيق الأهداف المبتغى تحقيقها، هذه هي (الفطنة وعدم التردد) الذي يتغنى ويتفاخر بتوفره في الأمويين.

أمّا أنّ الإمام الحسين ﷺ صار ضعيفاً ومتردداً، خلال الأيام الثمانية التي أمضاها في كربلاء قبل شهادته، فهذا ما يخالفه العقل والنقل، وإلا لتراجع عن ثورته وقبل بمبايعة يزيد وانتهى الأمر، بل إن الإمام ﷺ كما يروي أعداؤه، ظل عنيداً، صامداً، مكابراً على جراحه حتى الرمق الأخير: «ثم إنه دعا إلى البراز، فلم يزل يقتل كل من خرج إليه من عيون الرجال حتى قتل منهم مقتلة عظيمة... وتقدم الشمر بن ذي الجوشن فقاتلهم [دلالة على أنهم قاتلوه على شكل مجموعات لا رجلاً لرجل] الحسين بأجمعهم وقاتلوه حتى

حالوا بينه وبين رحله، قال: فصاح بهم الحسين رضي الله عنه: ويحكم يا شيعة آل سفيان... أنا الذي أقاتلكم وتقاتلوني، والنساء ليس لكم عليهن جناح فامنعوا عتاتكم وطغاتكم وجهّالكم عن التعرّض لحرمي ما دمت حيّاً»[١٠٤]. أي إنّهم كانوا يهربون، ويجبنون عن مقاتلة الإمام، فيهاجمون النساء، وهذا ما جعل (شبث بن ربعي) يعنف (الشمر) ويوبخه: «ما رأيت مقالا أسوأ من قولك ولا موقفا أقبح من موقفك أمرعبا للنساء صرت»[١٠٥]. هذه هي بطولة الأمويين التي يتغنى بها (لامنس).

أمّا أن صحابته، كانوا ضعفاء وجبناء، ولا خبرة لهم في الحرب، وأنهم: «شباب خنثتهم ملذات المدينة، ولم يسبق لهم أن استخدموا السلاح أبداً.. ولم يقم بعمل واحد من أعمال البطولة التي أغرم الشيعة بالتغني بها». فهذا من الحماقة والسخف، فضلاً عن كونه من الكذب الصريح. بل إنّ أعدائهم من أكفوا الشيعة مئونة التغني بشجاعتهم، وفروسيتهم، وفضائلهم، وبطولاتهم، وإقدامهم. فهذا (ربيع بن تميم) أحد جنود (عمر بن سعد) يتحدث عن شجاعة وقتال (عابس بن شبيب الشاكري): «لما رأيته مقبلا عرفته وقد شاهدته في المغازي، وكان أشجع الناس، فقلت: أيها الناس هذا الأسد الأسود هذا ابن أبي شبيب لا يخرجن إليه أحد منكم، فأخذ ينادى ألا رجل لرجل! فقال عمر بن سعد ارضخوه بالحجارة، قال: فرمى بالحجارة من كل جانب، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ثم شد على الناس، فوالله لرأيته يكرد أكثر من مائتين من الناس ثم إنهم تعطفوا عليه من كل جانب فقتل، قال: فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عدة هذا يقول أنا قتلته وهذا يقول أنا قتلته، فأتوا عمر بن سعد فقال: لا تختصموا هذا لم يقتله سنان

واحد ففرق بينهم بهذا القول»[١٠٦].

وقال (شبث بن ربعي) معلقاً على قتل (مسلم بن عوسجة): «... فتنادى أصحاب عمرو بن الحجاج: قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدي، فقال شبث لبعض من حوله من أصحابه: ثكلتكم أمهاتكم! إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذللون أنفسكم لغيركم تفرحون أن يقتل مثل مسلم بن عوسجة! أما والذي أسلمت له، لرب موقف له قد رأيته في المسلمين كريم، لقد رأيته يوم سلق آذربيجان، قتل ستة من المشركين، قبل تتام خيول المسلمين، أفيقتل منكم مثله وتفرحون!»[١٠٧]. وقال (قرة بن قيس) مخاطباً (الحر الرياحي): «... والله إن أمرك لمريب والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة رجلا ما عدوتك»[١٠٨]. وصاح (عمرو بن الحجاج): «يا حمقى أتدرون من تقاتلون فرسان المصر قوما مستميتين لا يبرزن لهم منكم أحد»[١٠٩].

وفي قبالة هذه البطولة الثرة، التي يتواضع لها جبين الدنيا، نجد جبن من يدّعي لهم القس الجبان البائس، الشجاعة والبطولة والإقدام ودناءتهم وخستهم: «عن حميد بن مسلم، قال: انتهيت إلى علي بن الحسين بن علي الأصغر وهو منبسط على فراش له وهو مريض وإذا شمر بن ذي الجوشن في رجالة معه يقولون: ألا نقتل هذا، قال: فقلت: سبحان الله أنقتل الصبيان إنما هذا صبي، قال: فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كل من جاء حتى جاء عمر بن سعد فقال: ألا لا يدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد ولا يعرضن لهذا الغلام المريض ومن أخذ من متاعهم شيئا فليرده عليهم قال: فو الله ما رد أحد شيئا»[١١٠]. شجاعتهم: أن ينهبوا النساء، ويقتلوا المرضى، ويحرقوا الخيام، ويمثلوا بالأجساد، ويسوقوا النساء والأطفال

سبايا. نعم إنها مقاييس الشجاعة عند الجبناء المتسافلين مثل (لامنس)، شجاعتهم أن: «... عمر بن سعد أرسل رجالاً يقوضونها [الخيام] عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم قال: فأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيشدون على الرجل وهو يقوض وينتهب فيقتلونه ويرمونه من قريب ويعقرونه فأمر بها عمر بن سعد عند ذلك فقال: احرقوها بالنار ولا تدخلوا بيتا ولا تقوضوه فجاءوا بالنار فأخذوا يحرقون.. وخرجت امرأة.. تمشي إلى زوجها حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول هنيئا لك الجنة، فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمى رستم: اضرب رأسها بالعمود فضرب رأسها فشدخه فماتت مكانها. قال وحمل شمر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمحه ونادى عليّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله، قال فصاح النساء وخرجن.. قال أبو مخنف.. عن (حميد بن مسلم) قال: قلت لشمر بن ذي الجوشن: سبحان الله إن هذا لا يصلح لك أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين تعذب بعذاب الله وتقتل الولدان والنساء.. قال فجاءه رجل كان أطوع له من شبث بن ربعي، فقال: ما رأيت مقالا أسوأ من قولك ولا موقفا أقبح من موقفك أمرعبا للنساء صرت»[١١١].

أمّا ما ادعاه من معاملة حسنة من (يزيد) للسبايا، وإنكاره أنه أمر بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وأنه حزن على ذلك، فهو مما لم يقتنع به حتى المدافع الأول عن الأمويين (فلهوزن)[١١٢]. إذ قال: «وربما كانت الروايات قد عاملت يزيد بن معاوية برفق أكبر جداً مما يستحق. فإنه إذا كان مقتل الحسين جريمة، فالمجرم الأكبر فيها يزيد، لأنه هو الذي بعث عبيد الله للقيام بإجراءات قاسية. وكانت النتيجة مرضية جداً ليزيد، واغتبط لها أيما

اغتباط، فإن كان قد غضب على خادمه عبيد الله من بعيد، فما كان ذلك إلا تطبيقاً لامتياز الحاكم الأعلى، أعني أن يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التي اصطنعها لنفسه في جريمته. حقاً أن المودة التي أبداها نحو من بقي من آل الحسين[إن كانت هناك مودة] ليست مما يعيبه، وإن كانت مودة تنطوي على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص»[١١٣].

ونحن نقول: إنّ هذا الغضب مصطنع، وملفق من قبل المؤرخين لا من قبل (يزيد) لمداراة سمعة خليفة المسلمين ـ في نظرهم ـ وإلا فإن ركب آل البيت: بعث «بهم إلى يزيد بن معاوية فأمر بسكينة فجعلها خلف سريره لئلا ترى رأس أبيها، وذو قرابتها وعلي بن الحسين رضي الله عنهما في غل، فوضع رأسه فضرب على ثنيتي الحسين رضي الله عنه وقال: نفلق هاماً من رجال أحبة إلينا وهم كانوا أعقّ وأظلما»[١١٤]

كما تنسب هذه الدناءة والخسة والنذالة (لعبيد الله بن زياد الدعي ابن الدعي) وليس من المستبعد أن يكون كلاهما قاما بذلك. «ولما قتل الحسين أمر عمر بن سعد نفرا فركبوا خيولهم وأوطؤها الحسين.. ولما قتل أرسل عمر رأسه ورؤوس أصحابه إلى ابن زياد فجمع الناس وأحضر الرؤوس وجعل ينكت بقضيب بين شفتي الحسين»[١١٥].

هذه صور ثلاث لكربلاء: الصمود والفداء والتضحية، كانت سلبية في طرحها؛ بسبب وقوعها تحت تأثير الرواية الأموية والعباسية من جانب، والتوجهات الأيديولوجية لصناعها من جانب آخر. كانت الأولى منها قالباً نمطياً، صبت فيه الصورة الثانية، وشكلت الصورتان معاً، مع خليط من الشتائم والسباب، عماد الصورة الثالثة ومضمونها. وفي قبالة

هـذه الصـور السـلبية، كـان هنـاك مستشرقون، قرأوا الثورة الكربلائيـة، والشخصية الحسينية مـن دون تشـنج أو دوافـع مسـبقة، فكـان عرضـهم موضوعياً للحادثة التاريخيـة، وللأثـر المترتب عليها مـن شـعائر وممارسـات عزائية.

فهذا الصحفي الألماني (Gerhard Konzelman جرهـارد كونسـلمان) في كتابه (سـطوع نجـم الشـيعة) يقـول: «... بعـد أن مـات الحسـن، أثبـت الحسين ذكاءً. فقاوم إغراءات خصمه بـسرعة تنشـيط شـيعة عـلي في بـلاد الرافدين، فلقد خـبر تـأرجح هـؤلاء، فلم يشأ الحسين التعامل معهـم. وقـد كشف حفيد النبـي هـذا عـن موقـف شريف متحفظ... وإلى هـذه اللحظـة كان الحسين واقعياً، فقد أدرك أن بنـي أميـة يحكمـون قبضـتهم عـلى الإمبراطورية الإسـلامية الواسـعة... كـان الحسـين يـمارس التمنـع السياسي[أي في عهد معاويـة، ولكـن بعد موته، وطلب بيعتـه ليزيـد] كـان الحسين من هؤلاء الذين تحفظوا تمامـاً ضد شخصـية يزيـد... ولم يمـض إلا أسبوعان حتـى وصـل إلى بـلاد وادي الرافـدين خـبر إعـلان حفيـد النبـي خصومته ليزيد. وبذلك بـدأت شـيعة علي برفع رأسـها[بعـد تـوالي الكتـب الملحة عليه في الثورة على يزيد] فمضى الحسين في طريقه، لكنه كـان حريصـاً فأرسل مسلم بن عقيل آملاً من خلال تقـاريره أن يحصـل عـلى المعلومـات الـضرورية، حتـى يسـتطيع تحديـد إن كـان سـيدخل المدينـة.. ولمـرة أخـيرة حـاول زعـيم شـيعة عـلي اسـتخدام عنصر الإقناع. وكـان رجـلاً ذا كـلام ساحر خاصة في وقت الشدة.. كلماتـه تعبر أقاربـه وأنصـاره الملتفـين حولـه فيسـمعها أعـداؤه. وقـد بقيـت هـذه الكلمات للشهيد الحسين مقدسة عنـد الشيعة حتى اليوم... وفي قيظ الظهيرة أصاب الوهن صوت الحسين؛ فجـف حلقه وشفتاه ولسانه بفعـل العطـش.

وأخيراً انتهت الخطبة، وصار القرار للسيوف.. وفي النهاية كان قائد الخليفة يزيد قد ضاق بالمبارزة ففتح قتال الساحة. إلا أن مقاتلي الأمويين لم ينجحوا بسرعة في كسر الحلقة حول الحسين.. وقد أجمعت روايات المؤرخين أن الحسين قاتل ببسالة عظيمة.. وفي لحظة انتصار مس[من المس] مقاتلي الخليفة جان[جن أو شيطان] الدم؛ فقتلوا أنصاره وأهل الحسين بلا رحمة. وقام المنتصرون بفصل الرقبة عن جسد كل القتلى بما فيهم الحسين. وخلعوا الثياب عن الأجساد الدامية بلا رأس. ومثلوا بكثير من جثث القتلى. وقد بقيت الجثث الدامية المقطوعة الرأس بلا دفن... وفي المساء لم يبق على قيد الحياة إلا نساء وعدد قليل من الغلمان، فتم إرسالهم ليلاً، فتركوا كربلاء باكين ووصلوا الكوفة باكين. وكان أن أثار منظر النساء القانطات مشاعر أهل الكوفة المترددين، ودخلت النساء والفتيات من باب المدينة يترنحن من الكلل. أما أصحاب الفضول الذين كانوا ينتظرون هناك فشرعوا في النحيب وسرعان ما أصابتهم الهستيريا وقد سمعت هناك صرخات مدوية. وكانت النساء تضرب صدورها، ولم يكن النساء والرجال يبكون وزر آل الحسين بقدر ما كانوا يبكون ذنبهم وإحباطهم الذي أدى إلى مقتل حفيد النبي. أدى مصرع الحسين إلى أن تصير سلالة محمد وعلي وآل بيتها ثانية في ضمير كثير من المسلمين، أنبل جنس عاش يوماً على أرض الدولة الإسلامية.. وصار مصرع الحسين عند كربلاء أهم حدث في مجرى التاريخ بالنسبة للشيعة، وظل هذا الشهيد رمزاً للشيعة حتى يومنا هذا... فشباب الشيعة الذين يشتركون في المعارك المشتعلة في الشرق الأوسط، يتخذون قضية الحسين قدوة لهم، والجهاد يعتبرونه واجبهم الأسمى. وتذكر الحسين يحث

المحاربين على الإصرار والتضحية بالنفس. فالحسين نبع القوة لشيعة اليوم... وكان أن قام المنتصرون في كربلاء بإرسال رأس الحسين إلى دمشق حتى يسر الخليفة يزيد بذلك. إلا أن الخليفة لم يشعر بالنصر بموت زعيم شيعة علي. وقد أحس يزيد أن الحسين ميتاً لهو أخطر عليه من الحسين حياً... فقد قوى استشهاد حفيد النبي شيعة علي في رفضهم للحكام الذين لا تمتد جذورهم إلى آل بيت النبي.. وأدى انفصال شيعة علي إلى تشجيع قوى أخرى تبغي الانفصال عن دمشق، في التجرؤ على الصراع..»[١١٦].

وقال المستشرق الفرنسي المعاصر (Yanne Richardيان ريشار) في كتابه (الإسلام الشيعي): «إن الهزيمة... التي لقيها الحسن، ما لبثت أن انقلبت بسرعة إلى نصر غريب لأخيه الحسين، أمير الشهداء... أبى الحسين أن يقبل ولاية يزيد الذي تصفه المصادر التاريخية بقلة التقوى الظاهرة، وبحب الموائد والخمر.. أما الحسين.. فقد مضى ليحتمي بمكة. وهناك تلقى دعوة من أهل الكوفة، يستحثونه فيها على رئاسة التمرد المعتزم. ولما لم يكن حسن الإطلاع على الخطر الحقيقي، ولا على التدابير الوقائية التي اتخذها يزيد، فإنه أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل، للإطلاع على الوضع هناك، وسار هو إلى الكوفة.. وعندما أبدى له المقربون منه اعتراضاتهم خائفين من رؤيته يسرع إلى مغامرة غير معقولة، أجاب: إن الله يفعل ما يريد، وأنا أدعه يختار لي الأفضل. أما هو، فلا يمكن أن يكون ضد من يرى اتّباع الحق.. وعندما حيل بينه وبين الوصول إلى الكوفة؛ لوجود قوة عسكرية أموية أرسلت لملاقاته، وجد نفسه.. مضطراً للانحياز إلى ضاحية كربلاء... أما الوصول إلى ماء الفرات فقد قطع عليه من قبل عدوه.. وبعد أن رفض الإمام ما عرض عليه من

استسلام، تهيأ للمعركة الأخيرة، وحذر من معه من أهله بما يحيق بهم من خطر إذا ظلوا معه... وخاطب الحسين أعداءه لكي يفكروا قبل أن يهاجموا من كان أعزه النبي... ولكن هؤلاء أصروا على أن يخضع لأوامرهم... بعض المهاجمين المترددين من قبل، عادوا فأشعلوا الخيام بالنار، وحاولوا وضع اليد على النساء. وكان بين الضحايا الأوائل الذين تلقاهم الإمام بين ذراعيه ابنه علي الأكبر... وأخبر المخبرون بعد ذلك ما حدث من أشياء مفجعة... هز الوجدان الإسلامي هزاً عنيفاً بالمصير المأساوي الذي صار إليه حفيد النبي محمد بعد أن عزم على القتال حتى النهاية، ضد السلطة التي كانت تدوس أخلاق الإسلام الأول، ومبادئه. لكن الحسين الشهيد، صار نموذجاً مثالياً لكل نضالٍ من أجل الحرية، ولكل معذبي الأرض.. وحقاً فلئن كانت هذه المذبحة، مذبحة الإمام الحسين، قد أثرت.. في الحساسية الدينية لهؤلاء المسلمين[الشيعة] الذين اعتبروا كأقلية، ثم عذبوا من قبل السنة.. فهي تبرّر كونهم مغلوبين وتتيح لهم انتقاماً معنوياً، لا يمكن أن يتم إلا في نهاية الأزمان.. ففي هذا العالم الحديث، وفي مجتمع تقوم بشؤونه سلطة كافرة، وعندما لا يكون للدين نفسه حق الوجود، لا يعني البكاء على الحسين إلا البكاء على نصر غير مرئي، والتسامي بصور المذلة في الوقت الحاضر، كصور من العذاب الضروري، من أجل تقديم الموعد الذي طال انتظاره، بموعد الحكم الأخروي، حكم العدالة والحقيقة، أي: موعد عودة الإمام المنتظر، إمام كل زمان. ولقد أوضح أحد علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) كيف أن صورتي الإمام الحسين تتزاحمان في ظرف ثوري معيق. ولا سيما في الوقت الذي يحتفل فيه بذكرى العاشوراء التي يتم فيها أعنف التعبئة العاطفية

وأحرها.. إن الصورة الأولى للحسين هي وسيط أو شفيع يجب أن نرضيه لنلفت انتباهه إلينا. ذلك أنه، بالاستشهاد وثوابه، يتمتع عند الله بحظوة خاصة: وعلى ذلك فإن شفاعته ستكون على الأرجح أكثر جدوى من شفاعة أي قديس آخر... ولكي نرضيه نشارك في آلام استشهاده.. ذكرى الحزن، فنبكي، ونقدم نذور الطعام و الشراب. وكذلك يمكن أن نطلب منه الشفاء من المرض، أو الخروج من السجن.. أما الصورة الثانية للحسين، فهي صورته كمحارب، يناضل من أجل العدالة، ضد السلطة الظالمة، سلطة الأمويين»[١١٧].

وقال (إسحاق نقاش)[١١٨]: «.. ويوجد في كربلاء مرقد الحسين، نجل علي والإمام الشيعي الثالث.. ويعرف الحسين بين المؤمنين الشيعة بأنه (سيد الشهداء) لأنه قتل متحدياً وراثة يزيد بن معاوية للخلافة.. وأصبحت المعركة واستبسال الحسين، وجماعته الصغيرة استبسالاً بطولياً فيها، أهم حدث في التاريخ الشيعي.. وأخذ الشيعة يحيون ذكرى استشهاد الحسين بعاطفة لاهبة». كما أنه عقد فصلاً كاملاً لتتبع الممارسات والطقوس العزائية التي تقام في عاشوراء. مستشهداً بأقوال ومشاهدات عدد من المستشرقين والرحالة والمتابعين[١١٩].

وركز الأمريكي (Valy Naser فالي ناسر) في كتابه (The Shia Rivival يقظة أو نهوض أو انبعاث الشيعة) على شعائر عاشوراء، ودورها في تعبئة مشاعر المسلمين، وحثهم على الإقتداء بإمامهم، في الدفاع عن القيم والمبادئ والأخلاق والحياة الحرة الكريمة، وعقد مقاربات كثيرة بين شخصية الإمام الحسين عليه السلام وشخصية عيسى المسيح عليه السلام ودور تضحياتهما في إذكاء فضائل الأخلاق، وضرورة الإقتداء بها. فيقول عن يوم عاشوراء: يظهر الشيعة وجهاً متميزاً للإسلام

والمسلمين.. إسلام تتجلى فيه الروحية العالية في العاطفة والطقوس أكثر من تجليها في العبادات والممارسات الأخرى.. بحيث يظهر للمشاهد بأن لا أحد يبقى في بيته في ذلك اليوم لاسيما وهو يرى تلك الحشود تخرج زرافات زرافات، لإظهار احترامهم لهذا اليوم العظيم، تعبيراً عن انتمائهم وهويتهم ومعتقدهم.. فلا يبقى مراقب أو مشاهد في هذا اليوم.. إلا وتأثر بهذا الاستعراض الشعبي المفعم بالولاء والإخلاص للمعتقد والمذهب، بحيث لا يمكن أن يبقى حتى شخص واحد ليس بإمكانه ملاحظة هذا التفرد الواضح للشيعي، أو للقيم الروحية التي يحملها أو يعرف بها.[١٢٠]

ويضيف قائلاً: «وبالتالي فإن الحسين لم يعد حامل لواء التشيع وحسب، ورمزاً مقدساً لمفهوم الزعامة في العالم الإسلامي، بل ورمزاً يقتدى به في الفروسية والشهامة وقيم الشجاعة، في الوقوف.. ضد الاستبداد والقهر والطغيان.. وهكذا صارت كربلاء.. تفيد ضمناً رفض المسلم الحقيقي لأية سلطة تقوم على أسس ذرائعية أو تحصر لتنفيذ إرادة الظالمين. بل إنها إرادة تحدٍ لأية سلطة غير شرعية»[١٢١].

وقال البروفسور (هانغسون)[١٢٢]: «إن بعض التقاليد والرموز الإسلامية قريبٌ لقلوب المسيحيين، مثلاً من تلك الرموز سبط الرسول محمد، الحسين بن فاطمة تلك المتألقة، وابن ذلك المكافح الحكيم الخليفة علي، هذه مشاعرنا نحن المسيحيين تجاه الحسين والمأساة التي أدت إلى استشهاده.. نعترف نحن المسيحيين بأن في حياة الحسين الأليمة سمات عديدة نشاهدها في صور العبد المضحي لله، والذي يشبه النبي داود الذي نقرأ عنه في الزبور: احمني تحت جناحك، أظلني في ظلك من أولئك الأشرار الذين يريدون هلاكي من

أعدائي الآدميين الذين يحيطونني.. هذه المأساة بين الإسلام التقليدي والنظري، وبين المسلمين الشيعة الذين يمثلون الإمام الحسين من طرف، والمسيحيين من خلال دور المعذب بالخلود وموت عيسى»[١٢٣].

الهوامش

[١] ادوارد سعيد: الاستشراق ص٣٢١ ــ ٣٢٢.

[٢] سايلوفتش، أحمد: فلسفة الاستشراق ص١٥٧.

[٣] العمري، أكرم ضياء: موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة النبوية، ١٩٩٥م. ص٥٥، ٥٦.

[٤] لمزيد من التفاصيل ينظر: دونلدسن: عقيدة الشيعة (الصفحات جميعها)، أجناس جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الاسلام ص١٦٧–٢٢٢، فيليب حتي: تاريخ العرب ص٣١١–٣١٣، ٥١٢–٥٢٣، فرنسوا تويال: الشيعة في العالم ص١٩–١٨٣، جرهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة ص٥ ــ ٢٩٤، ولي نصر: الانبعاث الشيعي ص١٩ ــ ٤١٧، عبد الجبار ناجي: التشيع والاستشراق ص ١١–٤٧٨، له أيضا: الاستشراق في التاريخ ص٢٤٠–٢٤٨، فؤاد كاظم المقدادي: الاسلام وشبهات المستشرقين ص١٤٥–١٧٢.

[٥] ينظر: هاينس هالم، الشيعة ص١٥.

[٦] كما فعل المستشرق دونلدسن الذي بقي (١٦) سنة في مدينة مشهد في إيران. ينظر: عقيدة الشيعة ص٥.

[٧] ينظر: عبد الجبار ناجي، التشيع والاستشراق ص١١ ـ ١٢.

[٨] ينظر حديثه عن الشيعة ص١٢ ـ ٥٨.

[٩] ينظر ما كتبه عن مقالات الروافض ص٢٢ ـ ٤٩.

[١٠] ينظر ما وصفه بـ شنع الشيعة ٣/ ١١١ ـ ١٢٣.

[١١] ينظر ما سطره عن الشيعة ص١١٨ ــ ١٥٩.

[١٢] ينظر: عبد الجبار ناجي، التشيع والاستشراق ١٥، ١٦.

[١٣] ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٥ــ ٣٢٨.

[١٤] ينظر الفصل في الملل ص١١٥.

[١٥] ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٨.

[١٦] ينظر الفصل في الملل ص ١١٦.

[١٧] شخصية اختلفت الأقوال فيها، فهل لها واقع تاريخي؟ أم أنها شخصية مفتعلة؟ لمزيد من التفاصيل ينظر: مرتضى العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى في جزئين، (الصفحات جميعها). علي آل محسن: عبد الله بن سبأ دراسة وتحليل ص١١ ـ ٣٦٤. إبراهيم بيضون: عبد الله بن سبأ ص٥ – ١١٨.

[١٨] ينظر الفصل في الملل ص١٢٠.

[١٩] الرافضة: تعني الجند المخالفين لقائدهم. فقد كتب معاوية الى عمرو بن العاص بعد معركة الجمل: انه وقع إلي مروان بن الحكم في رافضة البصرة، أي من رفض خلافة الامام علي عليه السلام من أهل البصرة. ابن قتيبة: الامامة والسياسة ١/ ٨٦، المنقري. وقعة صفين ص٣٤. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٥٩/ ١٣٠، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/ ٦١، وقال ابن منظور: (والرّوافِضُ: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا فكل طائفة منهم رافِضةٌ، والنسبة إِليهم رافِضِيٌّ). لسان العرب ٧/ ١٥٧. ثم اخذ خصوم أهل البيت باطلاقها على أتباع مذهب آل البيت عليهم السلام.

[٢٠] ينظر: الأميني، الغدير ٣/ ٩٢ وما بعدها.

[٢١] مستشرق له اهتمام في دراسة الدين الإسلامي عموما والتشيع على وجه الخصوص، زار البلاد الشيعية واستقر ١٦ سنة في مدينة مشهد في إيران حينما كان يدرس الدكتوراه حول رسالته عن الأئمة الاثني عشر، ومن آثاره: سلمان الفارسي ط١٩٢٩م، عقيدة الشيعة في الإمامة ١٩٣١م، عقيدة الشيعة، ط لندن١٩٣٣م، وقد ترجم إلى العربية، القانون الفارسي١٩٣٤م، الزواج العربي في الإسلام ١٩٣٦م، قصيدة صوفية ١٩٣٩، الحكم في الإسلام ١٩٤٦م، الإسلام في الهند ١٩٤٨م، المحراب في حرم مشهد، مجلة الفن الإسلامي ١٩٣٥، الإسطرلاب، مجلة الثقافة الإسلامية ١٩٤٥م. ينظر: يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين ص٣٤٢.

[٢٢] ترجم إلى العربية من قبل شخص أشار إلى نفسه بالرمز ع. م، وطبع الطبعة الأولى في القاهرة سنة ١٩٤٦م، والطبعة الثانية سنة ١٩٩٠ م في بيروت.

[٢٣] هو المستشرق الانكليزي ادوارد ج براون (١٨٦٢ ـ ١٩٢٦)، ولد في أسرة اشتهرت بالطب واللاهوت والعسكرية والتجارة، حصل على بكالوريوس في الطب في ١٨٨٧م، له اهتمام باللغات الشرقية منها العربية والتركية والفارسية، وقد أولى

الفارسية اهتماما خاصا وأراد منها مدخلا لدراسة العقلية الفارسية، وضع فهرسا للمخطوطات الفارسية خاصة وفهرسا للمخطوطات الإسلامية عامة، واقتنى كثيراً من المخطوطات لا سيما الفارسية لذا كان نتاجه العلمي منصبا على دراسة الأدب الفارسي، واهتم بدراسة الفرق الدينية وأهمها البابية والبهائية وغيرهما. ينظر لمزيد من التفاصيل: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٧٩ـ ٨١. مراد: معجم أسماء المستشرقين ص١٤٨ ــ ١٤٩.

[٢٤] دوايت م. دونلدسن: عقيدة الشيعة ص ٥.

[٢٥] برنارد لويس، ولد في لندن سنة ١٩١٦، وحصل على الليسانس من جامعة لندن، ودبلوم الدراسات السامية من جامعة باريس، والدكتوراة من جامعة لندن، وغدا أستاذ الدراسات الشرقيةفي جامعة برنستون، ثم عمل في جامعات عدة في تدريس الشرق الإسلامي، وله آثار عدة منها: أصول الإسماعيلية، والعرب في التاريخ، وتاريخ الإسلام، وله مقالات في دائرة المعارف الإسلامية، وقد ترجمت كثير من مؤلفاته إلى عدد من اللغات العالمية، يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين ص٦٢٢ ـ٦٢٤.

[٢٦] الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية ٣٠.

[٢٧] تنظر ترجمته: بدوي، موسوعة المستشرقين ٥٢٩ ـ ٥٣٥.

[٢٨] جب: وجهة الإسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي ٦٤.

[٢٩] أبدى لويس برنارد اهتماما بالإسماعيلية، وكتب عدة أبحاث في ذلك، لعل أولها كتاب أصول الإسماعيلية، الذي وصف بأنه كتاب نفيس يصنف الشيعة إلى شيع معتدلة وغالية، طبع في كمبردح سنة ١٩٤٠، وقد ترجم إلى العربية، وله (مذكرات إسماعيلية) طبع سنة ١٩٤٨، وصلاح الدين والحشاشين سنة ١٩٥٣، ومصادر لتاريخ الحشاشين في سوريا، مجلة المرآة، سنة١٩٥٢. ينظر: يحيى مراد: معجم اسماء المستشرقين ص ٦٢٣ ـ٦٢٤.

[٣٠] ينظر: عبد الجبار ناجي، التشيع والاستشراق ١٦ ـ ١٩.

[٣١] برنارد لويس: الإسلام الأصولي ٣١.

[٣٢] ينظر: هاينس هالم، الشيعة ص١٣.

[٣٣] ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى ص٣٥؛ رودنسون: جاذبية الإسلام ص٢٠؛ الصورة الغربية والدراسات الغربية

الإسلامية (ضمن تراث الإسلام) ص٣٢.

[٣٤] ريتشارد سوذرن: صورة الإسلام ص٧٧ ـ ١١٥.

[٣٥] مكسيم رودنسون: جاذبية الإسلام ص٢٩، ٣٥، ٣٩؛ الصورة الغربية ص٤٢، ٤٧، ٥٠.

[٣٦] هو مستشرق ألماني ولد عام (١٨٤٤م) درس اللغات السامية، ونقد التوراة في (جامعة جيتنجن)، وصار أحد أبرز اساتذتها. له كتابات متعددة في تاريخ اليهود ونقد التوراة منها: (التاريخ الإسرائيلي واليهودي ١٨٩٤م)، و (تاريخ إسرائيل ١٨٧٨م)، و (تأليف الأسفار الستة ١٨٨٥م)، و (نص سفر صموئيل ١٨٧١م)، و (سفر المزامير ١٨٩٥م) و (الأنبياء الصغار ١٨٩٨م)، وغيرها. وله كتابات متعددة في تاريخ الإسلام منها: (المدينة قبل الإسلام وتنظيم محمد للجماعة الإسلامية في المدينة ١٨٨٩م) و (الدولة العربية وسقوطها ١٩٠٢م) و (أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام ١٩٠١م) وغيرها. ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين ٤٠٨ ـ ٤١٠.

[٣٧] عبدالرحمن بدوي، في تصديره لكتاب (فلهوزن أحزاب المعارضة..).

[٣٨] رضوان السيد، مقال في جريدة الشرق الأوسط (العدد ١٢٢٠٨ في ١/ ٥/ ٢٠١٢).

[٣٩] فلهوزن: أحزاب المعارضة ١٦٠ ـ ١٨٨.

[٤٠] فلهوزن: أحزاب المعارضة ١٧٩.

[٤١] فلهوزن: أحزاب المعارضة ١٧٩.

[٤٢] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١/ ١٤٧. العسكري: مرتضى، معالم المدرستين ١/ ٣١٤.

[٤٣] النجاشي: رجال النجاشي ٣٢٠، الحلي: خلاصة الأقوال ٢٣٣؛ الحر العاملي: وسائل الشيعة ٣٠/ ٤٥٣.

[٤٤] معجم رجال الحديث ١٥/ ١٤٢.

[٤٥] البدري: سامي، الحسين في مواجهة الضلال الأموي ١٧ ـ ١٨.

[٤٦] المفيد: الجمل ٢٢٥.

[٤٧] المفيد: الجمل ١٤٧.

[٤٨] أحزاب المعارضة ١٦٠.

[٤٩] تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٣.

[٥٠] فلهوزن: أحزاب المعارضة ص١٦٠.

[٥١] ابن أعثم: الفتوح ٥/ ٢١.

[٥٢] فلهوزن: أحزاب المعارضة ص١٦٩.

[٥٣] ابن نما: مثير الأحزان ص٢٩؛ ابن طاووس: الملهوف في قتلى الطفوف ص٣٨؛ الزرندي الشافعي: معارج الوصول ص٩٤.

[٥٤] فلهوزن: أحزاب المعارضة ص١٦٩.
[٥٥] تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٠٠.
[٥٦] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٠٤.
[٥٧] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٠٥؛ الطبراني: المعجم الكبير ٣/ ١١٥؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٢١٨.
[٥٨] الطبري: تاريخ ٤/ ٢٨٩.
[٥٩] ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٥٨.
[٦٠] أحزاب المعارضة ١٧٤.
[٦١] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٠٠.
[٦٢] المقريزي: إمتاع الأسماع ١/ ٩٤.
[٦٣] ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٤٧؛ الطبري: تاريخ ٢ / ١٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣٢٠.
[٦٤] الطبري: تاريخ ٢ / ١٤٠، ١٤١.
[٦٥] فلهوزن: أحزاب المعارضة ١٧٦، ١٧٧.
[٦٦] أحزاب المعارضة ١٨٦.
[٦٧] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٧٤؛ ابن الأثير: الكامل ٤/ ٧٩، ٨٠.
[٦٨] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٤٧.
[٦٩] أحزاب المعارضة ١٨٧ ـ ١٨٨.
[٧٠] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣١.
[٧١] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٤٥؛ ابن الأثير: الكامل ٤/ ٧٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ٢٠٤.
[٧٢] تنظر ترجمته: بدوي، موسوعة المستشرقين ص٣٤٥ ـ ٣٤٧.
[٧٣] تاريخ العرب العام ٦٦ نقلاً عن: الماجد، سعد عبدالله، موقف المستشرقين من الصحابة ص٥٠٠.
[٧٤] تنظر الصفحتان ١٤٣ ـ ١٤٤.
[٧٥] ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين ١٩٧ ـ ٢٠٣. مراد: معجم اسماء المستشرقين ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.
[٧٦] ينظر: البهي، محمد، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام ٢٤؛ شابي: عبد الجليل، الإسلام والمستشرقون ٤٦؛ وينظر عنه: جبل، محمد حسن، الرد على جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية (الصفحات جميعها).
[٧٧] العقيدة والشريعة في الإسلام ص٢٥٨.
[٧٨] جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام ص٢٥٨ ـ ٢٦٣.
[٧٩] العقيدة والشريعة ص٦٨ ـ ٨٠؛ الماجد: سعد عبد الله: موقف المستشرقين من الصحابة ص٧٦ ـ ٧٨.
[٨٠] أديب مختار: الشعائر الحسينية في كتاب أمريكي، مقال ضمن مجلة رسالة الحسين، العدد الخامس ٢٠١١). ص١٧١ ـ ١٧٤.
[٨١] ينظر ترجمته في تمهيد كتابه (محمد رسول الله) بقلم: محمود عبد العليم ص٧ ـ ١٠؛ مراد: معجم أسماء المستشرقين ص٥٧٢.

[٨٢] المصدر نفسه، ص٤٩.

[٨٣] ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين ص٥٠٣؛ فردينان توتل: الأب هنري لامنس، مقال بمناسبة وفاته نشر في مجلة المشرق، سنة ١٩٣٧م. ص١٦٢.

[٨٤] ينظر: بدوي، موسوعة المستشرقين ص٥٠٣؛ العقيقي: المستشرقون ٣/ ٢٩٣؛ توتل، الأب هنري لامنس ص١٦٢.

[٨٥] http: //www. kaowarsom. be /nl /notices_Lammens_Henri.

[٨٦] ينظر: إبراهيم علامة، مقال بعنوان: الأب لامنس مخترع لبنان ينظر: http: //adloun. org /InventeurDuLiban.aspx

[٨٧] ينظر: الأعسم، عبد الامير، الاستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر، مجلة الاستشراق، العدد الأول، ص٢١.

[٨٨] ينظر: فوزي، فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص٥٨.

[٨٩] ينظر: ستيفن كنوتس Stijn KNUTS: Jesuit and historian ،Henri ،Lammens of Islam.

[٩٠] كازانوفا. ب. (P. Casanova) تعلم العربية وعلمها في معهد فرنسا، وقدم إلى مصر وأصبح أستاذا لفقه اللغة العربية في الجامعة المصرية، وجه عنايته نحو دراسة مصر في العصور الإسلامية، ترجم كتاب خطط المقريزي، وكتب عن عقيدة الفاطميين في مصر، توفي في ١٩٢٦م. تنظر ترجمته: يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠.

[٩١] مقدمة ترجمة كتاب (محمد رسول الله لآتيين دينيه) ٥٣ ـ ٥٤.

[٩٢] ينظر المجلد السابع ص٤٢٧ ـ ٤٢٩.

[٩٣] Le califat de Yazid Ler ١٤٧ ـ ١٥٠..

[٩٤] ينظر: الديب، المنهج ص١٠٣.

[٩٥] تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، وأشهر إسلامه، وتسمى بناصر الدين، وحج إلى بيت الله الحرام، له مؤلفات في السيرة النبوية وتاريخ العرب، والشرق بنظر الغرب، وترجم بعضها إلى العربية، تنظر ترجمته: في تمهيد كتابه (محمد رسول الله) بقلم: محمود عبد العليم ص٧ ـ ١٠؛ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين ص٣٧٤.

[٩٦] آتيين دينيه: محمد رسول الله ص٥٠.

[٩٧] ابن أبي شيبة: المصنف ٧/ ٥١٥؛ ابن حنبل: مسند ٤/ ١٧٢؛ البخاري: الأدب المفرد ٨٥؛ ابن ماجة: سنن ١/ ٥١؛ الترمذي: سنن ٥/ ٣٢٤؛ ابن حبان: صحيح ١٥/ ٤٢٨؛ الطبراني: المعجم الكبير ٣/ ٣٢، ٣٣؛ ٢٢/ ٢٧٤؛ مسند

الشاميين ٣/ ١٨٤؛ الحاكم النيسابوري: المستدرك ٣/ ١٧٧؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ٩/ ١٨١؛ موارد الظمآن ٧/ ١٩٦، ١٩٧.

[٩٨] الطيالسي: مسند ص٢٦٠ ــ ٢٦١؛ البخاري: صحيح ٤/ ٢١٧، ٧/ ٧٤؛ الترمذي: سنن ٥/ ٣٢٢؛ ابو يعلى الموصلي: مسند١٠/ ١٠٦ ــ ١٠٧؛ الطبراني: المعجم الكبير ٣/ ١٢٧، ٤/ ١٥٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ٩/ ١٨١؛ ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٧٨، ١٠/ ٣٥٧؛ العيني: عمدة القارئ ١٦/ ٢٤٣، ٢٢/ ٩٨؛ المتقي الهندي: كنز العمال ١٢/ ١١٣، ١١٤، ١٢٢؛ ١٣/ ٦٧٣.

[٩٩] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٤٥؛ ابن الأثير: الكامل ٤/ ٧٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ٢٠٤.

[١٠٠] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣١.

[١٠١] الطبري: تاريخ ٤ / ٣٢٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ١٩٤.

[١٠٢] ابن نما: مثير الأحزان ص٤٠؛ ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٤٩، ٢٥٠؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٢١٩، وفيه كلمة (بغي) بدلاً من دعي.

[١٠٣] ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٢١٩.

[١٠٤] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٠٤؛ ابن الأثير: الكامل ٤/ ٤٨.

[١٠٥] ابن أعثم: الفتوح ٥/ ١١٧.

[١٠٦] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣٤.

[١٠٧] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣٨، ٣٣٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ٢٠٠.

[١٠٨] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣٢.

[١٠٩] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٢٥.

[١١٠] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣١.

[١١١] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٤٧.

[١١٢] الطبري: تاريخ ٤/ ٣٣٣، ٣٣٤.

[١١٣] ينظر: عبد الرحمن بدوي، في تصديره لكتابه (أحزاب المعارضة).

[١١٤] أحزاب المعارضة ص١٨٦.

[١١٥] الطبراني: المعجم الكبير ٣/ ١٠٤؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٧٠/ ١٤، ١٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٢٠؛ الهيثمي: مجمع الزائد ٩/ ١٩٥.

[١١٦] ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢١.

[١١٧] جرهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة ص٥١ ـ ٥٩.

[١١٨] يان ريشار: الإسلام الشيعي ص٥١ ــ ٥٧.

[١١٩] شيعة العراق ص٤٢.

[١٢٠] ينظر الفصل الخامس: إحياء ذكرى

عاشوراء ص٢٥٩ ـ ٣٠٠.

[١٢١] أديب مختار: الشعائر الحسينية في كتاب أمريكي ص١٧١ ـ ١٧٤.

[١٢٢] أديب مختار: الشعائر الحسينية ص ١٨٨، ١٨٩.

[١٢٣] هو المستشرق السويدي (jan. a. henningsson) ولد في السويد، وهو متخصص بالاديان والدراسات العربية الإسلامية، عمل أستاذاً محاضراً في قسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة أوبسالا (uppsala) بمدينة أوبسالا السويدية. تولى الأمانة العامة باللجنة الفكرية في مجلس الكنائس السويدي. له عدد من المؤلفات الفكرية، تحمل العناوين التي تم ترجمتها بالعربية وهي: الاعتقاد يقابل الاعتقاد، ونحو علاقة متبادلة لمعرفة الحكمة، والمسيحية والاسلام في حوار، العتبة الجديدة (بالاشتراك مع الكاتب ديوز براون). ينظر: www. alhassanain. com /arabic /articles /articles.

[١٢٤] يان. أ. هانغسون السويدى (jan. a. henningsson)، الحسين حلقة وصل بين المسيحين والمسلمين، منشور في دائرة المعارف الحسينية، (ديوان القرن الرابع) الجزء الأول، ينظر: www. alhassanain. com /arabic /articles /articles.

وينظر: رائد علي غالب: الامام الحسين وعاشوراء من وجهة نظر المستشرقين، مجلة رسالة الحسين (العدد الخامس، السنة الثانية، ٢٠١١). ص٢٠٩.

المصادر والمراجع

ـ ابن الأثير: عز الدين أبى الحسن علي بن أبي الكرم. ت (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

١ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة (المطبعة الوهبية: مصر ـ القاهرة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م).

٢ـ الكامل في التاريخ (دار صادر: بيروت ـ لبنان ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

ـ الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل ت٣٣٠ هـ.

٣ـ مقالات الاسلاميين، تحقيق وشرح: نواف الجراح، ط ١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦.

ـ ابن أعثم الكوفي: أبو محمد أحمد. ت (٣١٤هـ/ ٩٢٦م).

٤ـ كتاب الفتوح. تح: علي شيري (ط١، دار الأضواء: بيروت ـ لبنان ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

ـ الأعسم: عبد الأمير.

٥ـ الاستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر. مقال في مجلة الاستشراق الصادرة عن: دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد ـ

العـــــــــراق (العـــــــــدد الأول/ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).
ـ الأميني: عبد الحسين أحمد.
٦ـ الغـدير في الكتـاب والسـنة والأدب (ط٤، دار الكتـاب العـربي: بـيروت ـ لبنـان ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).
البخاري: ابو عبد الله محمـد بـن اسـماعيل. ت (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).
٧ـ الأدب المفرد (ط١، مؤسسة الكتب الثقافية: بيروت ـ لبنان ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
٨ـ صـحيح البخـاري (دار الفكـر. بـيروت ـ لبنان ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
ـ البدري: سامي.
٩ـ الحسين عليه السلام في مواجهة الضـلال الأمـوي، (ط١، دار طـور سـنين: بغـداد ـ العـراق ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
ـ بدوي: عبد الرحمن.
١٠ـ موسـوعة المستـشرقين (ط٣، دار العلـم للملايـين: بـيروت ـ لبنـان ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).
ـ البغدادي: عبد القـاهر بـن طـاهر بـن محمـد ت٤٢٩ هـ.
١١ـ الفـرق بـين الفـرق، ط٣، دار الكتـب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
ـ البهي: محمد.
١٢ـ المبـشرون والمستـشرقون (ط١، مطبعـة الأزهـر: القـاهرة ـ مصر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).
ـ بيضون: إبراهيم.
١٣ـ عبد الله بن سبأ (إشـكالية الـنص والـدور الأسـطورة)، ط١، دار المـؤرخ العـربي، بيروت، ١٩٩٧.
ـ الترمـذي: أبـو عيـسى محمـد بـن عيـسى. ت (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م).
١٤ـ الجامع الصحيح. تحقيق وتصـحيح: عبـد الوهـاب عبـد اللطيـف (ط٢، دار الفكـر: بيروت ـ لبنان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
ـ توتل: فردينان.
١٥ـ الأب هنـري لامـنس، مجلـة المـشرق الكاثوليكية، بيروت، السنة٣٥، العدد١٩، نيسان ـ حزيران ١٩٣٧م.
ـ تويال: فرنسوا.
١٦ـ الشيعة في العالم، ترجمة: نسيب عون، ط١، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧.
ـ جب: هاملتون، وآخرون.
١٧ـ وجهة الإسلام: نظرة في الحركات الحديثـة في العـالم الإسـلامي، ترجمـة: محمـد عبـد الهادي أبو ريدة (ط١، القاهرة، ١٩٣٤م).
ـ جولدتسيهر: اغناتس.
١٨ـ العقيـدة والـشريعة في الإسـلام. ترجمـة: محمـد يوسـف مـوسى (ط١، دار الجمـل: بيروت ـ لبنان١٤٣١هـ/ ٢٠٠٩م).

ـ الحاكم النيسابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت (٤٠٥هـ/ ١٠١٤م).
١٩ـ المستدرك على الصحيحين. بلا محق، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
ـ ابن حبان: أبو حاتم محمد بن أحمد البستي ت (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م).
٢٠ـ صحيح ابن حبان. تح: شعيب الارنؤوط (ط٢، مؤسسة الرسالة: بيروت ـ لبنان ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).
ـ حتي: فيليب.
٢١ـ تاريخ العرب، ط٧، دار الكشاف، بيروت، ١٩٨٦.
ـ ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني. ت (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).
٢٢ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ط٢، دار المعرفة: بيروت ـ لبنان د. ت).
ـ ابن أبي الحديد، عز الدين ابو حامد بن هبة الله محمد. ت (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).
٢٣ـ شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (ط١، دار احياء الكتب العربية: القاهرة ـ مصر ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).
ـ الحر العاملي: محمد بن الحسن. ت (١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م).
٢٤ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة تح: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث (ط٢، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: قم – إيران ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).
ـ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد الاندلسي ت ٤٥٦ هـ.
٢٥ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧.
ـ الحلي: أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر. ت (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م).
٢٦ـ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال (ط١، مؤسسة نشر الفقاهة: قم ـ إيران ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).
ـ ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل ت (٢٤١هـ/ ٨٥٥م).
٢٧ـ المسند. (المطبعة الميمنية، القاهرة ـ مصر ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م).
ـ ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد ت (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
٢٨ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس (دار الثقافة: بيروت ـ لبنان د. ت).
ـ الخوئي: السيد أبو القاسم ت ١٤١٣ هـ.
٢٩ـ معجم رجال الحديث، ط٥، مركز نشر الثقافة الاسلامية، إيران، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
ـ دونلدسن: دوايت م.
٣٠ـ عقيدة الشيعة، تعريب: ع. م، ط ٢،

مؤسسة المفيد، بيروت، ١٩٩٠.
ـ الديب: عبد العظيم.
٣١ـ المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي (ط١، مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية: الدوحة ـ قطر ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
ـ دينيه: آتين. ناصر الدين دينيه.
٣٢ـ محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود، (ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م).
ـ الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
٣٣ـ سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد (ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م).
ـ رودنسون: مكسيم.
٣٤ـ جاذبية الإسلام. ترجمة: إلياس مرقص (ط٢، دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٥م).
٣٥ـ الصورة العربية والدراسات الغربية الإسلامية، ضمن كتاب (تراث الإسلام)، تصنيف: جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة: محمد زهير السمهوري وآخرون، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥م.
ـ ريشار: يان.
٣٦ـ الإسلام الشيعي: عقائد وأيديولوجيات. ترجمة: حافظ الجمالي (ط١، دار عطية، بيروت، ١٩٩٦م).
ـ الزرندي: شمس الدين أبو عبد الله، محمد بن عز الدين ت (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م).
٣٧ـ معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول. تح: ماجد بن أحمد العطية (د. ت. د. م)
ـ سعيد: إدوارد.
٣٨ـ الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني، ط٢، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
ـ سمايلوفتش: أحمد.
٣٩ـ فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٨م.
ـ سوذرن: ريتشارد.
٤٠ـ صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى. ترجمة وتقديم: رضوان السيد (ط١، دار المدار الإسلامي: بيروت، ٢٠٠٦م).
ـ شلبي: عبد الجليل.
٤١ـ الإسلام والمستشرقون، ط١، دار الشعب، القاهرة، د. ت.
ـ الشهرستاني: أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد ت ٥٤٨ هـ.
٤٢ـ الملل والنحل، أشراف وتقديم: صدقي

جميل العطار، دار الفكر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢.
ـــ ابن أبي شيبة، ابو بكر عبد الله (٢٣٥هـ/ ٨٤٩م).
٤٣ـ المصنف في الاحاديث والاخبار، ضبط وتعليق: سعيد اللحامط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م).
ـ ابن طاووس: علي بن موسى بن جعفر ت (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م).
٤٤ـ اللهوف في قتلى الطفوف (ط١، دار أنوار الهدى، قم، ١٩٩٦م).
ـ الطبراني: أبي القاسم سليمان بن أحمد. ت (٣٦٠هـ/ ٩٧٠م).
٤٥ـ مسند الشاميين، تح: حمدي عبدالمجيد السلفي، (ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.
٤٦ـ المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، (ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٦م.
ـ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. ت (٣١٠هـ/ ٩٢٢م).
٤٧ـ تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبوالفضل إبراهيم، (ط٢، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
ـ الطيالسي: أبو داود سليمان بن داود البصري. ت (٢٠٤هـ/ ٨١٩م).
٤٨ـ مسند أبي داود، ط١، مطبعة دائرة المعارف النظامية: حيد آباد الدكن ـ الهند١٩٠٣م.
ـ ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت (٥٧١هـ/ ١١٧٥م).
٤٩ـ تاريخ مدينة دمشق، تح: علي شيري، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م).
ـ العسكري: السيد مرتضى.
٥٠ـ عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، ط٦، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩١م.
٥١ـ معالم المدرستين (ط٥، مكتبة مدبولي: القاهرة ـ مصر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).
ـ العقيقي: نجيب.
٥٢ـ المستشرقون، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤.
ـ العمري، أكرم ضياء.
٥٣ـ موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة النبوية، ١٩٩٥م.
ـ العيني: أبو محمد محمود بن أحمد. ت (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م).
٥٤ـ عمدة القاري في شرح صحيح البخاري. (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت).
ـ غالب: رائد علي.
٥٥ ـ الامام الحسين وعاشوراء من وجهة نظر المستشرقين، مجلة رسالة الحسين (العدد الخامس، السنة الثانية، ٢٠١١). ص٢٠٣

ـ ٢٢٠.
ـ فلهوزن: يوليوس.
٥٦ـ أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة. ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م).
ـ فوزي: فاروق عمر.
٥٧ـ الاستشراق والتاريخ الإسلامي: القرون الإسلامية الأولى (ط١، دار الأهلية، عمان ـ بيروت، ١٩٩٨م.
ـ ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٢٧٦ هـ.
٥٨ـ الامامة والسياسة، تح: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ب. ت.
ـ ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل الدمشقي. ت (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).
٥٩ـ البداية والنهاية، تح: علي شيري، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.
٦٠ـ السيرة النبوية. تح: مصطفى عبد الواحد (ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١م).
ـ كونسلمان: جر هارد.
٦١ـ سطوع نجم الشيعة، ترجمة: محمد أبو رحمة، (ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م).
ـ لامنس: هنري.
٦٢ـ الحسين، مقال في دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، القاهرة، ١٩٦٩.
ـ لويس: برنارد، و سعيد: إدوارد.
٦٣ـ الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية (ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤م).
ـ الماجد: سعد عبد الله.
٦٤ـ موقف المستشرقين من الصحابة (ط١، دار الفضيلة، الرياض، ٢٠١٠م).
ـ ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).
٦٥ـ سنن ابن ماجه، تحقيق وترتيب وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي (ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٤م).
ـ المتقي الهندي: علاء الدين علي بن حسام الدين الهندي ت (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م).
٦٦ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ضبطه وفسر غريبه وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه: بكري حياني و صفوة السقا (ط١، مؤسسة الرسالة: بيروت ـ لبنان ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
ـ آل محسن: الشيخ علي (معاصر).
٦٧ـ عبد الله بن سبأ دراسة وتحليل، ط ١، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢م.
ـ مختار: أديب.
٦٨ـ الشعائر الحسينية في كتاب أمريكي، مجلة

رسالة الحسين، دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة، العدد الخامس، السنة الثانية، ٢٠١١م.
ـ مراد: يحيى.
٦٩ـ معجم اسماء المستشرقين (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت ـــ لبنان ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
ـ المفيد: محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي. ت (٤١٣هـ/ ١٠٢٢م).
٧٠ـ الجمل، بلا محقق، (ط٢، مكتبة الداوري: قم، د. ت).
ـ المقدادي: فؤاد كاظم.
٧١ـ الاسلام وشبهات المستشرقين، مجمع الثقلين العلمي، ط ٢، المعارف، بغداد، ١٤٢٥ هـ.
ـ المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ت (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
٧٢ـ إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع. تح: محمد عبد الحميد النميسي (ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م).
ـ ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي ت ٧١١ هـ.
٧٣ـ لسان العرب، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ هـ.
ـ المنقري: نصر بن مزاحم ت ٢١٢ هـ.
٧٤ـ وقعة صفين، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، ط٢، القاهرة، ١٣٨٢ هـ.
ـ ناجي: عبد الجبار.
٧٥ـ الاستشراق في التاريخ، ط ١، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣.
٧٦ـ التشيع والاستشراق (ط١، المركز الأكاديمي للأبحاث: بغداد ـــ العراق١٤٣٣هـ/ ٢٠١١م).
ـ النجاشي: أبو العباس أحمد بن علي ت (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).
٧٧ـ رجال النجاشي، تح: موسى الشبري الزنجاني (ط٥، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين: قم، ١٩٩٥م).
ـ نصر: ولي.
٧٨ـ الانبعاث الشيعي، تعريب: مختار الأسدي، ط١، دار الكتب العراقية، بيروت، ١٤٣٢هـ.
ـ نقاش: إسحاق.
٧٩ـ شيعة العراق، ترجمة: عبد الإله النعيمي، (ط١، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦م).
ـ ابن نما الحلي: نجم الدين محمد بن جعفر ت (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م).
٨٠ـ مثير الأحزان. (ط١، منشورات المطبعة الحيدرية: النجف ـــ العراق ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م).
ـ هانغسون السويدى: يان. أ. (jan. a.

(henningsson).

٨١ــ الحسين حلقة وصل بين المسيحين والمسلمين، منشور في دائرة المعارف الحسينية، (ديوان القرن الرابع) الجزء الأول، ينظر:

www. alhassanain. com /arabic /articles /articles

ـ هاينس: هالم.

٨٢ـ الشيعة. ترجمة: محمود كبيبو (ط١، دار الوراق للنشر: بغداد ـ العراق، ٢٠١١م).

ـ ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري. ت (٢١٨هـ/ ٨٣٣م).

٨٣ـ السيرة النبوية. تحقيق وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد (ط١، مكتبة محمد علي صبيح: مصر ـــ القاهرة ١٣٨٣ه/ ١٩٦٣م).

ـ الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر. ت (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م).

٨٤ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ط١، دار الكتب العلمية: بيروت ـــ لبنان١٤٠٨ه/ ١٩٨٨م).

٨٥ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. تح: حسين سليم أسد الداراني (ط١، دار الثقافة العربية: دمشق ـــ سوريا ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

أبو يعلى الموصلي: أحمد بن علي بن المثنى التميمي. ت (٣٠٧هـ/ ٩١٩م).

٨٦ـ مسند أبي يعلى. حققه وخرج أحاديثه: حسين سليم أسد (ط١، دار المأمون للتراث: دمشق ـ سوريا د. ت).

ـ KNUTS: stijn ـ

٨٧ ـــ Lammens، Henri، Jesuit and historian of Islam.

ـ Lammens: Henri.

٨٨ ـ Le califat de Yazid Ler in Melanges de la faculte Orientale. Universite Saint ـــ Joseph، Beyrouth (Syria) ١٩١٠ ـ ١٩٢٢.

٨٩ ـــ http: //www. kaowarsom. be /nl /notices_Lammens_Henri

محمد صادق الهاشمي
باحث وكاتب ومدير مركز دراسات

الاحتلال البريطاني للعراق وجهاد المراجع والحوزات العلمية في النجف الاشرف وثورة العشرين

المقدّمة

احتلّ البريطانيون العراق منذ عام ١٩١٤ م، بعد أنْ أدركوا عبر نفوذهم وقوّاتهم التجسسية أنّ الامبراطورية العثمانية تتجه إلى الاضمحلال والتراجع، لذلك سعوا مبكّراً إلى احتلال العراق والسيطرة عليه، وفرض الهيمنة الغربية في المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية، واستغلال النفوذ والموقع الاستراتيجي الجيوبوليتيكية والجغرافي له، وقد فرض هذا الاحتلال وجوداً وآثاراً على الحكم في العراق تجعل من الضروري التعرّض له؛ لأنه مرتبطٌ بتاريخنا، ومتصل بواقعِنا، إذْ للاحتلال آثارٌ كبيرةٌ في البنية الاجتماعية والسياسية العراقية عبر القرن العشرين وإلى الآن الا ان

المهم في الامر ان الحوزات العلمية ومراجع الشيعة لم يقفوا مكتوفي الايدي بل كانت لهم الوقفة الشريفة والمقاومة الواضحة من الاحتلال البريطاني وفي هذا البحث نستعرض جزء من تاريخ المقاومة في العراق والذي يشهد له التاريخ وهو منهج الحوزات العلمية للوقوف بوجه الاحتلال والطغيان والاستكبار.

اولا: أسباب ومقدّمات الاحتلال البريطانيّ إلى العراق

يعتبر التفكير البريطاني باحتلال العراق مبكّراً، منذ أنْ شعرت بريطانيا بضعف العثمانيين في العراق والعالم، وهذا التفكير كان منذ أنْ علمت الشركة البريطانية الكبرى في المنطقة، فقد رسمت أهدافاً سياسية واستراتيجية تحت غطاء التجارة، فقد تأسست شركة الهند الشرقية (١٦٠٠ - ١٨٥٨)، أو شركة (جون)، وهي شركة تشكّلت لمزاولة التجارة مع جزر الهند، وامتدت إلى الصين وأُوربا، قام تجّار لندن التابعين للحكومة بتأسيسها في نهاية القرن السابع عشر، ثمّ اندمجت الشركتان في عام ١٧٠٨م وسمّيتا باسم (شركة الهند الشرقية).

وقيل: إنّ التأسيس بدأ منذ عام ١ يونيو ١٦٠٠ بعد أنْ استقرّت الشركة في الخليج وأخذت تفكّر في التمدد نحو العراق هذه الشركة والتي تدار من المخابرات البريطانية هي من مهدت فكرة احتلال العراق عام ١٩١٤ والتي امتدت الى عهود لاحقة.

ثانيا: اسباب اهتمام البريطانيين بالعراق

يأتي اهتمام البريطانيين بالعراق لأسباب متعددة:

١ـ جعل العراق سوقاً لتصريف البضائع والمنتوجات البريطانية.

٢ـ جعل العراق ممرّاً للبضائع البريطانية الى اوربا وتوريد البضائع البريطانية الى اسيا عبر العراق على

غرار خطّ الحرير.

٣ـ التنقيب عن الطاقة والنفط.

٤ـ رعاية وتوسيع دور الشركات البريطانية التي بلغت ١٦ شركة تعمل في المنطقة، والعراق خصوصا البصرة.

٥ـ الوقوف بوجه العثمانيين، والمنافسين الآخرين كالبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين خصوصا بعد ان علمت الحكومة البريطانية بافول نجم الدولة العثمانية وضعفها وتفككها.

٦ـ استخدام نهري دجلة والفرات لنقل البضائع البريطانية.

٧ـ موقع العراق وأهمّيته الاستراتيجية لبريطانيا اقتصادياً وأمنيا وحتى ثقافيا.

٨ـ الرغبة في تأسيس خطوط المواصلات بين البحر المتوسط والخليج.

٩ـ اليات ودوافع احتلال العراق: كثرة حركة الاستشراق والجواسيس، وأبرز الجواسيس الذين تحرّكوا في العراق هم (المس بيل)، وكان لهذه الحركة الأثر الكبير قبل وبعد دخول القوّات البريطانية إلى العراق، وقد سبقها جواسيس متعددون في العراق والمنطقة، منهم (ماسينيون الفرنسي)، ومنهم (لورنس العرب)، ومنهم (جون فيلبي)، مؤسس السعودية، (وداوتي) (١٨٤٣-١٩٢٦)
(وبورتون) و (بلنت غارث). وهذه الحركات كان هدفها ضرب الاسلام واستضعاف المسلمين ونشر المسيحية والافكار الغربية والتمهيد لقيام اسرائيل الكيان الصهيوني. ولأهمّية موقع العراق في العالم الإسلاميّ والعربيّ، ولأنّ البريطانيين يفكّرون في مواجهة الفكر الاسلاميّ، وتطويق المسلمين، وإضعاف الحوزات العلمية، ومنع حركة التحرر، والقضاء على انتشار الفكر الإسلاميّ.

١٠ـ استعداد البريطانيين المبكّر لإقامة الكيان الصهيونيّ على أرض فلسطين، جعلهم يمهدّون إلى السيطرة على المنطقة، ومنها العراق

لبسط نفوذهم، وتأسيس الكيان الصهيونيّ الإسرائيليّ.

١١ـ لتوسيع مساحة المستعمرات البريطانية، إذْ العراق يقع في قلب الهلال الخصيب الذي يشكّل أحد أجزاء غرب آسيا.

١٢ـ ولأهمّية العراق اقتصادياً إذْ أنّ دراساتهم تفيد أنه غني بالزراعة والمياه والثروات.

١٣ـ التذّمر الكبير الذي يعيشه الشعب العراقيّ من الاحتلال العثمانيّ الذي امتدّ إلى أربعة قرون، عاش فيها الشعب العراقيّ سنوات التخلّف والجهل والفقر والحرمان، وقد حصلت حروب بين الأهالي والعثمانيين.

ثالثاً: الظروف الاجتماعية والاقتصادية للشعب العراق خلال الاحتلال العثماني

شهد العراق خلال فترة الاحتلال العثمانيّ ظهور الطبقية والبرجوازية، وقد كانت سيطرة العثمانيين في مراحل الاحتلال الأخيرة فقط على المدن الكبيرة (بغداد والموصل والبصرة)، أمّا باقي المناطق فوقعت تحت سيطرة القبائل، وكثيراً ما كانت تلك القبائل تثور ضدّ العثمانيين بسبب الضرائب التي يفرضها العثمانيون، وقد سجّل التاريخ ثورةَ عشائر (بني لام) في الجنوب، و (شمّر)، و (عنزة)، و (زبيد)، في الأنبار والفرات الأوسط.

وحاصر العثمانيون بغداد عام (١٨٣١ - ١٨٤٢) بسبب الثورات الشعبية، ولذلك كانت المدّة بين (١٨٣٦ إلى ١٨٥٠) تمثّل مراحل الضعف العثمانيّ، ونشأت اتحادات عشائرية ضدّ العثمانيين منها (اتحاد قبائل الخزاعل) في الفرات الأوسط، وتوزّعت تلك القبائل المناطق والنفوذ ممّا اضطر (مدحت باشا) إلى توزيع الأراضي على القبائل، وتمّ استحداث نظام التسجيل العقاري (الطابو)؛ لأجل السيطرة عليهم، وتسهيل مهمّة الدولة في جمع الضرائب، ثمّ تجنيد

الأفراد، ومع هذا استمرّت ثورة العشائر، وآخرها ثورة أهالي كربلاء، وثورة الدغارة، عام (١٨٧٠) بسبب تفشّي الرشوة.

أمّا في العاصمة فكثرت المجاعات والأمراض والأوبئة ونقص الغذاء، والحال نفسه في المدن ممّا جعلها تنقسم كما في النجف إثر الخلافات بين عشيرة الزكرت والشمرت عام ١٨١٥ زمن (سعيد باشا)، واستمرّ النزاع إلى عام ١٩٢١.

رابعاً: مقاومة الشعب العراقيّ الاحتلال البريطانيّ ودورهم في ثورة العشرين

١_ الثورات الشعبية التي امتدت منذ عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٩.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى نجحت بريطانيا في بسط نفوذها على العديد من الدول الإسلامية ومنها العراق.

وقد تقدّمت قوّة عسكرية بريطانية، وقامت باحتلال البصرة في ٥ تشرين الأوّل ١٩١٤م، ولم تقف الحوزة العلمية في النجف، ولا الشعب العراقيّ مكتوفي الأيدي فقد بدأت حركة الجهاد بتاريخ ٩تشرين الثاني ١٩١٤ استجابةً لفتاوي وتوجيهات المرجعية في النجف الأشرف، ولأنّ أهالي مدينة البصرة أرسلوا الرسائل والبرقيات إلى مراجع النجف مطالبين بتحديد الموقف الشرعيّ.

والمؤكّد أنّ المقاومة التي انطلقت في العراق ضدّ الانكليز هي ذات طابع إسلاميّ، ولم تتمّ التعبئة فقط من خلال المفاهيم الوطنية.

وفي فجر يوم ٢٠ كانون الثاني ١٩١٤ تحرّكت القوّات البريطانية متجهة إلى مدينة (الروطة) ثمّ مدينة (مزيرعة)، وهناك حصلت الاشتباكات، وتشكّلت ثلاث قوّات مقاومة وهي:

(أ). محور الشعيبة.

(ب). محور القرنة.

(ج). محور خوزستان.

واعتُبرت منطقة (القرنة) هي القلب، يقودها (السيّد محمّد مهدي الحيدري) ومعه أولاده، وتضمن محور القرنة عدداً كبيراً من العلماء والجنود الذين يبلغ عددهم أربعين ألف مقاتل. أمّا جناح (الشعيبة) فكان يشرف عليه (السيّد محمّد سعيد الحبوبي)، و (السيّد محسن الحكيم). أمّا جناح (الحويزة) فقد كان يشرف عليه (الشيخ مهدي الخالصيّ). ودارت معركة (الروطة) التي حقق فيها المقاوم العراقيّ انتصاراتٍ، ثمّ تلتها معركة (الغدير) التي قادها (الشيخ الجزائريّ)، وتخلّف عنها (خزعل الكعبيّ)، وأيضاً دارت معركة (الشعيبة) بقيادة (محمّد سعيد الحبوبيّ).

واستمرّت الثورات إلى أنْ حصلت ثورةٌ في الكوت عام ١٩١٥ لمواجهة قوّات (طونزند) البريطانية التي كانت تزحف نحو الكوت، وقد شارك في المعركة السيّد (محمّد بن كاظم اليزدي)، والشيخ (محمّد جواد الجزائريّ)، و (الشيخ فتح الله الأصفهانيّ).

ثمّ ثورة النجف الأشرف بعد دخول القوّات البريطانية إلى الكوفة بتاريخ ١٩١٧م، بقيادة عدد من العلماء، منهم (محمّد علي بحر العلوم)، و (الشيخ عبّاس الخليليّ)، وكانت ثورة النجف بقيادة العلماء الذين يتحرّكون بتوجيهات جميعة أُسست لهذا الغرض، وهي (جمعية النهضة الاسلامية)، وكانت ثورة النجف عبارة عن مواجهات انتهت بإغتيال القائد الانكليزي، وكانت ردّة فعل البريطانيين القيام بإعدام مجموعة من الثوّار ونفي آخرين.

٢_ ثورة العشرين آثارها ونتائجها:

تعتبر كُلّ الأحداث التي مرّت في البصرة وواسط والكوفة والنجف مقدّمات للثورة العراقية الكبرى، وهي ثورة العشرين، فبعد أنْ استقرّ

الوضع في العراق لصالح القوّات البريطانية، وبسطت نفوذها على العراق، وخصوصا بغداد، وفي فجر ١١اذار عام ١٩١٧ بقيادة القائد العسكري (مود).

مع أنّ هذا الرجل قد أذاع بياناً طمأن فيه المجتمع العراقي بأنّ البريطانيين محررون، وليسوا بفاتحين، إلّا أنّهم مارسوا الظلم وأخذ الضرائب حتّى على الموتى، ومن دوائر الدولة، فضلا عن الاغتيالات والاعتقالات والخطف، والاعتداء على الاهالي، ويمكن تقسيم التحرّك الثوريّ ضدّ بريطانيا، وخلق مقدمات ثورة العشرين على شكل نقاط:

أ- في بدايات عام ١٩٢٠ عقد بعض العلماء وشيوخ العشائر اجتماعاً موسّعاً أكّدوا فيه على الثورة ضدّ الانكليز كواجبٍ وطني، وشرعيّ يكون استجابة لفتاوي المرجعية.

ب- وفي نفس العام قصد شيوخ العشائر من الفرات الأوسط النجف في ١٥ شعبان والتقوا المرجع الكبير (محمّد تقي الشيرازيّ)، وطلبوا منه اصدار فتوى الجهاد.

ت- في ليلة ١٦ شعبان ١٣٣٨ هـ من نفس السنة حصل اجتماع ضمّ العلماء والوجهاء وشيوخ العشائر في النجف الأشرف في بيت (نور الياسري) لمناقشة أمور البلاد وطرح فكرة الثورة والجهاد.

ث- من أبرز العلماء والمراجع الذين تصدّوا لإدارة الأحداث هما (المرجع الشيرازيّ)، و (شيخ الشريعة الأصفهانيّ).

ج- أجمعت المصادر أنّ الشرارة الأولي لثورة العشرين في ١٥ شعبان، وبفتوى (آية الله الشيرازي)، وانطلقت التظاهرات في صحن الامام الحسين عليه السلام واخيه ابي الفضل العباس بعدها طوقت القوات البريطانية الصحن وطلب (الشيرازيّ) حقنا للدماء أنْ يُسلّم الثوار أنفسهم، ومنهم ولده (محمّد رضا)، ولكن

الحكومة البريطانيّة لم تفِ بوعودها، فتمّ تهجير العلماء.

ح- تنقل المصادر أنّ هناك مجلسين تمّ تشكيلهما من النجف الأشرف لقيادة الثورة وهما: بقيادة عدد من العلماء هم (هبة الدين الشهرستاني)، و (أبو القاسم الكاشانيّ)، والنجل الثاني للمرجع الشيرازيّ.

خ- المجلس العسكري من أعيان ووجهاء وشيوخ قبائل العراق، وقد تولّى الإشراف على المجلسين: (آية الله المرجع محمّد تقي الشيرازي)، وفي النجف الأشرف بعد وفاة الشيرازي تولّى (آية الله شيخ الشريعة) منصب المرجعية، وبما أنّ النجف هي عاصمة الثورة فقد كانت القبائل تقصدها، وتنظّم أمورها من خلال المجالس المذكورة.

د- كان الميجر (بولي) يتولّى قيادة القوّات البريطانية في الفرات الأوسط، وقد مارس القساوة ضدّ سكان النجف، فنفي العلماء، وحينها أصدر الشيرازي الفتوى الجهادية ونصّها: «المطالبة بالحقوق واجبةٌ على العراقيين، ويجب عليهم ضمن مطالبهم بالحقوق رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسّل بالقوّة الدفاعية إذا امتنع الانكليز عن الاستجابة لمطالبهم»، هذه الفتوى صدرت في ٢٠ حزيران عام ١٩٢٠.

وبهذا انطلقت شرارة الثورة، وكانت من الرميثة بقيادة الشيخ (شعلان أبو الجون) منطلق الشرارة الأولى، وامتدّت إلى الفرات الأوسط وعموم العراق، وكانت العشائر العراقية بقيادة المراجع يؤدّون واجبهم الجهاديّ بمنتهي الشجاعة استجابة للفريضة الجهادية الدفاعية التي أصدرها الشيرازي.

خامساً: نتائج ثورة العشرين

١. النتائج السياسية

ومن نتائج ثورة العشرين السياسيّة تأسيس الدولة العراقية الجديدة بقيادة عراقية وعربية وإسلامية، وقد رسّخ

في أعماق الوعي العام أن العلماء هم يقودون حركات التحرر، ولا يُقبل - بحكم الشريعة الاسلامية - بأنْ يمسّ الكافرون أرضه وعرضه، ولقاعدة نفي السبيل المستفادة من قوله تعالى: ﴿... وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. ومن هنا يمكن أنْ نقول: إنّ تاريخ العراق والحوزات والمراجع سنّةً وشيعة كان حافلاً بالمواجهات مع الاحتلال، ومدافعاً عن السيادة. ومن نتائج الثورة هو انتقال الحكم في العراق من الحكم البريطانيّ المباشر إلى نقل السيادة ولو شكلياً إلى العراقيين.

٢: النتائج الاجتماعية

هو شعور الفرد العراقيّ بأنه امتلك نوعا ما زمام إدارة الحكم في العراق، ودخول الوجهاء ورجال الفكر والسياسة والعلماء لرسم عهد ما بعد الاحتلال العسكريّ والانتقال بالعراق من عهد الاحتلال العسكري إلى تحقيق مساحة من السيادة السياسية على الأرض.

٣: النتائج الثقافية

تعتبر ثورة العشرين التي اشترك فيها الشعب العراقي وبقيادة العلماء والمراجع قد منحت الشعب العراقي وسام شرف المقاومة والجهاد ضدّ الاحتلال، ويبقي الشعب العراقي مرفوع الرأس، كلّما تذكّر أنه رفع لواء الجهاد ضدّ الاحتلال البريطانيّ منذ عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٠ هذا في الجانب الجهادي المسلّح، وتعتبر الفترة اللاحقة هي الجهاد السياسيّ وقد ترسّخت في ثقافته منهج الثورة والتحرر والدفاع عن الأوطان وعدم الرضوخ للاحتلال.

٤: النتائج الاقتصادية والمؤسساتية

اتخذت الحكومة آنذاك فكرة تشكيل الحكم والحكومة وانشاء المؤسسات والوزارات، ومنها انطلقت

إلى القيام ببعض الأعمال الاقتصادية، منها بناء سكك القطار عام ١٩١٦م، ثمّ بناء المصانع، وتقديم بعض الخدمات والسعي إلى كتابة الدستور، وتأسيس الجيش العراقيّ وغيرها من الموسسات التي يعتبر وجودها تأسيسا للدولة العراقية، ثمّ تمّ اكتشاف النفط في العراق، وكان الحقل الأوّل هو في كركوك عام ١٩٢٧ م، وإنْ كانت هناك مقدّمات استخراجية محدودة، وفي عام ١٩١٢ تمّ اكتشاف نفط في حقل (بابا كركر) ثمّ توسّعت الحركة التجارية، وبدأت النهضة الصناعية، وتطوّر القطّاع الزراعي.

الخلاصات:

١. إنّ العراق مَرّ باحتلالين اولهما العثمانيّ، ثمّ تلاه البريطانيّ.

٢. لم يقف الشعب مكتوف الأيدي، بل قام بالثورات وبقيادة المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف.

٣. انتقال الحكم من الحكم البريطاني المباشر إلى الحكم البريطانيّ غير المباشر.

٤. تأسيس الدولة العراقية على يد أوّل حكومة، وهي حكومة النقيب.

المصادر

١ـ جعفر عباس حميدي، التطورات السياسية في العراق، ١٩٨٠.

٢- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العرقية ج١.

٣ـ د. ماري پاترك، سلاطين بني عثمان، ١٩٨٦.

٤ـ د. چارلس تريب، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، ٢٠٠٢.

٥ـ د. مؤيد الونداوي، العراق في التقارير السنوية للسفارة البريطانية. ١٩٩٢.

٦ـ عبد الوهاب بيك النعيمي، مراسلات تأسيس العراق، ١٩٢٠ - ١٩٢٢.

٧ـ كامل الجادرجي، مذكرات كامل الجادرجي، ١٩٧٠.

٨ـ فاروق صالح العمر، المعاهدات العراقية - البريطانية.

غلام رضا أباذري
المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في العراق

الموكب

المدخل

البحث يقع في فصولٍ، وهو بحث يعتمد على الرصد والتواجد الميدانيّ، والمتابعة وتسجيل الأحداث، بتسلسل تاريخيّ، ومشاهدة ومعايشة مستمرّة، ومتابعة الوقائع، وتحليل المواقف في الغالب؛ كون الحدث يحتاج بطبيعته إلى فهمٍ وتواجدٍ ميدانيّ، ورصد ومتابعة أكثر ممّا يحتاج إلى المصادر والكتب، مع أنها موجودة حسب اقتضاء الحاجة لها، ومن هنا فإنّ هذا البحث كلّفنا متابعاتٍ استمرّت لسنوات عديدة.

ونحن في هذا البحث لسنا بصدد إثبات الأحقية التاريخية والمشروعية لتلك الزيارة والشعائر، وإثبات صحّة حركة الأمّة وما تقوم به من تضحيات عبر المواكب، بقدر ما نحن نرصد تلك الحركة، ونسجّل أهمّ قيمها، بعد أنْ أصبحت واقعاً يعيش في ميدانِ وضمير الأمّة، وانطلاقا من إيمانها بمشروعيتها وشرعيتها.

هذا الشعب الذي تحدّى الصعاب، وركب المخاطر، ووقف على هام

الزمن، واعتلى منصّة المجد، ولم يثنه الموت، ولم يخترِ السكونَ، ورفع شعار: «هيهات منا الذلّة»، وسار موكبه عبر التاريخ، فلا يمكن أنْ نتحدّث إلّا عن مدرسته التي تُعَدّ من مفاخر المدارس والقيم، وأنْ نرصد حركته، ونستلهم منها العبر. ففي تاريخ العراق يتمّ الحديث عن موكبين: الموكب الذي نحن بصدده، وهو مواكب الخدمة الحسينية. والثاني هو مواكب الفخر، فالعراق موكب من التضحيات والجهاد و العطاء.

نؤكّد على أنّنا في هذه المساهمة البحثية ركّزنا على الجوانب المهمّة والمتعارفة التي تشكّل محلّ اعتزاز الجميع، وتبرز العمق المعنويّ الولائيّ لدى الشعب العراقيّ؛ لأنّ هذا الكتاب وحسب الإمكان قد يترجم إلى لغات أخرى، وبهذا سيكون شهادةً أمام الشعوب عن الشعب العراقيّ الذي تجسّدت شخصيته الراقية بالمواكب. ونأمل من الله التوفيق.

تعريف الموكب:

(لغةً): مَوكِب: اسم الجمع: مواكِبُ والمَوْكِبُ: رُكَّابُ الإبل للزِّينة، والمَوْكِبُ: الجماعةُ من النَّاس يسيرون رُكبانًا ومُشاةً في زينة أو احتفال، ويقال: وكبَ الظبي اي أسرع، ومنه المواكب، وهم الجماعة من الناس ركبانا أو مشاة يسيرون برفق لهدفٍ واحدٍ، ويمكن أنْ يكون مسيرهم للتنزّه أو الترحال، ويقال: ظبيةٌ وكوبٌ أي ملازمة لسربها.

الموكب (اصطلاحا): هو جماعة من الناس تشكّلُ مسيرةً أو تظاهرةً اجتماعيةً معيّنةً ذات هدف مشتركٍ، وهو خدمة آل البيت عليهم السلام، والولاء للإمام الحسين عليه السلام.

استحباب الزيارة الأربعينية أو المشي إلى كربلاء

البحث في استحباب الزيارة

الأربعينية والمشي لزيارة الحسين عليه السلام بنحو خاصّ مرتبطٌ ارتباطا وثيقا في موضوع المواكب؛ كون المواكب وان كانت بذاتها تمثّل لونا من ألوان العزاء، إلا أنها توسّعت لخدمة الزوّار المشاة عبر التاريخ، فهي الآن لخدمة الزوّار في الجانب الأغلب منها، وإنْ كانت تحمل صفة العزاء بذاتها.

والمواكب ظاهرة عزاء وولاء مرتبطة بحركة المجتمعات التي تعزي الإمام الحسين عليه السلام بيوم استشهاده، وتتعزز ظاهرة المواكب اتساعاً في الزيارة الأربعينية في اليوم العشرين من شهر صفر في كلّ عام، بتوسع وكثرة عدد الزوّار، وبما أننا ندرس حركة المواكب فمن الطبيعيّ أنْ نتعرّض إلى أهمّية الزيارة الأربعينية، وسندها التاريخيّ الروائيّ، وهكذا ظاهرة المشي إلى كربلاء المقدسة.

بما أنّ المواكب هي حركةُ عزاءٍ، وهي مأتم لإحياء ذكري الإمام الحسين عليه السلام، فهي بلا إشكالٍ تكون قد انطلقت منذ استشهاده عليه السلام، وربّما قبل هذا التاريخ، وهذا مايؤيّده الشاهد الروائي؛ فإنّ العلّامة الأميني قد أحصى عشرين مأتما أقامها النبيّ، على سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

ومنذ أنْ سقط دم الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه يرفعون راية الرفض بوجه الظلم، وقد أصبحت كربلاء قبلة النفوس، ومهوى للأفئدة.

ورُوِيَ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ خَمْسٌ: صَلَاةُ الْإِحْدَى وَالْخَمْسِينَ، وَزِيَارَةُ الأربعين، وَالتَّخَتُّمُ فِي الْيَمِينِ، وَتَعْفِيرُ الْجَبِينِ، وَالْجَهْرُ بِـ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)»[1].

كما أنّ هناك رواياتٍ متعددةٍ معتبرةٍ تحثّ على المشي إلى مرقد الإمام الحسين عليه السلام. فقد روى العيّاشيّ في تفسيره عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعِجْلِيِّ،

قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ قَادِمٌ مِنْ خُرَاسَانَ مَاشِياً، فَأَخْرَجَ رِجْلَيْهِ وَقَدْ تَغَلَّفَتَا، وَقَالَ: أَمَا وَاللهِ مَا جَاءَ بِي مِنْ حَيْثُ جِئْتُ إِلَّا حُبُّكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ. فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: وَاللهِ لَوْ أَحَبَّنَا حَجَرٌ حَشَرَهُ اللهُ مَعَنَا، وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٢]، وَقَالَ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[٣] وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ[٤].

وفي زيارة أمير المؤمنين عليه السلام (مشيا) في كتاب «فرحة الغري» عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الصَّيْرَفِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: مَنْ زَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَاشِياً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِ خُطْوَةٍ حِجَّةً وَعُمْرَةً، فَإِنْ رَجَعَ مَاشِياً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِ خُطْوَةٍ حِجَّتَيْنِ وَعُمْرَتَيْنِ[٥].

وعن الْحُسَيْنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَخِيهِ جَعْفَرٍ، عَنْ رِجَالِهِ يَرْفَعُهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عليه السلام وَقَدْ ذُكِرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَقَالَ ابْنُ مَارِدٍ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: مَا لِمَنْ زَارَ جَدَّكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ مَارِدٍ، مَنْ زَارَ جَدِّي عَارِفاً بِحَقِّهِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَجَّةً مَقْبُولَةً، وَعُمْرَةً مَبْرُورَةً، وَاللهِ يَا ابْنَ مَارِدٍ مَا يُطْعِمُ اللهُ النَّارَ قَدَماً اغْبَرَّتْ فِي زِيَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام ماشِياً كَانَ أَوْ رَاكِباً، يَا ابْنَ مَارِدٍ اكْتُبْ هَذَا الْحَدِيثَ بِمَاءِ الذَّهَبِ[٦].

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ مَيْمُونٍ الصَّائِغِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: يَاعَلِيُّ زُرِ الْحُسَيْنَ وَلَاتَدَعْهُ. قَالَ: قُلْتُ: مَا لِمَنْ أَتَاهُ مِنَ الثَّوَابِ؟ قَالَ: مَنْ أَتَاهُ مَاشِياً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةً، وَمَحَى عَنْهُ سَيِّئَةً، وَرَفَعَ لَهُ دَرَجَةً، فَإِذَا أَتَاهُ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكَيْنِ يَكْتُبَانِ مَاخَرَجَ مِنْ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ، وَلَا يَكْتُبَانِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ مِنْ شَرٍّ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَإِذَا انْصَرَفَ وَدَّعُوهُ وَقَالُوا: يَا وَلِيَّ اللهِ

مَغْفُوراً لَكَ، أَنْتَ مِنْ حِزْبِ اللهِ، وَحِزْبِ رَسُولِهِ، وَحِزْبِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِهِ، وَاللهِ لَا تَرَى النَّارَ بِعَيْنِكَ أَبَداً، وَلَا تَرَاكَ وَلَا تَطْعَمُكَ أَبَداً[٧].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: مَنْ زَارَ الْحُسَيْنَ عليه السلام مِنْ شِيعَتِنَا لَمْ يَرْجِعْ حتّى يُغْفَرَ لَهُ كُلُّ ذَنْبٍ، ويُكْتَبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاهَا، وكُلِّ يَدٍ رَفَعَتْهَا دَابَّتُهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَ عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةٍ، وتُرْفَعُ لَهُ أَلْفُ دَرَجَةٍ[٨].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْقَاضِي، قَالَ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فِي غُرَيْفَةٍ لَهُ، وعِنْدَهُ مُرَازِمٌ، فَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: مَنْ أَتَى قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام مَاشِياً كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ وبِكُلِّ قَدَمٍ يَرْفَعُهَا ويَضَعُهَا عِتْقَ رَقَبَةٍ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ، ومَنْ أَتَاهُ بِسَفِينَةٍ فَكَفَتْ بِهِمْ سَفِينَتُهُ مْنَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ طِبْتُمْ وطَابَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ[٩].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ النَّجَّارِ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: تَزُورُونَ الْحُسَيْنَ عليه السلام وتَرْكَبُونَ السُّفُنَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا إِذَا انْكَفَتْ بِكُمْ نُودِيتُمْ أَلَا طِبْتُمْ، وطَابَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ[١٠].

وبهذا اللحاظ بعدما شجّع ائمّتنا عليهم السلام المشي لأهداف كبيرة منها إعلان الولاء، وخلق ظاهرة التواجد الموالي في الساحات والميادين، فمن الطبيعي بعد تلبية المؤمنين الواسعة يحتاج هؤلاء إلى الخدمات والعون، وهذا هو الجانب الذي تتكفّله المواكب، وقطعا أنّها تتسع باتساعه.

وعبر التاريخ الجهاديّ الولائيّ للشيعة، ترسخّت تلك الشعيرة والعادات الإسلامية وظهرت بقوّة، وأصبحت هي المظهر الكبير لأيّام عاشوراء وصفر، وخصوصا الزيارة الأربعينية، فضلا عن تشجيع العلماء والمراجع لها، ودعمهم لها بالتوجيه

والارشاد والتعميق الفكريّ، وإلى هذا يقول المرجع الراحل محمّد سعيد الحكيم:.. ويزيد في أهمّية فعاليات الجمهور والسواد الأعظم مع كثرتهم وسعة رقعة تواجدهم واختيارهم في التعبير عن شعورهم الطريقة الأكثر إلفاتا للحديث، والأقوى وقعاً في التنبيه له كُلّ ذلك يجعل ممارساتهم سبباً لتبدل الجوّ في المجتمع الذي يعيشون فيه، وتحويل صورته لصالح الحدث... وبذلك تترك الممارسات المذكورة – الشعائر – بصماتها في المجتمع، وتجعله يعيش الحدث، ويتفاعل معه حتّى يكون جزءا من كيانه[١١].

تاريخ نشأة المواكب وتطوّرها التاريخيّ

انطلقت الشعائر الولائية منذ بواكير الأحداث التي تلت واقعة الطف، والتي مثّلت انعكاساً لرفض الظلم والاستبداد، وامتداداً لتلك الثورة، وبقيت الدفقات الولائية التي تطلقها هذه الشعائر هي التي تعطي للثورة روح التواصل بينها وبين الأجيال، وتصوّر المفاهيم التي ثار من أجلها الإمام الحسين عليه السلام بصورة حيّة تمتد مع الأجيال، وتسافر عبر الزمن، وتخترق جدران الخوف والتعتيم، وصارت الجماهير على امتداد التاريخ تزحف في يوم عاشوراء إلى كربلاء لتجدد البيعة مع الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنها وجدت فيه أباً للأحرار، ورمزاً للثوّار، وبه تشحذ هممها لتحقيق ثورتها ضدّ الباطل.

وقد اكتسبت الشعائر الحسينية ديمومتها ممّا ورد عن النبيّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام قَالَ نَظَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام هُوَ مُقْبِلٌ فَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ، وَقَالَ: إِنَّ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ حَرَارَةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَبْرُدُ أَبَداً، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: بِأَبِي قَتِيلُ كُلِّ عَبْرَةٍ، قِيلَ: ومَا قَتِيلُ كُلِّ عَبْرَةٍ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ؟ قَالَ: لَا يَذْكُرُهُ مُؤْمِنٌ إِلَّا بَكَى[١٢].

أدوار العزاء الحسينيّ:

١. إقامة المجالس في الساعات الأولى لشهادة الإمام، وزمن الأئمّة:

وتشير المصادر التاريخية إلى أنّ نشأة الشعائر الحسينية تعود إلى الساعات الأولى بعد استشهاده عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بنحو عملي بعد ما أشرنا إلى أنّ النبيّ، صدرت منه الإشارات والمواقف بهذا الصدد، فقد نصّت المقاتل والتواريخ على إقامة النوائح من قبل نساء الحسين عليه السلام بعد استشهاده في ساحة المعركة، وفي الكوفة، وفي المدينة، والشام، كما كان بعض الشيعة من أهل الكوفة يجتمعون حول قبر الحسين عليه السلام بالبكاء والنحيب وإنشاد الأشعار الرثائيّة، وكانت قلوبهم تحترق لما جرى عليه عليه السلام ويستشعرون الندم لذلك، حتّى انبعثت عندهم فكرة الثورة ضدّ السلطة الأموية الجائرة، وهم الذين عرفوا بـ(التوابين)، وكان أبرزهم سليمان بن صرد الخزاعيّ، والمسيّب بن نجية، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزديّ، ورفاعة بن شداد.

وتذهب أغلب المصادر التاريخية أنّ المواكب الحسينية قد جرى تأسيسها بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فكان أوّل مأتم أقيم بكربلاء في الليلة الحادية عشرة من محرّم، مباشرة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، برعاية ابنه الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وبحضور أهل بيته ونساء أصحابه بكربلاء.

وقام الإمام علي بن الحسين عليه السلام بإلقاء أوّل خطبة في جماهير الكوفة التي ازدحمت حوله حينذاك، وتبعته السيّدة زينب وأمّ كلثوم وفاطمة الصغرى (عليهنّ السّلام).

وبعد ذلك أقيم مأتم بالشام في قصر يزيد بن معاوية عندما جيء بالسبايا إلى مجلس يزيد، فقامت هند بنت عبد الله بن عامر بن كريس،

بإقامة المأتم، رغم معارضة زوجها يزيد.

وكذلك أقيم مأتم في المدينة المنورة، بمجرد وصول خبر مقتل الحسين عليه السلام، وأخذت المآتم تتسع برعاية أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين حثّوا شيعتهم على إحياء الشعائر بمختلف الوسائل المتعارف عليها.

ومن تلك اللحظة بدأ مسلسل الندب والبكاء والحزن الذي لم ينقطع على مقتل الإمام الحسين وأهل بيته الأطهار عليهم السلام؛ فقد كانت واقعة كربلاء بدرجة من الهول والفظاعة بحيث لا تُمحى من ذاكرة أئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين توارثوها جيلاً بعد جيل، فاتخذت أشكالاً عديدة، ومظاهر دينية واجتماعية، من قبيل الحثّ على الزيارة والعزاء والبكاء وإنشاء الشعر وغير ذلك..

وبحكم الظروف التاريخية، خصوصاً في عهد الدولتين الأموية والعباسية، كادت مظاهر الندب والعزاء تختفي، وأضحت تمارس بسرّية وخفيّة من عيون الحكام.

ونلاحظ - مثلاً - أنّ الرثاء في عصر الأئمّة عليهم السلام، كان يشتمل على مدح لأهل البيت عليهم السلام، كبابٍ واسع لنشر فضائلهم ومناقبهم الحميدة، وبعد الرثاء الذي تعقبه حالة البكاء، يوجه ذمّ لممارسات السلطة الأموية الحاكمة.

وبعد ذلك برز العزاء على مصاب سيد الشهداء كظاهرة اجتماعية، وبدأت أساليب الشعائر الحسينية تتسع بالرغم من معارضة حكّام الجور لها، وقيامهم بمنع زيارة قبر الحسين عليه السلام أو رفع الإعلام السود. ويمكن ملاحظة مدى التأثير البالغ للنهضة الحسينية على معظم الثورات التي خرجت ضدّ السلطات الحاكمة حينذاك، حيث كانت تنادي بثارات الحسين عليه السلام كثورة المختار الثقفي،

وثورة التوابين، وثورة الشهيد زيد، وغيرها.

٢. المجالس الحسينيّة التي أقامها المختار (رحمه الله تعالى):

وتُعّدّ هذه الاجتماعات والنوائح والمواكب البواكير الأولى للشعائر الحسينية، فقد ذكر ابن قتيبة الدينوريّ: أنّ المختار بن أبي عبيدة الثقفيّ، كان أوّل مَنْ أقام مأتماً للإمام الحسين عليه السلام في داره بالكوفة، في يوم عاشوراء، وأرسل النادبات في شوارع الكوفة، للندب على الحسين عليه السلام، وبعدها توالت المجالس والمآتم الحسينية، فكان الشيعة في تلك السنوات يجتمعون في شهر محرّم من كُلّ عام في بيت من بيوت الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام في المدينة، أو في بيت أحد أصحابهم عليهم السلام للبكاء على الحسين عليه السلام واستذكار يومه الدامي، واستيحاء الفجيعة، حيث ينشد أحد الشعراء قصيدة في رثاء الحسين عليه السلام، وتقديم العزاء لأهل البيت عليهم السلام، وكان أبرز الشعراء في ذلك الوقت، الكميت بن زيد الأسديّ، وأبي سفيان العبديّ[١٣].

٣. العزاء الحسينيّ في زمن بني أميّة:

وكانت هذه المآتم تقام سرّاً، فقد كانت الدولة الأموية تمارس أبشع الوسائل الإرهابية بحقِّ من يقيمها، ومن يحضرها من الشيعة في جميع الأقطار الإسلامية، كما أقاموا حراسة مشدّدة حول القبر الشريف، منعاً من وفود الزوّار.

واشتدَّ هذا المنع، واتخذت إجراءات صارمة بحق الزوّار بعد ثورة زيد بن علي في الكوفة ومقتله فيها سنة (١٢١هـ) أيام هشام بن عبد الملك، فكان عقاب مَنْ يفد على قبر الإمام الحسين عليه السلام التعذيب حتّى الموت.

٤. العزاء الحسيني في زمان بني العبّاس:

لقد مرّت الشعائر الحسينية بأدوار شتى على امتداد تاريخها الطويل، وتعرّضت لظروف قاسية نتيجة السياسات المتعاقبة، فبعد اندثار الأمويين وزوال ملكهم، وجد الشيعة متنفّساً في بداية الدولة العباسية لإقامة الشعائر، فعقدوا المجالس وأقاموا المناحات وأظهروا الحزن، فالعباسيون روّجوا لدعوتهم على أساس الأخذ بالثأر للإمام الحسين عليه السلام من بني أمية، وكانت دعوتهم للرضا من آل محمّد،، فاستغلّوا نقمة المسلمين وسخطهم على الأمويين نتيجة التنكيل والقمع والإضطهاد الذي لاقوه منهم، وما أنْ اعتلوا العروش، وتسلّموا زمام الخلافة حتّى نكصوا على أعقابهم، لأنّهم وجدوا أنّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن ضدّ الأمويين وحكومة يزيد الجائرة فحسب، وإنّما كانت ضدّ كُلّ الظالمين والمستبدّين في كُلّ العصور، فأصبح اسم الحسين عليه السلام يقضُّ مضاجعهم، ويهدد مصالحهم بصورة مباشرة، وبنفس الأسلوب الذي هدد به مصالح بني أمية، فعمدوا إلى محاربة هذا الاسم بأيّ شكل من الأشكال.

فقاموا بمداهمة أيّ بيت أو مجلس يذكر فيه اسم الحسين عليه السلام والتنكيل بمن فيه، فمرّت هذه الشعائر بأقسى من الظروف السابقة، وكانت حقبة حكم المتوكّل أقسى فترة مرّت بها الشعائر الحسينية، حيث أمر بهدم قبر الحسين عليه السلام، وقطع أيدي زوّاره، وأرجلهم ورؤوسهم، ورغم كُلّ هذه الهمجية والقسوة والقمع، لم تستطع الدولة العباسية التي أوغلت في الدماء وملأت السجون أن تقمع هذه الشعائر التي هتفت باسم أبي الأحرار، واذا كان الشيعة في تلك العصور القاسية التي مرّت عليهم لم يستطيعوا أنْ يعبّروا عن حزنهم العميق/ بمأساة كربلاء تعبيراً كاملاً، فإنّ الظروف اختلفت عليهم، ومال

ميزان القوى لصالحهم فيما بعدُ.

٥. العزاء الحسينيّ في زمن البويهيين:

فقد أهلك الله تلك الحكومة، واستطاع الشيعة لأوّل مرّة إقامة العزاء بشكل كامل في بغداد، حيث خرج الناس إلى الشوارع، وأغلقت الأسواق ونصبت المآتم والمواكب، ولبس السواد، ووضعت جرار الماء لسقي الناس، ثمّ سار الناس حفاة الأقدام، حاسري الرؤوس إلى كربلاء لزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام، وكان ذلك في بغداد في يوم عاشوراء عام ٣٥٣ هـ - ٩٦٣م، في أيّام معزّ الدولة البويهي.

وخلاصة ما يكتبه التاريخ عن المواكب هو: أنّ أصل نشأة المواكب على واقعها الحالي يرجع إلى معزّ الدولة البويهي عام (٣٢٥هجري - ٩٦٣م) وكانت في العصر البويهي تشهد ظاهرة المواكب نهاراً للرجال، وليلاً للنساء، ويشهد المؤرّخون أنّ عهد البويهين كلّه كان دعماً للمواكب.

وكذلك فعل أهالي كربلاء حتّى التقوا عند قبر سيّد الشهداء، فأقاموا مواكب العزاء بشكل كامل وعلني، وصارت مراسم العزاء الحسيني عادةً تتبع سنوياً، وبقي البويهيون في السلطة مدّة (١٣٣) سنة، أي من سنة (٣٣٤) هـ إلى سنة (٤٦٧) هـ.

٦. العزاء الحسينيّ في زمان حكومة السلاجقة:

كانت إقامة هذه الشعائر تقام بحرّية تامّة، وما إنْ جاء السلاجقة (أتراك في الاصل وقيل مماليك من قفقازيا) حتّى أعلنوا الحرب على هذه الشعائر، وصار الشيعة يتخذون احتياطاتهم لإقامة العزاء الحسينيّ، وقد حكم السلاجقة مدّة (١٠٨) سنة أي من عام (٤٦٧هـ) إلى (٥٧٥هـ)، وفي عهد الناصر لدين الله الذي ولي الخلافة سنة (٥٧٥)، فقد تنفّس

الشيعة الصعداء بعض الشيء، فقد أطلق لهم الحرية في إقامة الشعائر من مآتم ومناحات.

وكانت هذه الشعائر تأخذ بالإتساع، ففي القرن السابع للهجرة دخلت قراءة مقتل الحسين عليه السلام لابن نما الحلّي، ثم للسيد أبن طاووس ضمن منهاج المجالس، وهذان المقتلان هما أوّل المقاتل التي تتحدّث تفصيلياً عن المآسي الدامية لواقعة كربلاء، وكان القرّاء يقرؤون المقتل بصوت شجي، يستدر دموع المستمعين. وما زالت تلك السنن العزائية قائمة.

٧. العزاء الحسينيّ في زمان حكومة الصفويين:

وفي عهد السلاجقة عادت على الشيعة أيام الأمويين والعباسيين في حربهم على إقامة هذه الشعائر، غير أنّ الوضع تغيّر عند مجيء الصفويين إلى السلطة، إذ أعطوا للشيعة مطلق الحرية في ممارسة شعائرهم.

وقد ظهرت بصورة أكثر وضوحا وسعة وتفاصيل في العهد الصفوي (١٥٠٢- ١٧٢٢) بدعم كبير ويمكن ان يقال ان العصر الذهبي للمواكب هو العصر الصفويّ.

٨. العزاء الحسينيّ في زمان حكومة العثمانيين:

ولكن ما إنْ استلم العثمانيون مقاليد الحكم حتّى أصدروا أوامرهم بمنع إقامة العزاء الحسينيّ، فاضطر الشيعة إلى إقامة مجالس العزاء في البيوت بصورة سرّية، بالرغم من المنع الشديد الذي فرضته على مقيمي مجالس التعزية إلّا أنها استمرّت سرّاً.

أقول: في العهد العثمانيّ تباينت المواقف بين المنع والتأييد ففي زمن الوالي علي رضا باشا (١٨٣١- ١٨٤٢) سمح للمواكب بناء علي مقابلة الشيعة له وطلبهم منه السماح بهذا الأمر فانتعشت المواكب في بغداد

والكاظمية وكربلاء والنجف وسامراء ثمّ توسعت إلى عموم العراق واستمرّت في العهد العثماني الى زمن عهد مدحت باشا (١٨١٩ - ١٨٧٢) إذ أراد منعها إلّا أنّ القيادة في اسطمبول رفضت قرار مدحت باشا لأسباب عديدة أبرزها أسباب سياسية.

٩. العزاء الحسينيّ في زمان الغزو الوهابيّ:

وحينما غزا الوهابيون مدينة كربلاء، ذلك الغزو الوحشي البربري عام ١٨٠٢، استباحوها قتلاً ونهباً وتهديماً وتحريقاً، وقاموا بحرق المرقد الشريف بعد أنْ سرقوا كُلّ ما فيه من كنوز ونفائس، وقتلوا كُلّ من وجدوه فيه، كانت صدور الشيعة موغلة جرّاء المظالم التي يتعرّضون لها، والتكتم الشديد على إقامة شعائرهم، فزاد هذا الحادث الأليم الذي أعاد مأساة كربلاء عليهم مرّة ثانية من حزنهم وغضبهم وتمسكهم بشعائرهم، فأفرغوا فيها ما أمتلئ في صدورهم من غضب في خطبهم وقصائدهم ومراثيهم، التي امتزجت بشعائر العزاء الحسينيّ والتي هي مصدر إصرار وتحدي للظلم والظالمين، فما إنْ أعاد الوهابيون الكرّة عام ١٨٠٧م، حتّى تصدّى لهم أهالي كربلاء وطردوهم بعد أنْ تحصّنوا للدفاع عن مدينتهم.

١٠. العزاء الحسينيّ في زمان حكومة الوالي علي باشا:

بعد الإطاحة بالمماليك وسقوط داود باشا، تم تعيين علي رضا والياً على بغداد، وكان هذا الوالي يميل إلى التشيّع، ويحبّ الإمام علي عليه السلام والأئمّة من ولده عليهم السلام، فسمح بإقامة العزاء الحسينيّ، الذي أخذ بالنمو والتطوّر تدريجياً في ذلك العصر، حيث كان الوالي يحضر بنفسه مجالس التعزية التي تقام في البيوت، ثمّ امتدّت إقامة

المجالس الحسينية إلى المساجد والمدارس الدينية وأضرحة الأئمّة عليهم السلام، بعد أنْ كانت مقتصرة على البيوت، وفي ذلك الوقت نشأت مواكب المسيرات الشعبية (اللطم)، وكان أوّل موكب هو للشيخ محمّد باقر أسد الله[١٤]، المتوفّي سنة (١٨٤٠م) في الكاظمية.

أمّا في كربلاء فإنّ أوّل موكب من (اللاطمين) كان بإشراف آية الله الشيخ محمّد جواد البلاغي[١٥]، وعنه أخذت وتوسّعت ووصلت إلى ما هي عليه الآن. واستمرّت مجالس التعزية وبقية الشعائر الحسينية تمارس بعد حكم الوالي علي رضا، إذ كان الولاة بعده على خطّه. وبعد ذلك جاء مدحت باشا فحاول منع هذه الشعائر، لكن محاولته باءت بالفشل.

١١. العزاء الحسينيّ القرن الماضيّ:

وفي بداية القرن الماضي كانت هذه الشعائر قد ترسّخت وأخذت طابعاً جماهيرياً، وخاصّة في المدن المقدّسة مثل النجف الأشرف، والكاظمية، وكربلاء المقدّستين. فإلى جانب مجالس التعزية أقيمت مواكب (اللطم)، وضرب السلاسل (الزنجيل)، والتشابيه - أي تمثيل واقعة الطف ومقتل الإمام الحسين عليه السلام - ويتخللها تقديم الخدمات والاطعام في سبيل الله تعالى.

أمّا في العهد البريطانيّ الملكيّ فشهدت مواقف الحكومات المتعاقبة مواقف مختلفة إلّا أنّ المهمّ هو أنّ الاحتلال البريطانيّ كان له مواقف مختلفة، ففي عام ١٩١٦م كان البريطانيون يؤيّدون المواكب ويدعمونها بالزيت والوقود للمشاعل والفوانيس إلّا أنه بعد ثورة العشرين عام ١٩٢٠م تغيّر موقف البريطانيين من المواكب؛ لأنّ الشيخ مهدي الخالصي والسيّد أبا القاسم الكاشاني حشّدا الأمّة ضدّ البريطانيين من

خلال المواكب التي انطلق من الكاظمية إلى كربلاء والنجف الأشرف وهي ترفع شعارات المطالبة بالاستقلال.

بعدها تحسنت المواقف البريطانية خصوصا بعد أنْ رفع المستر توماس الحاكم السياسيّ البريطانيّ في الشامية والنجف عام ١٩١٨-١٩٢١م تقريراً إلى الحكومة البريطانية في لندن والتي ذكرت في مذكراته (دخائل العراق) قال: «إنها ممارسات لا توجد فيها أيّ وسائل ومظاهر عنف أو وحشية أو همجية، ولم ينعدم الأمن فيها بين الناس، وإنّي توصلت في تلك اللحظة إلى أنّ جميع هذه الممارسات تدلّ على أنّ الإسلام ممتلئ بالحيوية، وأيقنت بالورع الكامن في أولئك الناس، وهؤلاء لديهم عبقرية فطرية في شؤون الدين».

بناء أوّل حسينيّة:

وتمّ بناء أوّل حسينية في كربلاء عام ١٩٠٦م، ثمّ تعددت الحسينيات بعدها، واستمرّت المواكب الحسينية خلال الإحتلال الانكليزي للعراق، وبعد تأسيس المملكة العراقيّة عام ١٩٢١م، أعلنت الحكومة العراقيّة يوم عاشوراء عطلة رسمية في عموم العراق.

ولأوّل مرّة وفي عام ١٩٢٨م حاولت السلطات منع إقامة المواكب، لكنّ الجماهير التي تعوّدت حناجرها على الهتاف (يا حسين)، كسرت طوق المنع، وخرجت المواكب لتؤكّد أنّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن مجرّد معركة بين فئتين في حقبة ماضية من الزمن، بل أنها كانت تمثّل رفضاً قاطعاً، وتحدياً لكلِّ أنواع الظلم والإستبداد، وموقفاً ثورياً أعاد إلى الإنسان كرامته المهدورة.

فكانت هذه الشعائر تزيد مبادئ الثورة رسوخاً في الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ، وتؤكّد أنّ كُلّ زمان

ومكان يحملان حسيناً ويزيداً، وهما في صراع أزليّ بين الحقّ والباطل.

وبعد سلسلة من المحاولات البائسة في العهد الملكيّ للتضييق على الشعائر الحسينية، عادت مواكب العزاء عام ١٩٥٨م إلى ممارسة هذه الشعائر وإقامة المآتم، وحينما جاء البعثيون إلى السلطة عام ١٩٦٨م أظهروا في البداية تسامحاً تجاه العزاء الحسينيّ في محاولة لاستمالة الجماهير واحتواء مشاعر الناس، لكنهم بدأوا بعدها يضيّقون الخناق تدريجياً، في محاولة دنيئة لطمس الشعائر الحسينية، وتقييد حركتها ومراقبتها، وتحديد مدّة المواكب في القيام باللطم، وكذلك تحديد مكبّرات الصوت التي تنصب في الحسينيات والمواكب للعزاء.

وقد برزت مظاهر الحزن والعزاء أكثر وضوحاً في عهد البويهيين ببغداد، والفاطميين بالقاهرة، والصفويين بإيران، وفي شمال سوريا وحلب، وأيام الدولة الحمدانية، وعصر دول آل سيف، وامتدت لعصرنا الحاضر لتنتشر المآتم والحسينيات في كافّة بقاع العالم، بأساليب مختلفة ومظاهر اجتماعية متعددة.

١٢. العزاء الحسينيّ في عصر الحمدانيين والفاطميّين:

وفي عصر الدولة الحمدانية (تأسست سنة ٣٣٨هـ) التي كانت بمثابة الثقل الشيعي الأكبر حينذاك، وتمركزت قواعدها في الموصل وسورية، خرجت المواكب العزائية كاحتفال عامّ تعطّل فيه الأسواق حداداً على مقتل الإمام الحسين عليه السلام، ثمّ في عهد الدولة الفاطمية في مصر والمغرب.

انتفاضة صفر (انتفاضة المواكب الحسينية)

من المهمّ أنْ نستعرض بنحو من التفصيل انتفاضة صفر التي عكست

جانباً مهمّاً جدّاً، وهو أنّ الشعب العراقيّ قَدَّم الكثير من التضحيات لأجل استمرار الشعائر والمواكب، وحتّى لايقال: إنّ الشيعة في العراق اهتموا بالمواكب والزيارة الأربعينية عند الرخاء بعد عام ٢٠٠٣ لذا فإنّ هذا البحث يُثبتُ أنّهم عبر التاريخ، وفي زمن صدام الدمويّ واجهوا الطاغية وأحيوا الشعيرة، فضلا عن مواقفهم التاريخية التي تمتدّ علي تاريخ العهد الأمويّ والعباسيّ، وهكذا في كُلّ مراحل التاريخ نجد أنّ شيعة العراق يقدمون التضحيات لأجل الشعائر والمجالس والمواكب، نعم لأجل أنْ نوضّح حجم تضحيات الشعب العراقيّ لابدّ أنْ نقف عند محطّة صفر التي ساهم فيها العلماء والحوزات والعشائر وأصحاب المواكب، وواجه الشيعة الطاغية ببسالةٍ منقطعةِ النظير.

في عام ١٩٧٥م منعت السلطة البعثية جميع المواكب الحسينية من القيام بشعائرها ليلة العاشر من محرّم، غير أنّ المواكب في النجف الأشرف ضربت القرار البعثيّ عرض الحائط، وخرجت بعد منتصف الليل إلى الصحن الحيدريّ الشريف لأداء مراسيم العزاء، فحصلت مواجهات مع السلطة، تمّ خلالها اعتقال عدد من المشاركين في المواكب.

وفي العشرين من صفر من العام التالي (صفر ١٩٧٦م) قامت السلطة بمنع مسيرة السير على الأقدام من النجف الأشرف إلى كربلاء لزيارة الأربعين، غير أنّ المواكب تحدّت السلطة، فخرج الآلاف وواصلوا مسيرتهم إلى كربلاء.

وفي العام التالي شددت الحكومة على منع هذه الشعيرة، غير أنّ الناس خرجوا على شكل مجموعة كبيرة وهي تهتف (يا حسين - يا حسين)، وتوسّعت هذه المجموعة بانضمام بقية الناس إليها، فتحوّلت إلى تظاهرة

جماهيرية عارمة، وهي تهتف (لو قطّعوا أرجلنا واليدين - نأتيك زحفاً سيدي يا حسين).

خلفية الأحداث:

حصلت بسبب قرار النظام البعثي الحاكم في العراق منع الشيعة من إحياء ذكرى عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه وأهل بيته في واقعة الطف وذكرى الأربعين وهو يوم مقدس لدى الشيعة - وهم الغالبية في الشعب العراقيّ - ويقام بعد مُضي أربعين يوماً على مقتل الحسين عليه السلام يحيي الشيعة هذين المناسبتين بإقامة مجالس العزاء، والسير مشياً إلى كربلاء، ونصب المواكب الحسينية لخدمة الزوّار، وتقديم المواساة والمراثي الحسينية كما هو معروف، فكان قرار منع إقامة هذه الشعائر دافعاً لهم للانتفاض ضدّ السلطة وإقامة الشعائر رغم المنع، فقام البعض بتعليق منشورات في شوارع وأزقّة النجف تدعو أهالي المدينة إلى المشاركة في المسير إلى كربلاء، ممّا أدّى إلى شنّ حملة اعتقالات واسعة من النظام البعثيّ في المحافظة من قبل قوّات الأمن، ولكنّ هذا لم يمنعهم من مواصلة الحراك والدعوة إلى المسير إلى كربلاء، وحددوا الساعة الحادية عشر من صباح الخامس عشر من شهر صفر موعداً لانطلاق المسيرة.

وقبل أيّام قليلة من بدء الانتفاضة حاول النظام تدارك الموقف وعقد اجتماعٍ مع قادة المواكب ومجالس العزاء في النجف إلّا أنّ هذه الاجتماعات لم تسفرْ عن نتيجةٍ؛ حيث أصرَّ أهالي النجف على المسير إلى كربلاء رغم التهديد من قبل محافظ النجف جاسم محمّد الركابي والسلطات الأمنية فيها.

الهوامش

[١] أورده الشيخ المفيد في كتاب المزار: ٥٣/ ١، والشيخ الطوسيّ في تهذيب الأحكام ٦: ٥٢ / ٣٧، ورواه أيضا في مصباح المتهجّد ٢: ٧٨٨، والفتّال النيشابوريّ في روضة الواعظين ١: ١٩٥، ومحمّد بن جعفر المعروف بابن المشهديّ في كتابه المزار الكبير: ٣٥٢/ ١، وعليّ بن موسى المعروف بابن طاووس في كتابه الإقبال بالأعمال الحسنة (ط. الحديثة) ٣: ١٠٠، وغيرهم.

[٢] آل عمران ٣: ٣١.

[٣] الحشر ٥٩: ٩.

[٤] تفسير العيّاشيّ ١: ١٦٧ / ٢٧.

[٥] فرحة الغريّ: ٧٥.

[٦] أورده الشيخ الطوسيّ في تهذيب الأحكام ٦: ٢١ / ٦.

[٧] أورده ابن قولويه في كامل الزيارات: ١٣٣/ ٦.

[٨] المصدر السابق: الحديث رقم ٨.

[٩] المصدر السابق: الحديث رقم ٩.

[١٠] المصدر السّابق: الحديث رقم ١٠.

[١١] فاجعة الطفّ: ٥٢٢.

[١٢] أورده النوريّ في مستدرك الوسائل ١٠: ٣١٨ / ١٣.

[١٣] الإمامة وال/ سياسة ٢: ١٣٠.

[١٤] ابو الحسن الشيخ محمد باقر بن محمد حسن بن اسد الله ولد في قائن في بيرجند درس علي يد والده ثم ارتحل الي مشهد ثم الي النجف الاشرف ومنها إلى سامراء وابرز اساتذته الميرزا الشيرازي ومن اساتذته في علم الحديث المحدث النوري صاحب المستدرك وله مؤلفات منها وثيقة الفقهاء وكتاب نور المعرفة وغيرها.

[١٥] محمد بن جواد بن حسين بن طالب البلاغي (١٨٦٥-١٩٣٣). رجل الدين والتفسير وفقيه وهو عراقي كما انه كان شاعرا واديبا وباحث في الاديان ويتحدث الانكليزية والعبرية وهو من المشاركين في ثورة العشرين ومن مؤلفاته الاء الرحمان في تفسير القرآن